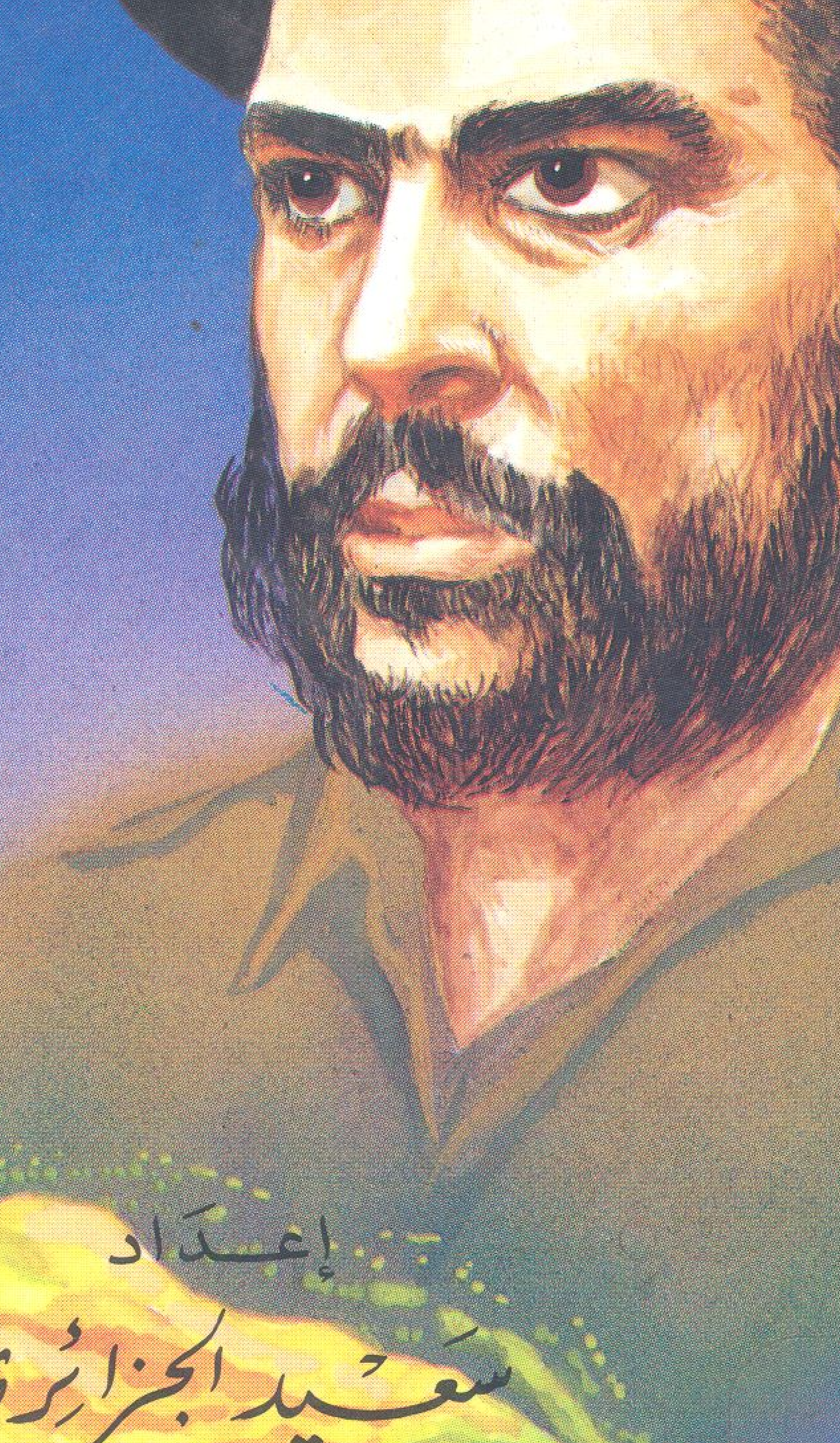
تشي غيفارا

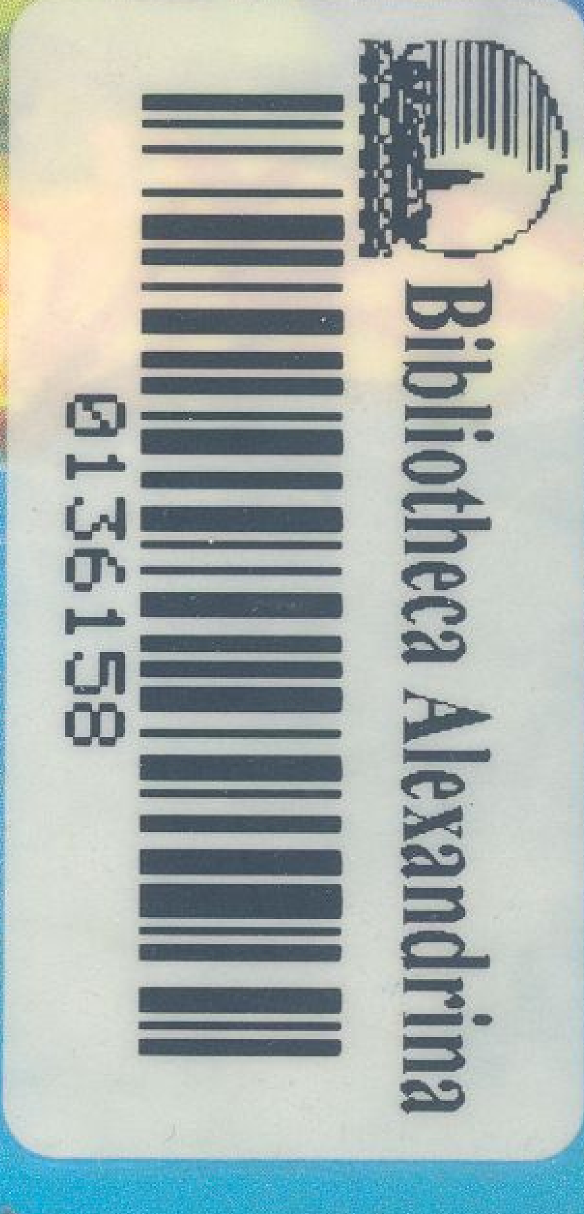
يروي

مراحل الثورة الكوبية



إعداد

سعيد الجزائري



دار الجيل

بيروت

تشي غيفارا

الثائر وزميل كاسترو
وضحيّة المخابرات الأميركيّة

يروي

مراحل الثورة الكوبيّة

إعداد

سعيد الجزائري

دار الجيل

بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

المقدمة

يتضمن هذا الكتاب مجموعة مقالات ظهرت في بادئ الأمر في صحيفة «بوهيميا» الكوبية الكبيرة وهي صحيفة القوات المسلحة الكوبية التي أنشئت في كوبا بعد انتصار الثورة كما سيجيء في هذا الكتاب، لذلك كان من الطبيعي أن تضاف إلى هذه المقالات حسب رأي (تشي) نفسه مقالات أخرى نشرها هو نفسه قبل وبعد نشر الأصل في صحيفة بوهيميا، ولهذا فإن هذا الكتاب الذي نقدمه لقراء كتب المخابرات والعالم هو أكثر كمالاً من النسخة التي نشرت في كوبا نفسها. كما أن العنوان الذي ترجمناه من الاسبانية تحت اسم (ذكرى الحرب الثورية) يدل على أن الأمر يتعلق بالحوادث الهامة التي سجلها (تشي)، الغارق في مهماته الوزارية، بسرعة على الورق في لحظات راحته القليلة. وسيجد القارئ في صفحات هذا الكتاب سرداً متتابعاً وتفصيلياً تاريخياً واضحاً للعمليات العسكرية التي جرت في الجزيرة الكبيرة (كوبا) من ٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٦ وهو تاريخ النزول من المركب (غرانما) إلى تاريخ ١ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٩ يوم دخول الجيش الثوري العاصمة هافانا. ومذكرات (تشي) تدل بكل وضوح على أنه لم يكن يعتبر نفسه (كمؤرخ) ولكنه كان يعتبر نفسه (شاهد عيان) ينقل مشاركته الشخصية في تاريخ الحرب الثورية الحديثة، وكان يعتقد أن شهادته هذه مثالية وهادفة لأنها تظهر السبيل والحقيقة وتدعو زملاءه المقاتلين الذين شاركوه تلك الحرب الثورية الظاهرة ليقولوا بدورهم ما شاهدوه واشتركوا به رغم مضي السنين، وهذه المذكرات الحقيقية التي تنشر بهذا الترتيب لأول مرة تستدعي الإعجاب بها منذ أول وهلة لبساطتها وفقدان أي تبجح أدبي فيها، ولو قيل لـ (تشي) إن بعض فقرات مذكراته النابضة بالانفعالات والحقائق أهل لأن تكون من إبداع كاتب كبير لاستغرب هذا القول. ومن السهل أن نرى أنه لم يتصور أبداً أن ذكرياته سوف تلقى هذا

الإقبال حتى الآن بل وتترجم إلى أغلب لغات العالم رغم أنها موجهة للكوبيين والأميركيين اللاتينيين لأنه يذكر في كثير من المواضيع أسماء وحوادث لا تعني شيئاً بالنسبة للقارئ الغربي.

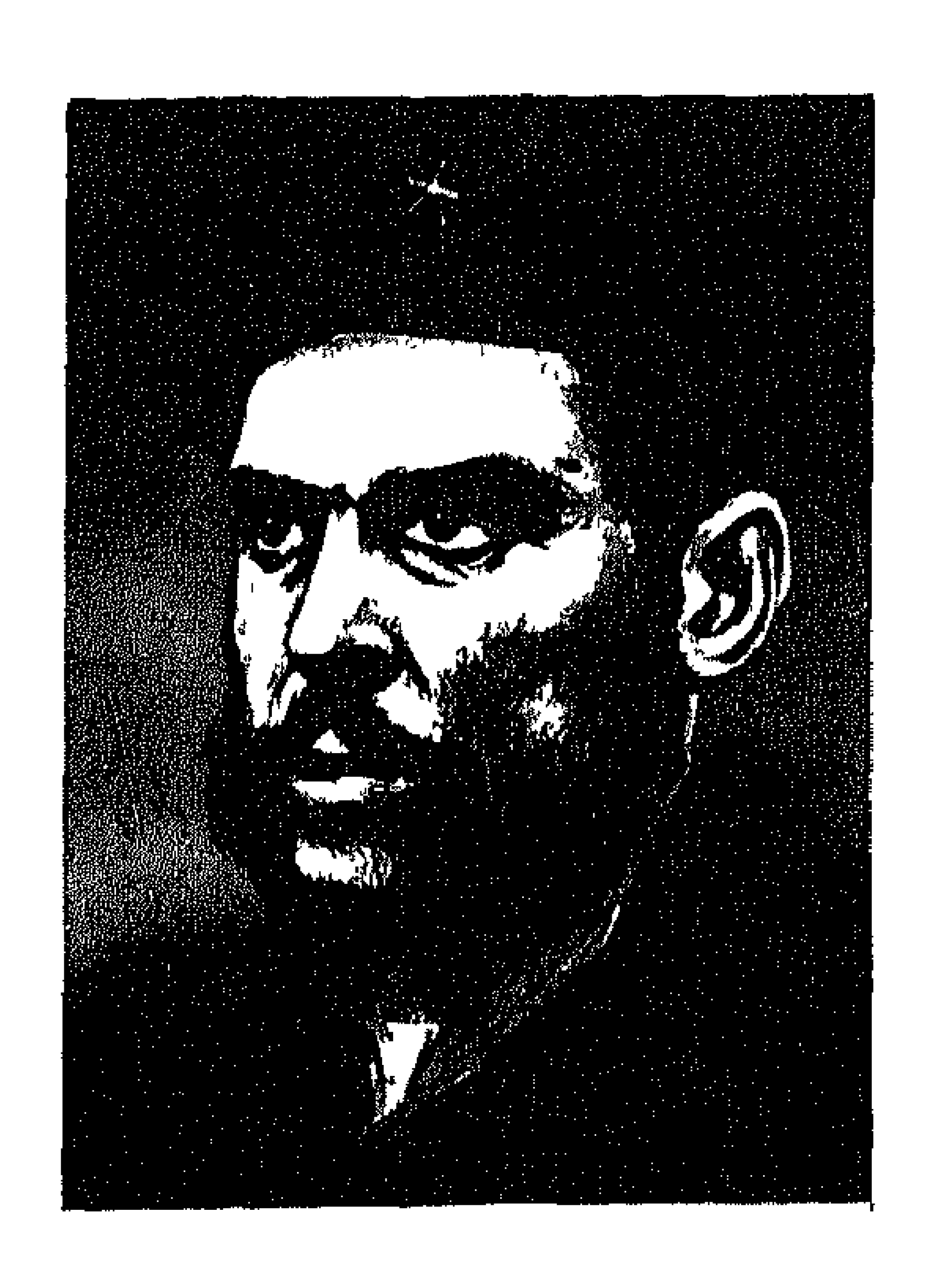
ومن الماضي القريب نعرض للقارئ أن كوبا هي أول أرض في أمريكا اكتشفها (كريستوف كولومبس) فغدت مستعمرة إسبانية منذ ذلك اليوم، واستطاعت كوبا بعد ذلك أن تتحرر من الاستعمار الاسباني بعد حرب طويلة ودامية استمرت منذ سنة ١٨٦٨ إلى ١٨٩٨، وعندما كان الثوار الكوبيون يهاجمون الوحدات الاسبانية العسكرية سنة ١٨٦٨ كانت كوبا تعيش حياة ازدواجية: فالاسبان يستغلون الكوبيين والكوبيون يستغلون بدورهم العبيد من الزنوج الذين انضموا في النهاية إلى مواطنيهم الكوبيين الذين (حرروهم) من العبودية فاشتركوا معهم ضد السلطة الاسبانية فأخذت المعركة عندئذ شكلاً شعبياً حيث بدأت تظهر بوادر النصر في الآفاق.

وفي سنة ١٨٩٨ تحددت الفترة التي انتقل فيها الاسبان المستعمرون إلى الدفاع وأصبحوا على وشك الاستسلام أمام هجمات الكوبيين. ولقد استسلموا بالفعل لولا تدخل الولايات المتحدة في آخر لحظة التي كانت تنتظر (فرصة ما)، فاستغلت انفجار الباخرة العسكرية الأميركية (مين) للتدخل في كوبا، وعندما حلت هذه اللحظة اغرقت مرة تلو الأخرى اسطولين اسبانيين كما نزل الأميركيون في سانتياغو واستولوا على جزيرة كوبا، وليس هناك من يمكنه وصف خيبة الأمل والحرج الذي أصاب الوطنيين الكوبيين. فلقد سرقت أميركا ثورتهم، فبعد أن قاتلوا ثلاثين سنة في سبيل الاستقلال سقطوا في استقلال مشبوه تحت سيطرة الولايات المتحدة التي أوجدت لأول مرة أسلوباً عالمياً جديداً هو الاستعمار الجديد. حتى كانت ثورة فيديل كاسترو ورفيق دربه تشي غيفارا صاحب هذه المذكرات.

المؤلف

سعيد جزائري

من هو الثائر البطل أرنستو تشي غيفارا



المخابرات المركزية الأميركية دعمت انقلاباً تم في جزيرة كوبا بتاريخ ١٠ آذار (مارس) لعام ١٩٥٢ برئاسة الجنرال باتيستا حيث قلب نظام الحكم الجمهوري. ولقد سبب هذا الانقلاب لكوبا خيبة أمل كبيرة حيث اختفت وتوارت من جديد الأنظمة والقوانين الجمهورية واختفت معها حرية الصحافة والضمانات والحريات الفردية وقامت ديكتاتورية جديدة وسط الوحل والدولار والدماء.

وكان هناك محام شاب (عمره ٢٥ سنة في حينه لأن كاسترو من مواليد ١٩٢٧) هو «فيدل كاسترو» يقود عشرات الشبان تحت اسم (حزب الأرثوذكسي ـ Orthodoxe) وكان مشمئزاً من تردد ونفعية رؤساء الحركات المختلفة ومن جبهة أعضاء حزب (الحقيقي ـ Authenrique) فأسس مع رفاقه الشبيبيين حركة أسماها فيما بعد «حركة ٢٦ يوليو» هدفها قلب النظام الديكتاتوري بقوة السلاح، وبعد سنة من التحضير استطاع فيدل كاسترو أن يجمع ويسلح ويدرب بشكل خفي (١٥٠ شاباً) وينقل إليهم بطولته وإيمانه وينقلهم بشكل سري من هافانا إلى سانتياغو وكوبا، حيث قاموا بهجوم على ثكنة مونكادا. وكانت غاية كاسترو في حالة النجاح الاستيلاء على مستودع الأسلحة في الثكنة، فإذا لم يستطع بعد ذلك المحافظة على المدينة يلجأ إلى سييرا مايسترا، وهي أعلى سلسلة جبلية في كوبا وتمتد بكتلة واحدة على طول البحر الكاريبي بطول ١٥٠ كم وعرض ٣٠ كم، وهي سلسلة وعرة غير

مأهولة مغطاة بغابات يصعب اختراقها وتؤمن مخبأ مثالياً لعمل الثوار.

وفشل الهجوم وكانت عمليات القمع دامية واستطاع فيدل كاسترو بمعجزة أن ينجو بجلده، ولقد حكم عليه مع /٣٠/ من رفاقه وسجن في سجن جزيرة الصنوبر حتى الانتخابات العامة التي فرضها الرأي العام على باتيستا سنة ١٩٥٥، وما أن تم انتخاب المجلس الجديد حتى صوت على العفو عن فيدل كاسترو ورفاقه، ولكن ما أن خرج فيدل كاسترو ورفاقه من سجنهم في جزيرة الصنوبر حتى عرفوا بعد بضعة أيام أن كوبا بكاملها غدت سجناً كبيراً فالتجأوا إلى المكسيك.

وبفضل الأسلحة المجمعة من قبل أتباع كاسترو من الكوبيين في كوبا والولايات المتحدة الأمريكية قام فيدل خلال سنة كاملة بتدريب جماعة مؤلفة من /٨٣/ شخصاً بسرية مطلقة، وفي هذه الفترة التقى بـ(ارنستو تشي جيفارا) ولقد كان «تشي» - كما كانوا يسمونه في الثورة طبيباً أرجنتينياً اشترك في الثورة الفاشلة في غواتيمالا في صفوف «العقيد أربنز». والحقيقة أن الوطنية الأمريكية اللاتينية لم تكن محلية إقليمية لأنها تجاوزت منذ مدة طويلة حدود الدول في هذه القارة، إن وحدة اللغة والثقافة والماضي على مستوى القارة ووحدة الألم والغار تحت نير السيطرة الأجنبية - الاسبانية ثم الأمريكية - تدل على أن أي شخص في أمريكا اللاتينية يشعر أنه ابن البلاد التي ولد فيها ويعتبر نفسه أيضاً جزءاً من مجتمع أوسع من حدود هذه البلاد وهو اتحاد دول أمريكا اللاتينية الذي لا تمثل منظمة الدول الأمريكية O.A.E الآن إلا صورة شوهاء منه.



المذكرات الشخصية الهامة لتشي غيفارا

(مذكرات كاملة):

* بدأ تشي غيفارا مذكراته الشخصية بالعودة إلى حدوث الانقلاب الباتيستي وبدأ بالتفصيل الآتي:

في ١٠ مارس (آذار) سنة ١٩٥٢ وبدون إراقة دماء وقع الانقلاب العسكري بقيادة باتيستا، ومن الطبيعي ألا يبدأ تاريخ هذا الحدث في نفس يوم الانقلاب ويجب أن نبحث عن أصوله البعيدة في تاريخ كوبا قبل تدخل السفير الأمريكي سومتر، سنة ١٩٣٣ وقبل اتفاقية بلات ١٩٠١ وقبل نزول البطل ناسيسو لوبير المبعوث المباشر للانضمام لأمريكا. . وحتى نصل أخيراً إلى جذور الموضوع في أيام جون كينس ادامز الذي شرح سياسة بلاده نحو كوبا في بداية القرن التاسع عشر بصورة مؤثرة عندما شبهها بتفاحة، ما أن تسقط من شجرة اسبانيا حتى تقع بصورة حتمية بين أيدي العم سام، إنها حلقات سلسلة من عمليات العدوان لم تكن كوبا ضحيتها الوحيدة.

هذا المد والجزر للموجات الامبريالية يمكن تحديده بسقوط الحكومات الديموقراطية أو بظهور حكومات جديدة تحت ضغط جماهيري لا يقاوم. هذا هو تاريخ أمريكا اللاتينية كلها. ويشكل الديكتاتوريون أقلية صغيرة تأتي إلى الحكم عادة بانقلابات عسكرية، أما الحكومات الديمقراطية التي كانت مدعومة من الشعب بشكل واسع فكانت تصعد بجد ولكنها حتى قبل أن تصل إلى السلطة الكاملة كانت تضطر إلى تقديم تساهلات وتنازلات عديدة للمحافظة على وجودها. ورغم أن الثورة الكوبية تشكل وضعاً استثنائياً في أمريكا فإنه كان من الضروري أن نذكر ما سبقها من ثورات لأنني قبل كتابة هذه السطور دفعتني ودربتني موجات الحركات الاجتماعية التي

تجتاح أمريكا فحصلت بذلك على فرصة جمعتني بلاجئ أمريكي آخر هو فيدل كاسترو. لقد تعرفت به في ليلة مكسيكية باردة وإني لأذكر أول نقاش دار بيننا حول السياسة العالمية طول الليل فما أن جاءت ساعات الصباح الباكر حتى غدوت أحد رجال الحملة المقبلة. وإنني أوّد هنا أن أشرح كيف ولماذا تعرفت في المكسيك برئيس حكومة كوبا المقبل (كاسترو).

لقد كان ذلك في عصر اختفاء الأنظمة الديموقراطية في ١٩٥٤ عندما سقطت آخر حكومة ديموقراطية ثورية أمريكية هي حكومة جاكوب أربنز غوزمان أمام العدوان الذي دبرته ونفذته الولايات المتحدة الأمريكية بكل برود وراء ستار دخاني من دعاية واسعة عامة. ولقد كان جون فوستر دالاس الوزير الأمريكي آنذاك بمحض الصدفة محامي شركة الفواكه المتحدة ويحمل عدداً كبيراً من اسهمها، وكانت هذه الشركة أكبر مؤسسة امبريالية في غواتيمالا.

وتركت البلاد وأنا أشعر شعوراً رهيباً بالفشل ولقد وحّدني الألم مع كل أهل غواتيمالا، لذا كنت أبحث وكلي أمل كيف يمكن بناء مستقبل هذا البلد الغارق في الغم والخوف.

وجاء فيدل إلى المكسيك باحثاً عن أرض محايدة ليجهز رجاله بها للعمل الحاسم ولقد تم اختيار وتصفية هؤلاء الرجال مسبقاً بعد الهجوم على ثكنة مونكادا في سانتياغو دو كوبا إذ انفصل الأشخاص الذين لم يكونوا متعلقين كلية بالهدف. أما القسم الآخر فلقد التحق لسبب أو آخر باحزاب سياسية أو بمجموعات ثورية تتطلب تضحيات أقل من التضحيات التي يطلبها كاسترو. ودخل المتطوعون الجدد داخل الصفوف على أسس جديدة «حركة ٢٦ يوليو (تموز). وقام منظمو هذه الحركة بالمهمة القاسية المتمثلة في تدريب هؤلاء المتطوعين في جو من السرية المطلقة، وكان عليهم أن يأخذوا حذرهم من الحكومة المكسيكية ومكتب المعلومات الفيدرالي الأمريكي (F.B.I) ومن جواسيس باتيستا ومن كل المنظمات القوية التي كان يلعب فيها المال وعمليات التهريب دوراً هاماً. وكان عليهم بالإضافة إلى ذلك الحذر

من جواسيس تروخيللو ومن الأشخاص المشبوهين المرسلين خاصة من ميامي. ولم تكن مقارعة كل هؤلاء كافية بل كان من الضروري النجاح في الانطلاق.. ثم الوصول والقيام بتنفيذ جيد للمهمة التي كانت تبدو لنا آنذاك سهلة. ونحن نعرف اليوم كم كلفت هذه المرحلة من جهد وتضحيات وأرواح بشرية.

وكان فيدل كاسترو المحاط بجماعة متآلفة قد كرس نفسه لمهمة تنظيم الجيش الذي سيتوجه إلى كوبا. ووضع في هذه المهمة كل حماسه وكل قدرته على العمل، ولم يعط أبداً تقريباً دروساً تكتيكية عسكرية لأنه لم يكن يملك الوقت لذلك. وكان ذلك من اختصاص الجنرال (البيرتو بايو). ومنذ الدروس الأولى اقتنعت اقتناعاً تاماً بأننا سننتصر.

(إنني أعترف بأن الانتصار بدا لي عبارة عن معضلة في أثناء اشتباك إلى جانب القائد الثوري الذي ارتبطت به منذ أول لحظة برباط مبني على العاطفة والتآلف والمغامرة، وفكرة الموت في بلاد أجنبية في سبيل مثل أعلى).

ومرت الشهور وبدأنا نحرز تقدماً في الرمي بالأسلحة وأصبح بعضنا من مهرة الرماة ووجدنا مزرعة في مكسيكو قمنا فيها تحت إشراف الجنرال بايو بالاستعدادات الأخيرة للرحيل الذي حدد تاريخه في مارس (آذار) سنة ١٩٥٦. ولكن مجموعتين من الشرطة كانتا تبحثان عن فيدل كاسترو بإيعاز من باتيستا. وكان حظ الأولى (المالي) كبيراً فاستطاعت القاء القبض عليه ولكنها ارتكبت خطيئة فاحشة فلم تقتله بعد أسره (بدوافع مالية أيضاً) وسقط أعضاء المنظمة بين أيدي الشرطة. أما المزرعة الموجودة في ضاحية المدينة فلقد هاجمها رجال الشرطة ووجدنا أنفسنا جميعاً في السجن.

وهذا ما عطل التجربة الأخيرة للعملية. وقضى بعضنا /٥٧/ يوماً في السجن وكان خطر تسليمنا لحكومتنا معلقاً فوق رؤوسنا (وكنا كاليكستو غارسيا وأنا نعرف عن هذا الأمر الشيء الكثير..) ولكن ثقتنا بفيدل كاسترو خلال هذه الفترة لم تتزعزع أبداً ويجب أن نقول إن فيدل قام ـ بدافع من

المحبة ـ بتصرفات كادت أن تعرض موقفه الثوري للخطر. فلقد شرحت له مثلاً وضعي الشخصي، لقد كنت أجنبياً وأعيش في المكسيك بصورة غير مشروعة وكانت على عاتقي تهم كثيرة. وقلت له إنه يجب عدم إيقاف مسيرة الثورة من أجلي وإنه يستطيع تركي إلى الخلف وإنني أفهم الوضع وأقدره ومستعد للذهاب إلى القتال حيثما أرسل. وكل ما كنت أطلبه هو إرسالي إلى بلد مجاور وليس إلى الأرجنتين. وإنني لأذكر ردّ فيدل الجازم: «لن أتخلى عنك» وهكذا كان. ولقد صرفت أموال كثيرة وضاع وقت كبير لإخراجي من السجن المكسيكي. هذا التصرف من قبل فيدل نحو الرجال الذين يقدرهم يفسر الروابط القوية التي يخلقها معهم. تلك الروابط التي يختلط فيها التعلق بالمبادئ، مع الولاء الشخصي، ولهذا السبب كان هذا الجيش الثوري يشكل كتلة صلبة متحدة.

وخلال أيام وأيام كنا نعمل بصورة سرية ونختبئ حيثما نستطيع، وكنا نتحاشى ما أمكن الظهور في الأماكن العامة، ولا نخرج إلى شوارع المدينة إلا نادراً. وبعد أشهر من هذه الحياة لاحظنا أن بين صفوفنا جاسوساً (ولم نكن نعرف من هو)، ولقد باع كمية من الأسلحة، وكنا نعلم أنه ساوم على مركبنا وعلى جهاز لاسلكي، رغم أن عقد البيع لم يكن قد وقع بعد. وهذه الخيانة الأولى أثبتت للسلطات الكوبية بأن الرجل كان فعلاً بيننا ويعرف أسرارنا. ومنذ ذلك الوقت كان علينا القيام بنشاط محموم. وتم إعداد المركب «غرانما» بسرعة جنونية وكدسنا فيه كل الأعتدة التي نملكها ولم تكن كلها حملاً ثقيلاً ـ البسة عسكرية، بنادق، تجهيزات وبندقيتين مضادتين للمدرعات بدون ذخيرة تقريباً ـ وفي ٢٥ نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩٥٦ وفي الساعة الثانية صباحاً أخذت كلمات فيدل التي قالها في ١٩٥٦، «سنتحرر أو نستشهد» والتي كانت محل سخرية الصحافة الرسمية شكلاً ملموساً، وأصبحت أمراً واقعاً..

وتركنا مرفأ توكسبان وعلى مركبنا المطفأ الأنوار خليط عجيب من الرجال والمعدات وكان عندنا وقت كبير، وكانت الملاحة ممنوعة، ومصب النهر هادئاً. وما أن غادرنا المرفأ حتى أضيئت الأنوار للبحث عن حبوب

الدرامامين ومع هذا فقد بدأ مفعول دوار البحر وغنى البعض النشيد الوطني الكوبي ونشيد «٢٦ يوليو» خلال خمس دقائق. وكان المركب عبارة عن مشهد محزن وسخيف بآن واحد: رجال وجوههم كالحة من الخوف والقلق يمسكون بطونهم بأيديهم من الغثيان. وبينما كانت رؤوس البعض غائصة وسط الدلاء كان البعض الآخر يستلقون على الأرض وقد اتخذت أجسامهم أوضاعاً غريبة، وكانت ثيابهم ملوثة بالقيء وباستثناء ٢ أو ٣ من البحارة و٤ أو ٥ أشخاص من المقاتلين.

أصاب الثوار الـ٨٣ دوار بحر قوي، وفي اليوم الرابع أو الخامس بدأت الأمور تسير بشكل أفضل، واكتشفنا أن ما كنا نعتقد أنه خرق تسرب منه الماء إلى المركب لم يكن سوى صنبورٍ من صنابير دورة المياه ترك مفتوحاً. وكنا قد القينا من المركب كل الحمولة الإضافية لأجل تخفيف الوزن بسبب هذا التسرب.

وكان الطريق الذي اخترناه يتضمن استدارة كبيرة نحو جنوب كوبا على محاذاة جامايكا وجزر كايمان للنزول أخيراً على شاطئ أوريانت في مكان ما على مقربة من نيكيرو، وكان تنفيذ المخططات بطيئاً نوعاً ما..

وفي يوم ٣٠ علمنا عن طريق محطات الإذاعة بثورة سانتياغو دو كوبا التي قام بها صديقنا الحميم فرانك بايس الذي فكر بالقيام بها لتتوافق زمنياً مع وصول الحملة، وفي اليوم التالي ١ ديسمبر (كانون الأول) وعند هبوط الظلام اتجهنا باتجاه كوبا بعد أن فقدنا الأمل بالانتظار لاكتشاف منارة كابوكروز نظراً لنقصان الوقود والتموين والمياه، وفي الساعة ٢ صباحاً وفي الليل الحالك ووسط طقس قاس لم يكن الموقف مطمئناً. وكان الرصاد يذهبون ويأتون بحثاً عن إشارات ضوئية لم تكن تظهر في الافق. أما روك الضابط السابق في البحرية العسكرية فقد كان قلقاً يبحث عن نور «الرأس»، وصعد مرة أخرى على الجسر العلوي للمركب فتعثر وسقط في البحر فاضطررنا لإضاعة بعض الوقت لالتقاطه وبعد أن عدنا إلى المسير ظهر الضوء أخيراً، ولكن السير البطيء لمركبنا جعل الساعات الأخيرة لرحلتنا بلا

نهاية، ولما وصلنا إلى البر الكوبي كان النهار قد طلع، ونزلنا في مكان يدعى بيليك على شاطئ دولاس كولورادوس وشاهدنا مركب حراسة شواطئ فأبرق بما شاهده إلى سلطات باتيستا، ولكننا نزلنا على اليابسة بكل سرعة، وحملنا معنا الضروري جداً من العتاد وما أن دخلنا في منطقة المستنقعات حتى بدأ الطيران المعادي يحلق فوقنا، ولكن بما أننا كنا نسير في هذه المستنقعات المغطاة بالأشجار والأعشاب الكثيفة فإن الطيران لم يكن يستطيع تحديد مكاننا أو مهاجمتنا ولكن جيش الديكتاتور انطلق في أعقابنا.

وقضينا ساعات عديدة حتى استطعنا الخروج من الورطة الموحلة التي أوقعنا بها تعاون وعدم خبرة أحد الرفاق الذي كان يدعي معرفته بالمنطقة، وأخيراً وصلنا إلى البّر مُبتلي الثياب نتعثر في مسيرنا بلا هدف واضح. لقد كنا جيشاً من الظلال والأشباح التي تتقدم كأنها مدفوعة بقوة بدنية غامضة، لقد تعرضنا خلال / ٧/ أيام للجوع ودوار البحر ثم أضيفت إليها ثلاثة أيام مريعة على الأرض. وفي فجر ٥ ديسمبر كان قد مضى على تركنا المكسيك ١٠ أيام وكنا قد سرنا طوال الليلة السابقة سيراً متقطعاً تخللته حوادث الإغماء والدوار وتوقفات الاستراحة ووصلنا إلى نقطة معروفة تحمل اسم اليجريا دو بيو.

اليجريا دو بيو هي مكان يقع في منطقة أوريانت، مديرية نيكيرو وغير بعيدة عن كابو كروز. هنا فاجأتنا في ٥ ديسمبر (كانون الأول) قوات الدكتاتور.

ووصلنا إلى هذا المكان منهكين، بعد مسير طويل وأليم، لقد نزلنا إلى اليابسة في ٢ ديسمبر (كانون الأول) على شاطئ دولاس كولورادوس حيث فقدنا تقريباً معظم تجهيزاتنا ومن هنالك مشينا ساعات وساعات وسط مستنقعات الماء المالح وبأحذية جديدة وهذه هي الشروط الأكثر ملائمة ليصاب الجميع تقريباً بتقرحات رهيبة في الأقدام. ولكن الأحذية الجديدة والأقدام المتقرحة لم تكن عدونا الوحيد لأننا قضينا في سبيل الوصول إلى كوبا سبعة أيام في اجتياز خليج المكسيك والبحر الكاريبي بمركب في حالة

سيئة دون أن يكون معنا ما نأكله تقريباً. وكل الرجال أصابهم دوار البحر. إننا لم نكن حقاً معتادين على البحر، وبالاضافة إلى ذلك فإنه في ٢٥ نوفمبر (تشرين الثاني) عندما تركنا مرفأ توكسبان كانت ريح الشمال تعصف بشدة لدرجة كانت الملاحة معها ممنوعة.. ولم يمض هذا طبعاً دون أن يترك أثراً على الرجال الذين كان معظمهم من الجدد الذين لم يسبق له الاشتباك في أي قتال حقيقي.

وفي ذلك الوقت لم نعد نملك من المعدات الحربية سوى البنادق وجعب الذخيرة وبعض الطلقات المبتلة واختفت معداتنا الطبية تقريباً. وتركنا معظم حقائب الظهر في المستنقعات. وفي اليوم السابق كنا قد تقدمنا ليلاً خلال الممرات في مزارع السكر التابعة لمركز زراعة القصب السكري، «نيكيرو» الذي كان يملكه آنذاك خوليو لوبو. وكم كنا بلا تجربة ولا أدلّ على ذلك من أننا كنا نحاول تهدئة عطشنا والجوع الذي ينهش أمعاءنا بامتصاص القصب السكر نقتطعه من تخوم الحقول ثم نلقي بقايا العيدان على الطريق ولم يكن على الحراس والجنود القيام بأبحاث معقدة بحثاً عنا فلقد كان دليلنا نفسه يخوننا ويدل الحراس الأعداء على أماكننا، ولقد عرفنا ذلك بعد عدة سنوات. فقد تركناه يذهب ويجيء كما يريد الليلة السابقة ولقد ارتكبنا بهذا العمل خطيئة فاحشة كررناها عدة مرات طوال مدة الصراع حتى تعلمنا أخيراً بأن العناصر المساعدة من الأهالي الذين نجهل ماضيهم الحقيقي، وارتباطاتهم يجب أن يكونوا تحت المراقبة ما دمنا في منطقة خطرة. ولم يكن علينا أن نسمح لدليلنا (الخائن) أن يبتعد عنا مطلقاً.

وفي فجر يوم ٥ كان عدد القادرين على السير خطوة أخرى إلى الأمام قليلاً جداً إذ كان الرجال منهكين ولا يمشون سوى مراحل قصيرة يطالبون بعدها بتوقفات طويلة.

لذا قررنا الوقوف على تخوم مزرعة قصب سكر وسط دغل غير كثيف قرب الغابة وقضينا جميعاً صبيحة هذا اليوم نائمين...

وعند الظهيرة بدت لنا ظواهر غير طبيعية بدأت تثير قلقنا. فقد أخذت

تحلق حول المنطقة طائرات بيير وأنواع أخرى من الطائرات الصغيرة العسكرية أو الخاصة. وتابع بعضنا بكل هدوء قطع قصب السكر خلال تحليق الطائرات دون أن يتخيلوا مدى ظهورهم للطائرات المعادية بسبب انخفاضها وقلة سرعتها.

وكانت مهمتي كطبيب للقطعة معالجة أقدام المقاتلين. وإنني أذكر أن آخر عمل طبي قمت به في هذا اليوم كان معالجة قدمي الرفيق هوميرتو لامبوت وكانت هذه آخر مراحله وإنني لأتخيله وهو يغادر مستوصف الميدان الصغير ليلتحق بمركزه وأتخيل شبحه المنهوك التعيس وهو يحمل بيده حذائيه اللذين كان يتعذر عليه لبسهما.

وكنت أتحدث مع الرفيق مونتانه عن أولادنا ونحن مستندين إلى جذع شجرة نتناول طعامنا القليل - نصف سجقة وقطعتي بسكويت - عندما انطلقت أول طلقة. وبعد عدة ثوان بدا لمخيلتنا المضطربة أن سيلاً من الرصاص ينهمر على جماعتنا المؤلفة من ٨٢ رجلاً. ولم تكن بندقيتي من أحسن الأنواع ولقد طلبت شخصياً وبمحض إرادتي أن تكون كذلك لأن ظروفي البدنية كانت تدعو إلى الرثاء بعد أزمة الربو التي لاحقتني طوال فترة اجتياز البحر. ولم أكن أود إضاعة سلاح جيد بين يدي. ولست أدري في أية لحظة وكيف جرت الامور، لأن الذكريات تتلاحق وتتصادم ولكنني أذكر أنه وسط الرمايات جاء الميبدا - الذي كان نقيباً - إلى جانبي وسألني عن الأوامر. ولم يكن هنالك من يصدر مثل هذه الأوامر، ولقد عرفت فيما بعد أن فيدل حاول عبثاً أن يجمع الرجال وسط مزرعة القصب المجاورة. وللوصول إليها لم يكن على المرء إلا أن يجتاز الممر الفاصل ولكن المفاجأة كانت قوية والرصاص ينهمر بغزارة. وعاد الميبدا ليهتم برجاله. وفي نفس اللحظة ترك أحد الرفاق صندوق ذخيرة يسقط قرب قدميه.

ولما وجهت نظره إلى خطئه أجابني وقد اكتسى وجهه بمسحة من القلق والخوف لا أزال أذكرها جيداً: «بأن الأمور لا تسمح بالاهتمام بصناديق الذخيرة». ثم انطلق يعدو نحو مزرعة القصب (ثم مات فيما بعد

عندما اغتاله أحد أعوان باتيسيا). وتساءلت هل أكرس نفسي لعملي كطبيب أو لواجبي كجندي ثوري. .؟ ولعلها أول مرة جابهت فيها هذه المعضلة بشكل عملي. وكان أمامي كيس مملوء بالأدوية وصندوق ذخيرة وكان وزنهما يمنعني من حملهما معاً. فحملت صندوق الذخيرة وتركت كيس الأدوية واجتزت المسافة المكشوفة التي كانت تفصلني عن مزرعة القصب وإنني لأذكر جيداً أنني رأيت فوستينو بيريز راكعاً وسط الممر بين القصب وهو يرمي برشاشه وبالقرب مني كان الرفيق البينتوزا[(١)] يتجه نحو مزرعة القصب وجاءت رشة أصابتنا كلينا وأحسست بصدمة قوية في صدري وجرح في عنقي، واعتبرت نفسي هالكاً لا محالة وكان البينتوزا ينزف الدم من فمه وأنفه ومن جرح كبير في عنقه سببته رصاصة. وكان يصرخ «لقد أصابوني» ثم بدأ يطلق النار بشكل جنوني لأننا لم نكن نرى أحداً في هذه اللحظة. لقد كنت منبطحاً على الأرض ومن مكاني قلت لفوستينو «أنه يقرفني» ولم يتوقف فوستينو عن مهمته ولكنه نظر إلى جرحي برهة رغم مشاغله ثم قال لي إن الأمر بسيط ولكنني قرأت في عينيه خطورة جرحي.

وبقيت ممدداً، وأطلقت طلقة نحو الغابة مدفوعاً بنفس الدافع الغامض الذي دفع صديقي الجريح إلى إطلاق النار. وبعد ذلك بدأت أفكر بأحسن طريقة للموت في هذه اللحظة التي يبدو كل شيء فيها ضائعاً. وعادت إلى

---

(١) اميليو البينتوزا محارب قديم من مونكاد التقطه بعض الفلاحين وهو جريح ونقلوه إلى نيكيرو ولكن الطبيب الذي أحضروه له رفض علاجه فخبأه أحد الفلاحين في مزرعة. وكان عندما يريد أن يتكلم أو يشرب يضع راحة كفه فوق جرحه ثم صنع لنفسه سدادة من الشمع وضعها أعلى الثقب وربطها بمنديل. ورغم هذا كان عليه إذا أراد الكلام أن يثبت السدادة في مكانها بيده خشية أن يطردها ضغط الهواء. ثم أقرضه الفلاحون رغم فقرهم نقودا فذهب بالأوتوبيس إلى سانتياغو وكان الجنود يراقبون المسافرين ولكنهم لم يتجرؤوا على الاقتراب منهم لأنه كان قد قال للسائق عندما صعد إلى الأوتوبيس إنه يشكو من سرطان في الحلق. وفي سانتياغو عولج وشفي في المستشفى الاسباني على يد الدكتور مارتوريل.

ذاكرتي قصة قديمة لجاك لندن حيث يستند البطل فيها إلى جذع شجرة ويستعد لإنهاء حياته بكل كبرياء بعد أن عرف أنه محكوم عليه بالموت متجمداً وسط ثلوج ألاسكا. وكانت هذه هي الصورة الوحيدة التي أذكرها. وكان أحدهم ينادي أن على الجميع أن يستسلموا. ثم سمعت صوتاً يصرخ من الخلف (ولقد عرفت فيما بعد أنه صوت كاميلو سيانفوغوس). «هنا لا يستسلم أحد...» واتبع ذلك بشتيمة مقلعة وتقدم مضطرباً وأنفاسه متلاحقة وأظهر لي جرحاً كان يبدو وكأنه اخترق رئته وقال لي إنه جريح، ولقد أفهمته بكثير من اللامبالاة بأنني جريح مثله فتابع سيره المتعثر نحو مزرعة القصب. وخلال لحظة بقيت وحدي ممدّداً أنتظر الموت وجاء الميدا نحوي وشجعني على المثابرة. فتابعت التقدم رغم ألمي ودخلنا معاً مزرعة القصب ورأيت قرب جزع شجرة رفيقنا العزيز راؤول سواريز وقد شطرت إبهامه رصاصة بينما فوستينو بيريز يحاول تضميده ثم اختلط كل شيء. ومرت الطائرات على ارتفاع منخفض وأطلقت علينا نيران رشاشاتها وهذا ما زاد من اضطراب المشهد الذي كان يبدو ساخراً تارة وجدياً تارة أخرى، وكنا نشاهد مثلاً رجلاً ضخماً يحاول أن يختبئ خلف بعض أعواد القصب أو نشاهد رجلاً آخر يطلب منا أن نلتزم الصمت دون أن يعرف هو نفسه لماذا يطلب ذلك وسط ضجيج الرمايات.

وتشكلت جماعة يقودها الميدا، مؤلفة من راميرو فالديس (الذي أصبح الآن رائداً وكان آنذاك ملازماً) والرفاق شاؤو وبينتز وأنا وعبرنا آخر ممر بين القصب يتقدمنا الميدا لنصل إلى الغابة ونحتمي داخلها. وفي نفس اللحظة سمعنا أول إيعازات الرمي «نار» في مزرعة القصب ورأينا أعمدة الدخان واللهب وإنني لا أستطيع أن أؤكد ما رأيت كلية لأنني كنت أفكر بطعم الهزيمة واقتراب ساعة الموت أكثر مما أفكر بتبديل أوضاع الصراع. ومشينا حتى جاء الليل فمنعنا من متابعة المسير وقررنا النوم كلنا مجتمعين مكدسين تهاجمنا أسراب البعوض ويمزقنا العطش والجوع. وهكذا كانت أول مرة نواجه بها الرصاص في يوم ٥ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٥٦ في ضواحي نيكيرو. وهكذا بدأ الجيش الثوري يتشكل وينصهر بالقتال الفعلي..

المسير على غير هدى:

* وفي اليوم التالي لمفاجأة اليجريا دو بيو كنا نسير وسط البراري في منطقة تتعاقب فيها الأراضي الحمراء مع «أسنان الكلب» وكنا نسمع أصوات طلقات منعزلة في كل مكان تقريباً. ولم نستطع أن نجد سبيلاً حقيقياً.

وقال شاؤو ـ وهو محارب قديم اشترك في الحرب الاسبانية ـ بأنه إذا تابعنا السير هكذا على غير هدى فسنسقط حتماً وسط بعض الكمائن المعادية واقترح أن نجد مكاناً ننتظر به هبوط الظلام ثم نمشي بعد ذلك عندما يقبل الليل.

لقد كنا تقريباً بدون ماء. وعلبة الحليب المركز الوحيدة التي كنا نملكها ضاعت في حادثة سيئة. حيث إن بينيتز الذي كان يحملها قلبها وجعل عاليها سافلها داخل جيب سترته العسكرية، الأمر الذي جعل الثقوب التي فتحناها في غطاء العلبة تتجه إلى الأسفل وفي اللحظة التي أردنا أن نتناول فيها طعامنا أحضرنا أنبوب الفيتامين الفارغ الذي كنا نملؤه بالحليب ونصب فوقه الماء ولكننا لاحظنا بأسى بأن كل الحليب قد سال في جيب بينيتز وعلى ثيابه العسكرية.

واستطعنا أخيراً أن نجد كهفاً فجلسنا فيه وأشرفنا من إحدى جهاته على حقل نظر واسع يصلح للمراقبة ولكن الجهة الاخرى لم تكن تسمح باكتشاف تقدم العدو. وبما أننا كنا نهتم بالاختفاء أكثر من اهتمامنا بالدفاع فلقد قررنا البقاء في هذا الكهف طيلة النهار بعد أن تعاهدنا نحن الخمسة على القتال حتى الموت وكنا راميرو فالدير، وخوان الميبدا، وشاؤو، وبينيتز، وأنا. ولقد بقينا أحياء بعد هذه الهزيمة الساحقة وما تلاها من صراع.

وما إن هبط الليل حتى بدأنا المسير، ولقد استجمعت معلوماتي الفلكية ووجدت نجم القطب الذي وجهنا خلال يومين نحو الشرق للوصول إلى بيرامايسترا، وبعد عدة شهور عرفت أن النجم الذي كنا نسير على هديه لم يكن نجم القطب. وهكذا سرنا بمحض الصدفة في الاتجاه المطلوب لنصل عند الفجر ونجد أنفسنا أمام وهدة قريبة من الشاطئ..

وكان يفصلنا عن البحر جرف يرتفع ٥٠ متراً، وعلى الطرف الآخر كانت هناك صورة مغرية لصفحة ماء بركة توقعنا أن تكون مياهها عذبة بعد أن عانينا الكثير من عذاب الظمأ. وكان الجوع قد دفعنا إلى قتل عدد من السرطان الذي كان يحوم حولنا بأعداد كبيرة. ولكن لما كان إشعال النار أمراً وارداً فقد اكتفينا بالتهام الجزء الهلامي من أجسامها نيئاً. الأمر الذي حرك لدينا عطشاً لا يحتمل.

وقضينا وقتاً لا بأس به قبل أن نكشف مسلكاً يمكن بواسطته النزول لإحضار الماء، ولكن خلال الاضطراب الناجم عن الذهاب والإياب أضعنا بركة الماء التي اكتشفنا سطحها عندما كنا في أعلى الجرف فاضطررنا للاكتفاء ببرك الماء الصغيرة التي خلفتها الأمطار فتجمعت داخل تجاويف «أسنان الكلب».

ولقد استخدمنا لجمع الماء المضخة الصغيرة لجهاز الرش المستخدم في حالات الربو ولم يكن هنالك أكثر من بضع قطرات لكل واحد منا.

ومشينا على غير هدى وبدون اتجاه محدد ومعنوياتنا تسير نحو الانحدار، وكانت إحدى الطائرات تحلق فوق البحر بين آونة وأخرى. وبما أن التقدم وسط الصخور كان منهكاً فقد اقترح أحدنا أن نتقدم على محاذاة جرف الشاطئ، ولكن هذا يمكّن العدو من اكتشافنا. وبعد طول المسير تمددنا في ظل مجموعة من الشجيرات ننتظر غروب الشمس. وعندما حل الظلام اكتشفنا شاطئاً صغيراً فنزلنا في الماء لنستحم.

ولقد حاولت تطبيق فكرة كنت قد قرأتها في منشور شبه علمي أو في رواية من الروايات وتقول هذه الفكرة إن مزج الماء العذب بماء يعادل ثلثه من ماء البحر يعطي ماء صالحاً للشرب مع زيادة كمية السائل. فقمت بالتجربة مستخدماً الماء المتبقي في قاع زمزمية الماء وكانت النتيجة مؤسفة للغاية لأنها أعطتني شراباً مالحاً مع المزيد من انتقادات كل الرفاق. وما أن شعرنا بالانتعاش بعد السباحة حتى بدأنا المشي من جديد وكان الوقت ليلاً، واعتقد أن القمر كان واضحاً، وكنت أسير مع الميبدا في مقدمة الجماعة

فلاحظنا فجأة شبح رجال يستعدون للنوم في أحد الأكواخ الصغيرة التي يبنيها الصيادون على شاطئ البحر ليحتموا بها من الأنواء وكنا متأكدين أنهم جنود، ولكننا كنا قد اقتربنا منهم لدرجة تجعل من المتعذر العودة على أعقابنا. فتقدمنا بقفزات كبيرة. وأعطى الميبدا الأمر للنائمين بالاستسلام. وعندها تلقينا مفاجأة سارة. لقد كانوا ثلاثة من رفاق «غرانما» كاميلوسيا نفوغوس وبانشو غونزاليز وبايلو هورتادو، وبدأنا فوراً نتبادل الآراء والاعتقادات والأنباء حول ما يعرفه كل واحد عن الرفاق وعن المعركة. وقدم لنا جماعة كاميلو قطعاً من القصب السكري الذي اقتلعوه قبل الفرار. وساعدنا هذا السائل السكري المزج على خداع جوعنا. وفي هذه الأثناء كانوا بدورهم يمضغون أجسام السرطان بتلذذ. ولقد وجدوا السبيل لتهدئة عطشهم بامتصاص الماء المتجمع في تجاويف الصخور مباشرة بواسطة أنبوب أو قطعة خشبية جوفاء.

وتابعنا سيرنا معاً نحن الثمانية بقايا جيش «غرانما» ولم يكن لدينا أية معلومات عن وجود أحياء آخرين، ولقد فكرنا حسب مقتضيات المنطق أنه لا بد أن يكون هنالك جماعات أخرى كجماعتنا، إلا أنه لم يكن عندنا أية فكرة عن المكان الذي سنلاقيها فيه. وكل ما كنا نعرفه هو إننا إذا سرنا والبحر إلى يميننا فإننا نتقدم نحو الشرق أي نحو السييرا، المنطقة التي علينا أن نلجأ إليها. ولم نكن نفكر الاختفاء لأننا كنا محصورين بين الجرف والبحر وإمكانية فرارنا معدومة إذا ما صادفتنا مجموعة من جنود العدو. ولست أذكر الآن هل سرنا يوماً أو يومين على طول الشاطئ ولكنني أذكر أننا كنا نأكل التين الشوكي النابت على الشاطئ وكان هناك ثمرة أو ثمرتين لكل واحد منا لكي يسكت بها جوعه. وكان العطش يرهقنا نظراً لضرورة توزيع كمية الماء القليلة التي نملكها بكل حذر وتقتير.

وفي صبيحة أحد الأيام وصلنا مع الفجر في حالة من الإعياء والإرهاق إلى شاطئ البحر وبقينا هنالك نحاول النوم ريثما تتوضح الرؤية حتى نجد لأنفسنا مسلكاً يوصلنا إلى جرف كثيرة الوعورة.

وعندما طلع الصباح بدأنا عملية الاستكشاف فوجدنا أنفسنا فجأة أمام منزل كبير مصنوع من ألواح خشب جذوع النخيل، وكان يبدو وكأنه ملك لفلاح مترف. وكان ردّ الفعل عندي أنه لا يجب أن نقترب من منزل من هذا النوع لأن من المحتمل أن يكون شاغلوه من أعدائنا. بل كان من المحتمل أن يكون شاغلوه من الجيش. ولم يكن بينيتز يشاركني الرأي وانتهى الأمر بأن اتجهنا معاً نحو المنزل.

وبقيت في الخارج عندما تخطى رفيقي حاجزاً من الأسلاك الشائكة (وكان معنا شخص ثالث لم أعد أذكر من هو) وفجأة لاحظت بوضوح من خلال ضوء الفجر رجلاً في لباس عسكري وبيده بندقية (م١) وفكرت بأن آخر لحظات حياتنا قد اقتربت أو على الأقل حياة بينيتز الذي كان من المستحيل انذاره لأنه كان أقرب إلى الرجل مني. ولما وصل بينيتز إلى بعد عدة خطوات من الجندي قفل راجعاً من نفس الطريق وقال لي ببراءة تامة إنه رجع على أعقابه لأنه شاهد رجلاً معه بندقية وإنه يعتقد أن من المخاطرة طلب أي شيء من هذا الرجل.

والحقيقة أننا شعرنا بأنفسنا نحيا من جديد وخاصة بينيتز، ولكن مغامرتنا لم تنته هنا فبعد تفتيش دقيق في المناطق المحيطة بدأنا نتسلق الجرف المنخفض نسبياً في هذه النقطة. وكنا نقترب من منطقة أوخو دوبوئي (عين الثور) التي سميت هكذا لأن جدول ماء صغير يصب في البحر يثقب الجرف هنا من طرف إلى آخر.

وفاجأنا النهار قبل أن تنتهي عملية التسلق. ولم يكن أمامنا إلا أن نختفي في كهف قريب كان في موقعه مرصداً ممتازاً لكل الاتجاهات. وكان الصمت المطبق يخيم على المنظر. وكان هناك مركب بحري ينزل بعض الرجال عددنا منهم حوالى ٣٠ جندياً بينما غادر اليابسة إلى المركب رجال آخرون في عملية التبديل. ولقد عرفنا فيما بعد أنهم كانوا من رجال لوران سفاح البحرية المشهور الذي كان يقوم بتبديل رجاله بعد أن نفذ مهمته المشؤومة وأعدم بعض رفاقنا.

وأمام عيني بينيتز الغاضبتين ظهر السادة حاملو البنادق بكل حقيقتهم الأليمة ولم يكن الوضع حسناً لأن فرصة النجاة كانت معدومة إذا تم اكتشافنا ولم يكن أمامنا في هذه الحالة إلا الصراع في مكاننا حتى النهاية.

وطيلة النهار لم نجد شيئاً نأكله. وكنا نوزع الماء بتقنين شديد مستخدمين غطاء عدسة منظار تيلسكوبي إذ لم يكن لدينا مقياس آخر أشد عدالة.. وفي الليل بدأنا المسير لنبتعد عن هذه المنطقة التي عشنا فيها بضعة أيام في أشد أيام الحرب هولاً كنّا فيها ضحية الجوع والظمأ والشعور بالهزيمة مع وجود خطر داهم لا يمكن تحاشيه يدفعنا إلى الإحساس بأننا جرذان وقعت في الشرك.

وبعد محاولات شتى استطعنا الوصول إلى السيل الذي يصب في البحر أو إلى أحد روافده فارتمينا على الأرض نشرب من السيل بشراهة الخيول العطشى، وكان من الممكن أن نستمر في الشرب لمدة أطول لولا أن معداتنا الفارغة من كل طعام رفضت قبول أية قطرة أخرى. وملأنا الزمزميات وتابعنا الرحلة. وعند الصباح وصلنا إلى أعلى هضبة تتوجها مجموعة من الأشجار فتوزعنا في مختلف الاتجاهات بغية الاختفاء والاستعداد للمقاومة في أفضل الشروط. وقضينا اليوم ونحن نراقب الطائرات الصغيرة وهي تطير على ارتفاع منخفض فوق رؤوسنا وتذيع عن طريق مكبرات الصوت عبارات غير واضحة فهم منها الميدا وبينيتز - وهما من محاربي مونكادا القدماء - أنها تذيع الأوامر بالاستسلام. وبين آونة وأخرى كانت تصلنا من الغابة أصوات مبهمة لا يمكن تحديد ماهيتها.

وفي هذه الليلة قادنا تخبطنا إلى مقربة من منزل تنبعث منه أصوات جوقة موسيقية فبدأت المناقشات فكنا نرى: راميرو والميدا وأنا بأن علينا ألا نظهر في أية حفلة أو أي اجتماع من هذا النوع لأن الفلاحين سيكتشفون قريباً وجودنا لكل الجيران بدافع الثرثرة أو بدافع الوشاية. أما بينيتز وكاميلو فكان رأيهما أن علينا الذهاب إلى الحفلة لنأكل مهما كلف الأمر.

وأخيراً وقع اختيار الجماعة على الذهاب مع راميرو إلى البيت بغية

جمع المعلومات وجلب ما أمكن من المواد التموينية. وما إن اقتربنا منه حتى توقفت الموسيقى فجأة وترامى إلى إسماعنا بكل وضوح صوت رجل يقول: والآن لنشرب نخب رفاقنا في السلاح الذين قاموا بأعمال باهرة الخ... ولم ننتظر أكثر من ذلك وعدنا أدراجنا بأقصى سرعة ممكنة وبكل حذر لننقل إلى الرفاق نوعية الأشخاص المحتفلين في هذا المنزل.

وتابعنا المسير، ولكن بعد فترة قصيرة رفض الرجال التقدم. وفي هذه الليلة أو التي بعدها أعلن الرفاق باستثناء القليل منهم أنهم لم يعودوا راغبين في التقدم. عندها وبتأثير قوة غريبة قرعنا باب بيت قروي يقع على جانب الطريق الذي كنا نسير فيه في مكان يدعى بوبركاس جورد أس أي (الخنازير البدينة). وكان ذلك بعد /٩/ أيام من مفاجأة اليجريا دو بيو. وتم استقبالنا بكل حفاوة وغدا هذا الكوخ القروي عندئذ مسرحاً لولائم لا تنتهي. وكانت الساعات تمضي وتمضي ونحن نأكل بلا توقف، لدرجة أن النهار طلع علينا ونحن في غمار الوليمة. ولم يعد في إمكاننا الخروج من البيت. وعند الصباح تقاطر الفلاحون إلينا بدافع حب الإطلاع واللهفة للتعرف بنا أو ليقدموا لنا الطعام وبعض الهدايا.

ولم يلبث المنزل الصغير الذي كان يستضيفنا أن انقلب إلى جحيم. وكان أول المصابين بالإسهال الميبدا ولم تمضِ لحظات حتى بدأت علائم الإسهال تظهر لدى الرجال الثمانية بينما بدأ بعض الرفاق الآخرين يتقيأ. وعجز بابلو هورتادو عن الوقوف بسبب التعب الناجم عن دوار البحر والجوع والعطش بعد أيام السير الطويلة.

وقررنا الانصراف ليلاً بعد أن حمل الفلاحون لنا معلومات تفيد بأن (فيدل كاسترو لا يزال حياً) واقترحوا مساعدتنا للوصول إلى مكان يحتمل جداً أن يكون فيه مع كريسنسيو بيريز، ولكنهم اشترطوا علينا أن نستغني عن ألبستنا العسكرية واسلحتنا فوافقنا على ذلك واحتفظنا أنا والميبدا سراً بمسدسينا الرشاشين. وبقيت البنادق الثمانية وباقي الذخيرة في منزل القروي كضمانة. وانقسمنا إلى جماعتين الأولى مؤلفة من /٣/ أشخاص والآخرون

من ٤ أشخاص للنوم في بيوت قرويين آخرين لننطلق من هناك على مراحل متعاقبة نحو المايسترا. وكانت جماعتنا على ما اعتقد مؤلفة من بانشو غونزاليز وراميرو فالديس والميدا وأنا. أما الجماعة الأخرى فضمت كاميلو وبينيتز وشاؤو. أما بابلو هورتادو فقد كان مريضاً لدرجة تمنعه من مغادرة المنزل.

وما أن انطلقنا حتى ضعف صاحب البيت أمام الرغبة الملحة بسرد القصة إلى أحد أصدقائه بحجة سؤاله عن أحسن وسيلة لإخفاء الأسلحة. واستطاع هذا الصديق إقناعه ببيعها إلى لص ثالث قام بالوشاية بنا للجيش. لذا داهم العدو بعد مغادرتنا بعدة ساعات أول بيت استضافنا في كوبا فاصطحب معه بابلو هورتادو أسيراً وصادر جميع الأسلحة.

وفي خلال مسيرنا نزلنا عند أحد رجال الدين واسمه أرجيليو روسابال وكان يعرف باسم «الراعي» فما إن عرف هذا الرفيق بقصتنا الأليمة حتى اتصل بقروي آخر يعرف المنطقة جيداً ويعطف على الثوار. وفي هذه الليلة قادنا من ملاذنا الذي نحن فيه إلى ملاذ آخر أكثر أمناً. وكان هذا القروي غيير موغارسيا: وهو اليوم قائد الجيش الشرقي وعضو القيادة الوطنية للحزب في (هافانا).

وبعد ذلك استقبلنا في بيوت فلاحين عدة ومنهم كارلوس ماس الذي التحق بعد ذلك بصفوفنا، وبيروشو ورفاق آخرون نسيت أسماءهم.

وفي صبيحة أحد الأيام اجتزنا طريق بيلون مع ضوء الفجر وسرنا دون دليل إلى أن وصلنا إلى مزرعة منجو بيريز وهو شقيق كريستسيو بيريز فوجدنا فيها جميع الرفاق الذين نجوا بجلودهم وبقوا أحراراً حتى تلك اللحظة بعد عملية الإنزال وهم: فيدل كاسترو واونيفرسوسا نشير وفوستيننو بيريز وراؤول كاسترو وسيرو ريدوندو وايفيجينيو أميخرباس ورونية رود ريغيس وأرماندو رود ريغيس. وبعد بعدة أيام التحق بنا موران وكريسبو وخوليو ديازو كالكستوغارسيا وكاليكستو موراليس وبيير مودز.

ولقد جاءت جماعتنا الصغيرة بدون سلاح وبدون لباس عسكري لأننا

لم ننقذ من الكارثة سوى مسدسين رشاشين. فوجه فيدل إلينا تأنيباً شديد اللهجة وبقيت كلماته خلال جميع المعارك التالية وحتى اليوم محفورة في أذهاننا: «إنكم لم تدفعوا ثمن الخطأ الذي ارتكبتموه لأن الإنسان يدفع حياته ثمن ترك سلاحه في مثل هذه الظروف.. إن الأمل الوحيد الذي كان أمامكم للحياة لو إنكم وجدتم أنفسكم وجهاً لوجه أمام العدو وهو سلاحكم وإن تركه كان جريمة لا تغتفر».

معركة لابلاتا يوم /١٧/ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧:

* كانت أول عملية انتصرنا فيها هي مهاجمة ثكنة صغيرة تقع على مصب نهر لابلاتا في سييرا مايسترا. وانتشرت أخبارها بسرعة خارج حدود منطقة الصدام كلها وأثار هذا الأمر الانتباه في كل مكان وأثبت أن جيش الثوار لم يكن خرافة وأنه مصمم على القتال. أما بالنسبة لنا فكان ذلك نوعاً من تأكيد إيماننا بالنصر النهائي.

ففي /١٤/ يناير (كانون الثاني) ١٩٥٧، وبعد مفاجأة أليجريا دوبيو بحوالي شهر تقريباً توقفنا قرب ماجدالينا المفصولة عن لابلاتا بامتداد مايسترا الصخرى الذي يلاقي البحر بين الواديين الصغيرين.

وبناء على أوامر فيدل قمنا بإعادة تدريب الرجال على الرمي وخصوصاً بعض المتطوعين الجدد الذي كانوا يرمون لأول مرة في حياتهم. وأخذنا حماماً لذيذاً بعد أيام طويلة قضيناها بعيداً عن كل مقتضيات الأمور الصحية. كما بدّل من استطاع منا ألبسته الداخلية. وفي هذه اللحظة كان لدينا ٢٣ قطعة سلاح: ٩ بنادق مزودة بمنظار و ٥ بنادق نصف أتوماتيكية و ٤ بنادق عادية ومسدسين رشاشين تومبسون ومسدسين رشاشين ستار وبندقية عيار ١٦م. وفي هذا اليوم بعد الظهر اجتزنا آخر جبل يفصلنا عن مشارف لابلاتا، وسرنا تحت الأشجار على مسلك ضيق غير مطروق أعده لنا قروي من سكان المنطقة اسمه ميلكيا ديس إيلياس بضربات فأسه الصغير وكان دليلنا أوتيميو قد أعطانا اسم هذا القروي.

وفي هذا الوقت كان أوتيميو مثالاً للفلاح والثائر، كان عزيزاً علينا. ولكنه وقع فيما بعد أسيراً بيد كاسيلاس الذي بدلاً من قتله اشتراه بمبلغ ١٠ آلاف دولار مع رتبة عسكرية إذا ما قتل فيدل. ولكن أوتيميوا حجم عن التنفيذ في آخر لحظة ولم يتجرأ على ارتكاب جريمته. ولكنه أساء إلينا كثيراً بعد ذلك عندما كان يكشف للعدو أماكن تعسكرنا.

أما في ذلك الوقت فكان أوتيميو يخدمنا بكل إخلاص. لقد كان فرداً من جيش الفلاحين الذين يدافعون عن أراضيهم الصغيرة ضد ملاك الأراضي الكبار. ولقد قادهم الصراع ضد الملاكين إلى الثورة في نفس الوقت ضد قوات الحرس القروية الحليفة المخلصة لطبقة الملاكين.

وأوقفنا في الطريق في هذا اليوم اثنين من الفلاحين من أقرباء الدليل، أطلقنا سراح أحدهما بينما احتفظنا بالآخر على سبيل الحيطة والحذر. وفي اليوم التالي ١٥ يناير (كانون الثاني) شاهدنا عن بعد ثكنة لابلاتا. وكانت عمليات البناء فيها قائمة بينما تبعثرت ألواح التوتياء هنا وهناك. وشاهدنا عن بعد جماعة من الرجال يرتدون نصف ملابسهم عرفنا منها أنها ألبسة عسكرية. كما رأينا في الساعة السادسة مساء وقبيل الغروب وصول قارب مليء بالحراس الذين نزلوا إلى الشاطئ بينما استقل المركب حراس آخرون من الشاطئ. ولم نفهم جيداً معنى هذه العملية فقررنا تأجيل الهجوم إلى الغد.

ومنذ فجر يوم ١٦ وضعنا الثكنة تحت المراقبة. وكان حرس الشاطئ قد انسحبوا خلال الليل فأرسلنا كشافين عادوا دون أن يشاهدوا جندياً واحداً في أي مكان. وفي الثالثة بعد الظهر قررنا الاقتراب من الطريق الترابي الذي ينطلق من الثكنة ويسير محاذياً للجدول كي نرى بشكل أفضل. وعند هبوط الظلام اجتزنا بدون صعوبة لابلاتا وتمركزنا على الطريق وبعد خمس دقائق أوقفنا اثنين من الفلاحين وكان أحدهما مشبوهاً بنشاطه كجاسوس وأفهمناهما من نكون وأنذرناهما باستخدام القوة إذا لم يضعا تحت تصرفنا ما يعرفانه بكل صراحة.. وكان أن قدما لنا معلومات ثمينة: لقد قالا لنا إنه يوجد في

الثكنة ١٥ جندياً وينتظر قدوم أحد كبار المشرفين الزراعيين في المنطقة وهو شيشو اوزوريو. ولقد كانت عائلة لافيني قد أسست في المنطقة إقطاعية كبيرة وحافظت عليها بالعنف والقوة بفضل أشخاص من أمثال شيشو اوزوريو. وبعد لحظات شاهدنا قدوم شيشو هذا، وكان يبدو مخموراً ويركب بغلة ويردف خلفه عبداً أسود. وصرخ به أونيفرسو سانشيز أن يقف باسم الحرس المحلي فقال دون تردد «ناموسة» وكانت هي كلمة السر.

ورغم شكلنا الطيب الذي لا يدل على أننا من الحرس المحلي فقد استطعنا خداع شيشو لأنه كان مخموراً إلى درجة كافية. ولقد قال له فيدل بكل استعلاء إنه عقيد من الجيش جاء ليرى بنفسه سبب عدم تصفية الثوار حتى الآن. ولم يتردد في سبيل ذلك من أن يدخل في الغابات، ولهذا السبب فإن له لحية. كما قال له إن الجيش في هذه القضية لا يقوم إلا «بحماقات» ثم وجه بعض الكلمات القاسية حول الصفات التنفيذية للقوات المعادية. وأثر فيدل على شيشو الذي أخذ يتحدث عن الحراس الذين يجلسون بلا عمل في الثكنة ويمضون وقتهم بالأكل دون أن يفعلوا شيئاً، باستثناء بعض الجولات الروتينية، ثم أعلن بخيلاء إنه يجب تصفية وإبادة كل الثوار. ولقد طرحت عليه بعض الأسئلة فكانت إجاباته تدلنا على معرفة عدد الأصدقاء والأعداء الموجودين داخل المنطقة. وكنا بالطبع نفكر بشكل يناقض أجوبته. فكل من كان يطلق عليه لقب «رجل شرير» هو بالنسبة لنا صديق قوي. وطالت لائحة الأصدقاء حتى بلغت ٢٠ اسماً وكان الجاسوس يتكلم أيضاً. ولقد شرح لنا الظروف التي قتل بها رجلين في المنطقة المجاورة ثم قال: «ولكن باتيستا أطلق سراحي فوراً» وحدثنا كيف صفع مؤخراً بعض الفلاحين الذي أظهروا «شيئاً من القحة» وأضاف أنه يعتقد أن الحراس غير أهل ليفعلوا ما فعل لأنهم يتركون الفلاحين يتحدثون دون أن يندسوا بينهم. وسأله فيدل عما سيفعله بفيدل كاسترو لو وقع في يده. فأجاب الرجل إجابة أكدها بإشارة معبرة وقال «يجب أن أقطع له؟ وكذلك كريسنسيو» ثم قال بعد أن لاحظ أحذيتنا المكسيكية «إن أحد أبناء الـ. . الذين قتلناهم كان يلبس أحذية كهذه» ولم يكن شيشو أوزوريو يعرف أنه

بهذا العمل قد حكم على نفسه بالإعدام. ثم قبل شيشو أن يقودنا إلى الثكنة بناء على إيعاز من فيدل الذي قال إنه يجب علينا أن نظهر فجأة بين الجنود لنتأكد من انتباههم وانضباطهم.

وسرنا نحو الثكنة يوجهنا شيشو أوزوريو. وكنت أعتقد شخصياً بأن هذا الرجل لم يقتنع تماماً بحجتنا. ولكنه تابع مع ذلك بكل سذاجة لأنه كان مخموراً لدرجة جعلته لا يلاحظ أي شيء. وفي اللحظة التي كان علينا بها أن نجتاز النهر لنصل إلى الثكنة قال له فيدل إن القوانين العسكرية تفرض تقييد الأسرى. وتركنا الرجل نقيده دون أدنى مقاومة. وتابع السير وكأنه أسير حقيقي وشرح لنا بأن المركز الوحيد للحرس محدد بواسطة مدخل الثكنة الذي يجري بناؤه ومنزل مشرف زراعي آخر يدعى هونوريو. وقادنا إلى مكان قريب من الثكنة ـ حيث يمر طريق ماسيو ـ فأرسلنا للاستكشاف الرفيق لويس كريسبو ـ وهو الآن برتبة رائد ـ وعندما عاد أعلمنا بأن المعلومات التي أدلى بها المشرف صحيحة: لقد شاهد البنائين وبينهما ظهرت نقاط حمراء من نور لفائف «سيجار» الحراس.

وكنا نود التقدم ولكننا اضطررنا للاختباء لنترك ثلاثة حراس من الخيالة يمرون وهم يجرون وراءهم أسيراً يسير على قدميه وكأنهم يجرون جحشاً. وإني لأذكر كلمات القروي المسكين يشكو عندما مر بالقرب مني: «إنني رجل مثلكم» وكان أحدهم يتولى زجره (عرفنا فيما بعد أنه العريف بازول) وكان يقول له «اخرس وامشِ وإلا جعلتك تمشي تحت ضربات السياط» وكنا نعتقد أن هذا المسكين سوف يتعرض لخطر أقل من الخطر الذي سيتعرض له في الثكنة تحت رمايات أسلحتنا في الهجوم المقبل. ولكن ما إن انتشرت أخبار المعركة في اليوم التالي حتى أعدم بكل جبن في ماسيو.

وكان معنا للهجوم /٢٢/ سلاحاً وكمية قليلة من الذخيرة. وكان علينا أن نحتل بها الثكنة مهما كلف الأمر لأن الفشل كان يعني بالنسبة لنا تبديد كل ذخيرتنا والبقاء عملياً بدون وسائل دفاع. وتقدم الرفيق خوليتو دياز (وكان آنذاك ملازماً ثم سقط في ساحة الشرف فيما بعد في معركة أوفيرو)

بمساعدة كاميلوسيا نفوغوس وبينيتز وكاليكستو موراليس. وكانوا جميعاً مسلحين بالبنادق النصف أوتوماتيكية. وكانت مهمتهم محاصرة المبنى الخشبي من أقصى اليمين، أما فيدل وأونيفرسو سانشيز وكريسبو وكاليكستو غارسيا وفاجاردو (وهو اليوم برتبة رائد) وأنا فكان علينا أن نهاجم من المركز بينما يقوم راؤول وجماعته والميدا وجماعته بمهاجمة البيت من اليسار.

وبعد أن اتخذنا هذا الوضع تقدمنا نحو مواضع العدو حتى وصلنا إلى حوالي ٤٠ متراً وكان القمر بدراً وبدأ فيدل الرمي برشتين من مسدسه الرشاش وتبعته كافة الأسلحة ودون أن نضيع الوقت أمرنا الجنود بالاستسلام ولكن دون جدوى. وكان لا بد من الانقضاض ولكننا قبل أن نقوم به أعدمنا الخائن شيشو أوزوريو وبدأنا الهجوم في الساعة ٢,٤٠ صباحاً وقاوم الحراس مقاومة لم نكن نتوقعها. وكان هناك رقيب حمل بندقية (م ١) ويرد علينا بالرمي في كل مرة نطلب منه فيها الاستسلام. وجاء الأمر بإلقاء قنابلنا اليدوية القديمة البرازيلية. وألقى كريسبو قنبلته فلم تنفجر وحذت قنبلتي حذوها، وألقى راؤول أصابع ديناميت لم تفعل شيئاً ولم يكن أمامنا إلا أن نتقدم ونشعل النار في المبنى ولو كلفنا ذلك حياتنا. وحاول أونيفرسو سانشيز القيام بذلك ففشل، كذلك فعل كاميلو ولكن بدون جدوى. فتقدمت مع كريسبو نحو الكوخ وأشعل هذا النار به. وتحت ضوء لهيب النار لاحظنا أن الكوخ عبارة عن مستودع لجوز الهند الخاص بالمزرعة المجاورة ولكن هذا كان كافياً ليبعث الهلع في نفوس الجنود فتركوا القتال. ولقد فر أحدهم على مقربة منا وتعثر ببندقية كريسبو الذي أطلق عليه النار فأصابه في صدره ثم جرده من سلاحه في حين كنا نرمي باتجاه المبنى. وتمركز كاميلوسيا نفوغوس خلف جذع شجرة وبدأ يصب النار على الرقيب الهارب مبدداً بذلك الذخيرة القليلة التي يملكها.

كانت طلقاتنا تنهمر بلا رحمة على الجنود الذين عجزوا عن المقاومة وكان كاميلو أول الداخلين إلى البيت وسمعنا عندئذٍ صرخات الاستسلام وانتهت المعركة وكانت نتيجتها أن كسبنا /٨/ بنادق سبرينجفيلد ومسدساً رشاشاً تومبسون وحوالي ١٠٠٠ طلقة. واستهلكنا في المعركة ٥٠٠ طلقة.

كذلك كسبنا جعباً للذخيرة ومحروقات وسكاكين قتال وألبسة داخلية وبعض الطعام. وكانت خسائر العدو (قتيلين و٥ جرحى و٣ أسرى) بينما هرب بعض رجاله عبر مزرعة الجاسوس (هونوريو) ولم تقع أية إصابة بيننا. وأشعلنا النار في مباني الجنود ثم غادرنا المنطقة بسرعة بعد أن ضمدنا جرحى الأعداء بأحسن صورة ممكنة وكان بينهم /٣/ جراحهم خطيرة، عرفنا بعد النصر النهائي أنهم ماتوا بعد أن تركناهم مباشرة تحت رعاية الجنود الأسرى عقب انسحابنا. ولقد التحق أحد هؤلاء الجنود براؤول كاسترو فيما بعد ووصل إلى رتبة ملازم قبل أن يموت في حادثة طائرة بعد النصر النهائي.

وكان هناك تناقض كبير بين تصرفنا وتصرف الجيش حيال الجرحى لأن الجيش لم يكن يكتفي بإعدام جرحانا وأسرانا بل كان يترك جرحاه في أرض المعركة وينسحب. ولقد أعطى هذا الاختلاف الإنساني في المعاملة نتائجه وأصبح عاملاً من عوامل النصر. وفي هذا اليوم ضغطت على عواطفي الإنسانية لأحتفظ بالأدوية كاحتياط لجنودنا، ولكن فيدل أمر بتسليم الأسرى كل ما نملكه من أدوية لعلاج جرحاهم وكنت مضطراً للتنفيذ. وعلاوة على ذلك أطلقنا سراح المدنيين. وفي الساعة ٤,٣٠ صباحاً توجهنا نحو المناطق الأكثر وعورة في السييرا.

ولقد شاهدنا قبل المعركة مشهداً محزناً عندما جاء عريف ومشرف زراعي وجمعا كل عائلات الفلاحين في المنطقة وأخبراهم بأن الطائرات ستقصف بيوتهم فبدأ الرحيل نحو الشاطئ. ولكن بما أنه لم يكن أحدهم يعرف بوجودنا في المنطقة فمن الواضح أن الموضوع كان مؤامرة حاكها المشرفون والحرس المحلي للاستيلاء على أراضي الفلاحين وممتلكاتهم، ولكن هجومنا هذا أكد إدعاءهم الكاذب وأحاله إلى حقيقة لدرجة أن الفلاحين أصابهم الهلع والذعر وكان من المستحيل علينا إيقاف هجرتهم.

وكانت هذه أول معركة ينتصر فيها جيش الثوار. وكانت هذه المعركة والمعركة التي تلتها المعركتين الوحيدتين اللتين كان فيهما عدد الأسلحة أكثر

من عدد الرجال. . إذ لم يكن القرويون مستعدين بعد للانضمام إلى صفوفنا كما لم تكن الاتصالات مع القواعد في المدن قد تحققت بعد بصورة عملية.

دخول معركة «غدير الجحيم» في ٢٢/ كانون ثاني (يناير) ١٩٥٧:

* غدير الجحيم عبارة عن مسيل ماء صغير يصب في نهر بالما موشا. ولقد خلفنا وراءنا بالماموشا وبدأنا نصعد الهضاب التي تحف بشواطئه لنصل إلى شبه تجويف دائرة وسط الجبل حيث يرتفع «بوهيو». هنا أقمنا معسكرنا بدون أن نستخدم طبعاً أكواخ الفلاحين.

كان فيدل يعتقد بأن الجيش الحكومي سيكون في أعقابنا وسيتمكن من اللحاق بنا فاختار هذا القطاع لإعداد كمين لمفاجأة الجنود المعادين. وتم توزيع الرجال بناء على هذه الخطة.

لم يكن فيدل يترك الخطوط بدون مراقبة وكان يقوم بجولات يتحقق فيها من فعالية الدفاع. وفي صباح يوم ١٩ يناير (كانون الثاني) بينما كنا نقوم بتفتيش رجالنا وقع حادث كاد أن يؤدي إلى نتائج خطيرة. فقد كان لديَّ على سبيل الذكرى في معركة لابلاتا خوذة جميلة لعريف من جيش باتيستا وكنت ألبسها بفخر لا مثيل له. وحدث أننا توغلنا وسط دغل من الأدغال في جولة تفتيشية، وفي طريقنا شاهدنا رفاقنا أفراد مفرزة المقدمة ونحن نسير كمجموعة يرأسها رجل يرتدي خوذة معادية. ومن حسن الحظ أن الرفاق كانوا مشغولين بتنظيف أسلحتهم فلم تعمل إلا بندقية كاميلوسيا نفوغوس الذي أطلق النار علينا. ثم لاحظ خطأه على الفور ولقد طاشت الرصاصة الأولى وأصيبت بندقيته الآلية بعطب أوقفه عن الرمي. ويدل هذا الحادث على حالة التوتر التي لازمتنا جميعاً ونحن ننتظر المعركة لتحررنا من القلق، لقد أحس الجميع في هذه اللحظات حتى أصحاب الأعصاب الفولاذية بارتجاف ركبهم. وكان كل واحد يتمنى بشدة وصول اللحظة الحاسمة في القتال: لحظة الاشتباك، ومع هذا لم يكن القتال حلمنا بل كان عملاً نقوم به عند الضرورة فقط.

وفي فجر يوم ٢٢ يناير (كانون الثاني) سمعنا بعض العيارات النارية المنفردة تنبعث من منطقة نهر بالماموشا. وهذا ما دفعنا إلى تحسين وضع خطوطنا الدفاعية ومضاعفة انتباهنا. فالعدو قادم ونحن ننتظره بين لحظة وأخرى.

وبما أننا كنا نعتقد أن وصول الجنود قريب فإننا لم نتناول طعام الإفطار ولا الغداء. ولقد اكتشفت مع «الفلاح» كريسبو خم دجاجة فبدأنا نستهلك بيضها. وتقضي العادة أن تترك للدجاجة بيضة لتبيض في نفس المكان. وكنا دائماً نحترم هذه العادة. ولكن في هذه المرة كنا متأثرين بصوت الطلقات التي سمعناها في الليل فاقترح «الفلاح» كريسبو أن نأكل البيضة الأخيرة واتبعنا القول بالفعل.

وعند الظهيرة تقريباً لاحظنا وجود شبح بشري وسط أحد أكواخ الأغصان «بوهيو». وفي بادئ الأمر اعتقدنا أنه أحد رجالنا الذين خالفوا الأوامر المشددة بعدم التجول حول البيوت. ولكن عندما دققنا النظر عرفنا أنه جندي عدو يستطلع وجاء آخرون حتى بلغ عددهم /٦/ جنود ثم انصرف /٣/ وبقي /٣/ ورأينا كيف قام أحد الجنود بالقاء نظرة سريعة حوله ثم اقتلع بعض الأعشاب وشبكها في خوذته للتمويه ثم جلس بهدوء وسط الظل. وكان وجهه ظاهراً بوضوح من خلال منظار البندقية التلسكوبي. ولم يكن يبدو عليه أي خوف أو حذر وفتح فيدل النار فصرعه وأسقطه وهو يصرخ «آه.. يا أماه..» ولم يقم بعدها. عندها، عندها فتحنا النار جميعاً على العدو فسقط الجنديان الآخران بدورهما ولاحظت أنه كان خلف «البوهيو» القريب مني جندي آخر يحاول الفرار ولم أكن أرى منه سوى ساقيه بينما حجب «البوهيو» القسم الباقي من جسمه فأطلقت باتجاهه طلقتين أخطأته الأولى بينما استقرت الثانية في صدره فسقط وسقطت معه بندقيته وانغرست حربتها في الأرض. فتقدمت تحت حماية «الفلاح» كريسبو حتى وصلت إلى «البوهيو» فالتقطت ذخيرة الجندي وبندقيته، ولما فحصت الجثة وجدت أن الرصاصة قد اخترقت القلب فمات فوراً وبدأت جثته تتصلب ولعل ذلك يرجع إلى تعبه الناجم عن طول المسير.

وكانت المعركة ضارية شديدة وما إن حققنا هدفنا حتى انسحبنا بكل سرعة. وعندما راجعنا نتائج المعركة لاحظنا أننا استهلكنا ٩٠٠ طلقة ولم نكسب سوى ٧٠ وجعبة ذخيرة وبندقية أخذها الرائد إيفيجينو أميخيرباس واستخدمها خلال مدة طويلة في الحرب. ولقد اعتقدنا أن قتلى الأعداء كانوا ٤ ولكن أحد الخونة الذي أوقفناه بعد عدة أشهر قال إنهم كانوا ٥ قتلى. ولم يكن هذا انتصاراً بكل معنى الكلمة ولكنه كان انتصاراً دون ثمن كبير فاحش. لقد قارنا قوتنا بقوة الجيش واجتزنا التجربة بنجاح.

ورفعت هذه المعركة معنوياتنا كثيراً وأعطتنا الشجاعة لمتابعة التقدم طوال النهار متسلقين المرتفعات الوعرة المطروقة فراراً من مطاردة قوات العدو الكبيرة ووصلنا إلى المنحدر الآخر من الجبل. وبهذا كنا نتقدم بشكل ممتاز مع وحدات جيش باتيستا التي اختفت ثم اجتازت القمة لتصل إلى المنحدر الآخر من الجبل، ولقد سارعت قواتنا مع قوات العدو ولمدة يومين تقريباً باتجاه متواز ومتجاور دون أن يعرف أحد الطرفين ذلك. وكنا ننام في «بوهيو» بينما كانوا ينامون في «بوهيو» مجاور لا يفصلنا عنه سوى نهر صغير. . وكانت دورية العدو تحت إمرة الملازم الأول سانشيز موسكيرا الذي كان يحمل شهرة سيئة في كل أنحاء سييرا بسبب ظلمه وجوره الشديدين.

وهنا يجب أن نذكر أن الطلقات النارية التي سمعناها قبل الاشتباك بعدة ساعات كانت لإعدام رجل من أهل هايتي رفض أن يقود العدو إلى مخبئنا ولو لم يرتكبوا هذه الجريمة لما وجدونا بانتظارهم على أتم استعداد.

وهكذا، وللمرة الثانية كنا نحمل أكثر من طاقتنا. وكان عدد كبير منا يحمل بندقيتين وفي هذه الظروف كان التقدم صعباً ولكن معنوياتنا كانت أفضل بكثير مما كانت عليه بعد كارثة (اليجريا دوبيو) فقبل عدة أيام انتصرنا على مفرزة معادية أصغر من جماعتنا ولكنها كانت متمركزة داخل ثكنة. واليوم انتصرنا على رتل سائر أكثر منا عدداً. وهذه المعركة أكدت لنا أهمية إبادة المقدمة في مثل هذا النوع من الحروب لأن الجيش بدون مقدمة يصل عاجزاً عن التقدم.

المفاجأة ـ الهجوم الجوي بتاريخ ٣٠/ كانون ثاني (يناير)/ ١٩٥٧:

* وبعد معركة النصر هذه ضد قوات سانشيز موسكيرا سرنا مع شاطئ لابلاتا ثم اجتزنا ماجدالينا لنعود إلى منطقة معروفة بالنسبة لنا قرب كاركاس. وكنا في خلال إقامتنا الماضية نعيش فيها مختبئين على نفس الهضبة. وكانت القرية برمتها معنا بعواطفها، أما الآن فإن جواً مختلفاً يخيم عليها بسبب الهلع الذي نشرته قطعات كاسيلاس في المنطقة أثناء عبورها. فترك الفلاحون الأرض ولم يبق خلفهم سوى أكواخهم المقفرة. وكنا نشاهد هنا وهناك حيواناً تائهاً نستخدمه في طعامنا. لقد علمتنا التجربة خطأ التمركز داخل المساكن.

لذا فإننا بعد أن قضينا الليلة في «بوهيو» منعزل عدنا إلى الغابة وعسكرنا قرب نبع ماء على ذروة هضبة كاركاس تقريباً.

وجاءني مانويل فاخاردو متسائلاً: هل يمكن أن نخسر الحرب؟ وردنا الثابت حتى بدون نشوة النصر لم يكن يتبدّل: إننا سنكسب هذه الحرب بلا جدال. ولقد شرح لي أن مبعث سؤاله هو ما أكده له «الغاليسي» موران. إننا نسير نحو الهزيمة وبأننا قد انتهينا وعرض عليه ترك كل شيء. فأسرعت لأعلم فيدل بالموضوع كله ولكنني وجدت أن «الغاليسي» موران سبقني إلى ذلك فقد قال لفيدل بأنه كان يجسّ نبض المقاتلين لمعرفة مستوى معنوياتهم. ولقد وجدنا أن هذه الطريقة غير سليمة. فألقى فيدل بالجميع محاضرة دعا فيها الرفاق إلى المزيد من الانضباط، وبيّن لهم الأخطار التي يمكن التعرض لها إذا لم نتبع تعاليم الانضباط التامة وأعلن بالإضافة إلى ذلك أنه اعتباراً من هذه اللحظة سيكون هنالك ثلاث جرائم عقوبتها الإعدام وهي: مخالفة الانضباط، والفرار والانهزامية. ولم يكن الموقف مشجعاً إذ أن جماعتنا المحرومة من صفات التحمل والصبر التي يكتسبها المقاتلون أثناء الصراع والمحرومة من الوعي الأيديولوجي لم تكن قادرة على التلاحم التام. وفي كل مناسبة كان بعض الرفاق يتغيبون أو يطلبون إذناً للذهاب إلى المدينة التي كان الخطر فيها أحياناً يفوق خطر المعسكر. ولكنهم كانوا يهربون بذلك

من ظروف الحياة القاسية في الغابة ولكن حياة الميدان لم تنقطع. وكان «الغاليسي» موران لا يتعب من البحث عن التموين وإنشاء العلاقات مع الفلاحين في المناطق المجاورة.

وعلى هذا الوضع كنا يوم ٣٠ يناير (كانون الثاني) وكان أوتيميو جيرا ـ الخائن ـ قد طلب في السابق إجازة لرؤية أمه المريضة فسمح له فيدل بذلك وأعطاه بعض المال كنفقات للسفر الذي قد يستغرق عدة أسابيع. ولم نكن قد عرفنا كنه مجموعة من الأحداث التي ألقى عليها نشاط هذا الشخص فيما بعد بعض الضوء. فبعد أن عاد أوتيميو إلى صفوفنا ادعى بأنه عندما وصل إلى مقربة من بالماموشا عرف أن القوات الحكومية كانت تسير في أعقابنا. ففعل كل ما يملكه لينذرنا ولكنه عندما وصل إلى «بوهيو» ديلفان ـ وهو فلاح من المنطقة التي جرت على أرضها معركة غدير الجحيم ـ لم يجد إلا جثث الجنود، ووجد المعركة منتهية، فتبع خط سيرنا في السييرا ليصل في النهاية إلينا. ولكن الحقيقة كانت غير ذلك: لقد كان في خدمة العدو وسبق أن ذكرنا بأنه وعد بمبلغ من المال وبرتبة عسكرية إذا اغتال فيدل. وبناء على هذه الخطة ترك أوتيميو المعسكر في الليلة السابقة للمعركة.

وفي صباح يوم /٣٠/ وبعد ليلة باردة، وفي ساعة تبديل الحراس سمعنا أزيز طائرة ولكننا لم نستطع تحديد مكانها لأننا كنا وسط الدغل بينما كانت نار المطبخ على بعد حوالي /٢٠٠/ متر إلى الأسفل قرب نبع صغير وحيث توجد أيضاً مفرزة المقدمة. ثم ترامى إلينا صوت انقضاض طائرة مقاتلة وسمعنا صوت رشاشاتها ثم انفجار قنابلها، ولم يكن لدينا سوى القليل من الخبرة في هذه الأمور وكنا نسمع صوت الانفجارات في كل مكان. وكانت الطلقات من عيار ٥٠ تنفجر عندما تلامس الأرض. فنعتقد بأنها صادرة عن الغابة نفسها، بينما كنا نسمع صوت الرشاشات في الجو. وهذا ما دعانا إلى الاعتقاد بأننا أمام هجوم بري أيضاً.

ولقد كلفت بمهمة انتظار رجال المقدمة وجمع بعض الأعتدة التي

تركها أصحابها من الرفاق عند بداية الهجوم الجوي. وكانت نقطة التجمع المقبلة في «كهف الدخان»، وكان شاؤول يساعدني في هذه المهمة وهو محارب قديم اشترك بالحرب الاسبانية. وانتظرنا بعض الوقت وصول الرفاق الذين أضعنا أثرهم ولكن انتظارنا كان عبثاً فبدأنا المسير للحاق برتل جماعتنا على مدق ترابي غير واضح تنوء بحملنا الثقيل. وبعد فترة من المسير قررنا الجلوس للراحة وسط بقعة جرداء من الغابة. وبعد ذلك سمعنا صوت حفيف الأعشاب والأصوات التي عرفنا منها قدوم الرفيق غيير موغارسيا (وهو اليوم رائد) وسيرجيو آكوانا من نفس الطريق الذي سلكناه ولقد كانا في مفرزة المقدمة التي تركناها قرب النبع وجاءا للالتحاق بالجماعة. وبعد فترة من النقاش عدت مع غيير موغارسيا إلى معسكرنا القديم وكان علينا أن نعرف ما حصل هناك لأننا لم نعد نسمع شيئاً بعد أن اختفت الطائرات وشاهدنا منظراً مؤسفاً أليماً: لقد كان قصف الطائرات دقيقاً لدرجة أنه دمر المطبخ. ومن حسن الحظ أن هذه الدقة في القصف كانت الوحيدة في تاريخ حربنا. لقد تحطم الفرن وتطاير قطعاً متناثرة بتأثير رشقات الرشاشات كما أن قنبلة سقطت وسط مركز مفرزة المقدمة بعد انسحاب أفرادها. وذهب «الغاليسي» موران للاستطلاع مع أحد الرفاق ثم عاد لوحده ليخبرنا بأنه رأى الطائرات من بعيد وعددها خمس وأنه ليس في المنطقة قوات برية فحملنا متاعنا الثقيل وسرنا نحن الخمسة على الطريق وسط مشهد مؤثر للمنازل المحترقة التي كان يملكها أصدقاؤنا القدامى. وكل ما وجدناه في الأكواخ قطة تموء بكل ضراعة، وخنزير ما إن شعر بنا حتى خرج راكضاً وقد ارتفع نخيره.

لقد كنا نعرف اسم «كهف الدخان» ولكننا لم نكن نعرف مكانه بالضبط وهكذا قضينا الليل بين الشك والأمل برؤية رفاقنا والإشفاق من لقاء العدو.

وفي يوم ٣١ تمركزنا على قمة هضبة تسيطر على أرض مزروعة وخرجنا عدة مرات نبحث عن «كهف الدخان» دون جدوى. وظن سيرجيو أنه رأى رجلين يضعان على رأسيهما قبعتي لاعبي البيسبول ولكنه أخبرنا بذلك متأخراً فلم نستطع اللحاق بهما. فنزلت مع غييرمو لاستطلاع أسفل

الوادي قرب شاطئ نهر «أخي» حيث وجد غييرمو صديقاً له أعطانا بعض ما نأكله وعرفنا منه بأن الأهالي أصيبوا بالذعر جميعاً، وبأن الحراس صادروا أو أحرقوا بضائع سيرو فرياس وأنهم صادروا كل رواحله وقتلوا السائس كما احرقوا دكان سيرو واختطفوا زوجته. كما عرفنا بأن الرجال الذين مروا في ذلك الصباح كانوا تحت إمرة الرائد كاسيلاس الذي نام قرب المنزل.

وفي ١ فبراير (شباط) عكفنا للراحة في معسكرنا الصغير المكشوف من جميع الجهات بعد متاعب المسير الذي قمنا به في اليوم السابق. ولكننا في الساعة١١ صباحاً سمعنا صوت طلقات في الطرف الآخر من الهضبة. ثم سمعنا صراخاً كأنه استغاثة. وكان ذلك أكثر مما يمكن أن تتحمله أعصاب سيرجيو آكوانا الذي ألقى جعبته وبندقيته وترك مركزه دون أن ينبس ببنت شفة. فسجلت في سجل القتال أنه قد هرب ومعه قبعة من القش وعلبة حليب مركز وثلاث سجقات. وكانت أفكاري كلها مركّزة آنذاك على الحليب والسجق... وبعد عدة ساعات سمعنا بعض الضوضاء، وكنا نخشى أن يكون الهارب قد وشى بنا فأخذنا مواضع القتال. ولكننا اكتشفنا أن القادم هو كريسنسيو ومعه كل جماعتنا بالإضافة إلى بعض المتطوعين الجدد من منزانيللو يقودهم روبرتو بيزان. وكانت جماعتنا قد فقدت سيرجيو آكوانا (الهارب) والرفيقين كاليكستو غارسيا ومانويل أكونا بالإضافة إلى متطوع جديد ضاع وسط رمايات ١ فبراير (شباط).

ثم نزلنا إلى وادي نهر «أخي» ثانية وتقاسمنا أثناء المسير أشياء كثيرة أحضرها جماعة مانزانيللو معهم وبينها حقيبة جراحة وألبسة داخلية للجميع. وكم كان تأثرنا بالغاً عندما لمسنا في مثل هذه اللحظة ألبسة داخلية وعليها الأحرف الأولى التي طرزتها فتيات مانزانيللو بأيديهن.

وفي اليوم التالي ٣ فبراير (شباط) وبعد شهرين تماماً من النزول من «غرانما» تشكلت جماعة متألفة متلاحمة، كما جاءت جماعة مؤلفة من ١٠ رجال من مانزانيللو لتنضم إليها. وشعرنا بأننا أصبحنا أشجع وأقوى من أي وقت مضى. وبدأنا مناقشات لا تنتهي محاولين فهم الطريقة التي تمت بها

المفاجأة بالهجوم الجوي. ولقد اجمعت آراؤنا على أن الدخان هو الذي أرشد الطائرات إلى مكاننا. وخلال شهر كامل بل وخلال الحرب كلها ظلت ذكرى هذه المفاجأة الجوية ترهب رجالنا. وبتنا دائماً نتحاشى إيقاد النيران في الهواء الطلق خلال النهار خشية تكرار وقوع تلك الكارثة المؤسفة.

ولكن كيف كان يمكننا أن نتصور أن الرجل الذي كان داخل طائرة الاستطلاع هو الخائن الجاسوس أوتيميو جيرا وأنه كان يوجه كاسيلاس نحو الموضع الذي نعسكر فيه؟ وفي الحقيقة فإن هذا لم يخطر على بال أحد مع أنه كان حقيقة دامغة لا ريب فيها. ولم يكن مرض والدته سوى حجة تذرع بها للذهاب إلى المجرم كاسيلاس وإحضاره.

ولقد تابع أوتيميو جيرا لعب دوره القذر المضر بسيرة حربنا التحريرية فترة أخرى.

مفاجأة هامة على مرتفعات أسبينوزا في ٩ شباط (فبراير) ١٩٥٧:

* بعد الهجوم الجوي الذي ذكرته تركنا هضبة كاراكاس محاولين العودة على أعقابنا نحو مناطق نعرفها بحيث نستطيع تأمين الاتصال المباشر مع مانزا نيللو. كما يمكننا أن نتلقى من الخارج دعماً أكبر ونتزود بفكرة أوضح عن الوضع العام في البلاد.

وسرنا عائدين من نفس الطريق واجتزنا نهر «آخي» وعبرنا مناطق معروفة لدينا لنصل أخيراً إلى منزل العجوز مندوزا. وكان علينا فتح الممرات وسط الجبل باستخدام الفؤوس الصغيرة لأن الغابة كانت مهجورة لم يطرقها الناس منذ أمد بعيد وهذا ما جعل تقدمنا بطيئاً جداً، وقضينا الليل على أحد المرتفعات ولم يكن معنا ما يسدّ رمقنا. وإنني لأذكر حتى الآن عندما حضر «الفلاح» كريسبو ومعه علبه فيها /٤/ سجقات كان قد ادخرها في السابق من طعامه وأعلن أن هذه السجقات مقدمة للأصدقاء، وكنا أربعة: كريسبو - وفيدل وأنا بالإضافة إلى رفيق آخر، فجلسنا نتذوق هذا الطعام المتواضع بتلذذ وكأننا في أفخر وليمة، ثم تابعنا المسير ووصلنا إلى المنزل

الواقع على يمين كاراكاس حيث كان على العجوز مندوزا أن يجهز لنا بعض المأكولات، وكل مرة كنا نمر فيها في هذه المنطقة كان هذا الرجل يستقبلنا مدفوعاً بوفائه القوي دون أن يخفي خوفه. ولكنه لم يكن يتهرب أبداً من الواجبات التي كانت تمليها عليها الصداقة التي تربطه بكريسنسيو بيريز وبعض القرويين من جماعتنا.

ولكن المسير كان صعباً بالنسبة لي خاصة أنني كنت مصاباً بالملاريا، ولكن بفضل «الفلاح» كريسبو والرفيق الذي لا ينسى خوليو زينون أكوستا استطعت الوصول إلى نهاية هذه المرحلة المنهكة. وعندما كنا نصل إلى الأماكن المأهولة لم نكن ننام أبداً داخل المساكن، ولكنني كنت متعباً لدرجة أرسلت معها بصحبة «الغاليسي» موران (الذي كان يجد دائماً وسيلة يمرض بها) لننام داخل المبنى بينما كان رجالنا يراقبون المناطق المجاورة ولا يدخلون المنزل إلا لتناول الطعام..

وجاء وقت أصبح من الضروري أن تظهر فيه جماعتنا: لقد كانت تضم عدداً من الرجال الذين ضعفت معنوياتهم. كما كان معنا رفيق أو رفيقان جريحان بشكل خطير وهما راميرو فالديس (وزير الداخلية بعد ذلك) وإينياسيو بيريزا بن كريسنسيو (ولقد سقط بعد ذلك في ساحة الشرف وهو يحمل رتبة نقيب) وكان راميرو قد أصيب بصدمة قوية في ركبته، تلك الركبة التي لم تشف جيداً من الجروح التي أصابتها في معركة مونكادا. وهكذا كان علينا أن نفترق عن راميرو وتركنا بعض الفتيان أيضاً. ولكن غياب الفتيان لم يؤثر على الجماعة ولم يضعفها. وإنني لأذكر أحدهم عندما أصابته نوبة عصبية وبدأ يصرخ وسط هدوء الغابة بأنه التحق بنا معتقداً أن لدينا معسكراً مليئاً بالمؤونة ومزوداً بدفاع ضد الطائرات فوجد أننا نموت جوعاً وعطشاً، وأن الطائرات تتصيدنا لدرجة تجعلنا لا نبقى في مكان واحد يومين متتاليين، ولقد كان يعبر قليلاً أو كثيراً عن إحساس المقاتلين في الأيام الأولى لحياة الميدان. أما من استطاعوا الصمود والانتصار أمام التجارب الأولى فقد تعلموا الاعتياد على القذارة ونقص المياه والطعام وندرة المأوى المريح. كما

تعلموا العيش وسط الخطر لا يأمنون إلا لبنادقهم ولا يعتمدون إلا على تماسك وصلابة هذه النواة الثورية الصغيرة.

وجاء سيرو فرياس وبصحبته رفاق التحقوا بالثورة مجدداً، وكان يحمل معه سلسلة من الأنباء إذا نظرنا إليها ولاحظنا أهميتها ودرجة صحتها ابتسمنا، ولكنها في ذلك الوقت ملأتنا بإحساسات غامضة. لقد قال لنا: إن ديازتا مايو كان على وشك أن يبدل مواقفه ويتعامل مع القوات الثورية، كما استطاع فوستينو أن يجمع المال الكثير لصالح الثورة وشرح لنا كيف انتشرت عمليات التخريب في كل أنحاء البلاد وباتت الدولة قاب قوسين أو أدنى من الانهيار، ولقد حمل إلينا بالإضافة إلى ذلك خبراً سيئاً ولكن كانت له دلالته وهو أن سيرجيو أكونا الذي هرب قبل عدة أيام التحق بأهله ثم تحدث مع أبناء عمه عن عمله مع الثوار وسمعه شخص اسمه بيدرو هيربرا فوشى به لرجال الشرطة. وجاءه العريف المشهور سيللو (الذي أعدمته الثورة فيما بعد باسم الشعب) وبدأ بتعذيبه وأطلق عليه ٤ طلقات، ويقال إنه شنقه. ولقد أظهرت هذه الحكاية الأليمة لرجالنا قيمة التلاحم والتماسك وعدم فائدة كل محاولة فردية للفرار من المصير الواحد، ولقد أجبرنا هذا الأمر على تبديل مكان معسكرنا خشية أن يكون الشاب قد تحدث تحت التعذيب عن منزل فلورنتينو حيث كنا موجودين فيه.

غير أن حادثاً غريباً وقع وأثار مناقشة فلسفية وانضم إلى بعض الأحداث والظواهر مُلخصَهُ أن أوتيميو جيرا صرح بأنه شاهد في حلمه موت سيرجيو آكوانا وبأن العريف روسيللو هو الذي قتله، وكانت المناقشة حول إمكانية أو عدم إمكانية توقع الحوادث عن طريق الأحلام. وكانت مهمتي اليومية أن أحدد الحالة النفسية أو الثقافية أو السياسية للرجال لذلك كان ردي بأن ذلك مستحيل وبأن الأمر لا يعدو أن يكون محض صدفة غريبة باعتبار أننا كنا نتوقع كل شيء بالنسبة لمصير سيرجيو آكونا كما إننا كنا نعرف جميعاً أن روسيللو قد أغرق المنطقة بالنار والدماء... الخ ولهذا تخيل أوتيميوا وتوقع ما حصل فعلاً. أما أونيفر سوسا نشيز فقد لفت انتباهنا إلى أن أوتيميو «كاذب» وأن أحداً ولا شك قد أعلمه بالخبر حيث

أنه ذهب في الليلة السابقة وعاد ومعه /٥٠/ علبة حليب مركز ومصابيح عسكرية.

وكان أحد من يؤمنون بشدة بفكرة الوحي وكشف البصيرة فلاح أمي عمره /٤٥/ سنة وكنت قد تحدثت عنه واسمه خوليو زينون أكوستا. لقد كان أول تلاميذي في السبيرا وكنت قد علمته القراءة والكتابة مستفيداً من التوقفات القصيرة لألقنه الحروف الأولى. وكان يفرق الأحرف عن بعضها بكثير من الصعوبة وبإرادة صلبة دون أن يهتم بالسنوات التي ضاعت من عمره. وبدأ خوليو زينون يتعلم القراءة حتى أصبح مثلاً يُحتذى في هذه السنة بالنسبة لعدد كبير من الفلاحين ولرفاقه في موطنه أثناء القتال ولكل من يعرفون قصته. حيث أن خوليو زينون آكوستا كان يقدم في هذه الفترة أكبر الخدمات. لقد كان رجلاً لا يعرف التعب، وكان يكشف أسرار المنطقة كلها. وكان متأهباً على الدوام لمساعدة أيّ رفيق تعيس أو لمساعدة أحد أبناء المدن الذي لم تعركه الأيام بعد ليصبح قادراً على التحمل والخروج من المأزق لوحده. لقد كان يأتي بالمياه من النبع البعيد ويعرف إشعال النيران بلحظة ويحسن إيجاد الأغصان الصغيرة لإشعال النيران في أيام المطر. وبالخلاصة كان رجلاً يفعل كل شيء في ذلك الوقت.

وفي إحدى الليالي وقبيل اكتشاف خيانة أوتيميو، اشتكى هذا الأخير بأنه لا يملك أغطية وطلب من فيدل أن يعيره غطاءً إذا كان ذلك بمقدوره، وكان ذلك في برد فبراير (شباط) القارس ولقد أجابه فيدل أنهما بهذا الشكل سيبردان معاً وأن من الأفضل لهما أن يلتحفا بالأغطية معاً ويحتميا من البرد. وتم ذلك بالفعل وقضى أوتيميو جيرا كل الليل مستلقياً بجانب فيدل ومعه مسدس عياره ٤ زوّده به كاسيلاس لقتل فيدل، كما كان معه قنبلتان لحماية انسحابه من ذورة الجبل. وبدأ أوتيميو يطرح علينا الأسئلة أنا وأونيفر سوسا نشيز - حيث كنا نلازم فيدل باستمرار - وكانت أسئلته تدور حول جولات الحرس. وكان يقول لنا «إن موضوع الحرس يهمني جداً لأننا لا نتخذ أبداً الاحتياطات الكافية، ولقد شرحنا له بأن حولنا ٣ حراس ساهرين، أما نحن محاربي «غرانما» القدماء ورجال فيدل الموثوق بهم فإننا نقضي الليل بجانبه

لنسهر على حمايته شخصياً، وهكذا قضى أوتيميو الليلة إلى جانب قائد الثورة الذي كانت حياته معلقة بفوهة المسدس. وكان ينتظر اللحظة المناسبة لاغتياله. ولكنه لم يستطع أن يقرر ذلك وكان جانب كبير من مصير الثورةمعلقاً طيلة تلك الليلة بالصراعات النفسية لخائن بين خوفه وشجاعته وبين خجله من ضميره وتطلعاته للقوة والثروة. ولكن من حسن الحظ أن عامل التردد تغلب على عامل التنفيذ فطلع الصباح دون أن يقع أي شيء للرئيس كاسترو..

وكنا قد تركنا منزل فلورنتينو وعسكرنا في مجرى سيل جاف عندما عاد سيروفرياس من زيارته لأهله. ولم تكن المسافة بعيدة نسبياً. وعند عودته أحضر لنا دجاجاً ومؤونة كافية لدرجة مكنتنا في الصباح من تناول وجبة ساخنة من الخضار المطبوخة باللحم مع بعض المأكولات الأخرى كمكافأة لنا على تلك الليلة الطويلة الماطرة التي واجهناها بدون مشمعات واقية من المطر. وكان أوتيميو من خلال ثقتنا به يذهب ويعود متى شاء. وعندما قابلنا عند فلورنتينو قال إنه بعد أن ذهب ليرى أمه المريضة شاهد كل ما جرى في «كاراكاس» ثم تعقب خطانا ليرى تتمة الحوادث وأعلمنا أن أمه شفيت... وقد ظهرت آنذاك على وجهه علائم شجاعة غريبة: لقد كنا في منطقة تدعى مرتفعات أسبينوزا قرب سلسلة من الهضاب وهي «لومون وهضبة الحمار وكاراكاس... الخ) وكانت الطائرات ترمي هذه الهضاب باستمرار بنيران رشاشاتها. واتخذ أوتيميو هيئة الشخص الذي يستطيع توقّع المستقبل فقد قال مثلاً:

«إنني أتوقع أنهم سيرمون بنيران رشاشاتهم هضبه الحمار، وبالفعل جاءت الطائرات وضربت هضبة الحمار، عندها أخذ أوتيميو يقفز من الفرح لثبوت ما تنبأ بوقوعه (نظراً لمعرفته ذلك لكونه جاسوساً).

وفي /٩/ فبراير (شباط) ذهب سيروفرياس ولويس كريسبو كعادتهما للبحث عن مواد تموينية وكان كل شيء هادئاً. وفي العاشرة صباحاً أسر لابرادا وهو فلاح شاب متطوع حديثاً رجلاً كان يتجول في المناطق المجاورة

اكتشفنا أنه أحد أقرباء كريسنسيو ويعمل مستخدماً في مخزن سيليستينو الذي قال عنه إنه يوجد فيه ١٤٠ جندياً من جنود كاسيلاس. وكان في استطاعتنا أن نراهم من مكان تمركزنا وهم مبعثرون على هضبة جرداء بعيدة. وقال الأسير أيضاً إنه تحدث مع أوتيميو وإن هذا الأخير أكد له أن المنطقة ستقصف بالطائرات في اليوم التالي. وهكذا كانت وحدات كاسيلاس تتحرك دون أن نعرف جيداً وبدقة من أية جهة ستأتي، وتشكل لدى فيدل بعض الشكوك حول تصرفات أوتيميو الغريبة التي استطاعت في النهاية أن توقظ انتباهنا. وبدأت مراقبة وحساب تحركاته. وفي الساعة ١١,٣٠ قرر فيدل إخلاء المنطقة فتسلقنا حتى ذورة الهضبة حيث انتظرنا عودة رفيقينا اللذين ذهبا بمهمات تموينية. وبعد فترة من الزمن عاد سيروفرياس ولويس كريسبو، ولم يكونا قد لاحظا شيئاً غير عادي. فكل شيء كان عادياً وكنا نتناقش معهما عندما لمح سيرو ريدوندو شبحاً يتحرك فطلب منا أن نلتزم الصمت وجهز بندقيته للرمي. وفي تلك اللحظة انطلقت رصاصة ثم تبعتها رشقة ثم ملأت الأسماع طلقات الرشاشات التي اكتسحت بهجومها المركز على المعسكر الذي أخليناه منذ مدة بسيطة.

ولقد عرفت بعد ذلك مباشرة أن خوليو زينون أكوستا قد بقي إلى الأبد فوق ذروة هذا الجبل وهكذا سقط في المعركة ذلك الفلاح الأمي الذي أدرك المهمة العظيمة التي سيحملها بعد انتصار الثورة فبدأ يستعد لها بتعلم القراءة والكتابة ولكن مهمته انتهت بسقوطه شهيداً.

وتبعثرت الجماعة متراكضة، بينما بقي الكيس الذي أفخر به والمليء بالأدوية والأغذية والكتب والأغطية في مكانه. وكل ما استطعت إنقاذه كان عبارة عن معطف عسكري لجندي من الأعداء كنت قد غنمته في لابلاتا فانسحبت مسرعاً وأنا أحمله.

والتقيت بطريقي مع مفرزة من جماعتنا مؤلفة من ١٠ رجال. فسرنا على طريق مائل بغية الابتعاد عن مكان الرمي. ولم نكن نعرف بعد مصير باقي الرفاق. وكنا نسمع طلقات نارية منفردة تطاردنا. وكان من السهل تعقبنا

لأن سرعة مسيرنا منعتنا من إخفاء آثارنا. وفي الساعة ٥,١٥ وصلنا إلى مكان منحدر وعر في نهاية الغابة. وبعد قليل من التردد قررنا أن من الأفضل انتظار الليل لأننا إذا اجتزنا الأرض الجرداء نهاراً تعرضنا لأنظار العدو. أما إذا جاء العدو في أعقابنا فإننا في موضع يسمح لنا بالدفاع جيداً. ولكن العدو لم يظهر، فاستطعنا متابعة سيرنا بينما كان سيروفرياس يقودنا بمهارة بسبب معرفته للمنطقة. واقترح أحدهم تقسيم جماعتنا إلى مفرزتين بغية الإسراع بالمسير والإقلال من الإثارة التي كنا نتركها وراءنا ولكنني عارضت الاقتراح وأيدني الميبدا بغية الحفاظ على تماسك وتكتل الجماعة. ووصلنا إلى نقطة نعرفها واسمها (ليمونز). وبعد عدة مناقشات أمر النقيب الميبدا بصفته قائد المفرزة بالمسير حتى لومون متمشياً مع رغبة بعض الرفاق بالابتعاد عن هذه النقطة ولأن فيدل حدد لومون كنقطة للتجمع. بينما احتج البعض بأن لومون معروفة بالنسبة لأوتيميو ومن المتوقع أن يكون العدو قد وصل إليها الآن. ومع أننا كنا جميعاً مقتنعين بأن الجاسوس الذي بيننا لم يكن سوى أوتيميو فإن الميبدا تمسك بقراره بحزم بغية تنفيذ أوامر فيدل المسبقة.

وبعد فراق دام ثلاثة أيام يوم ١٢ فبراير (شباط) وجدنا فيدل في جوار لومون في بقعة اسمها ديريشيا دولا كاريداد. وهنا تأكدنا أن الخائن كان أوتيميو جيرا واستطعنا أن نتصور القصة بكاملها. لقد بدأت بعد لابلاتا عندما أسر كاسيلاس أوتيميو ولكنه كما قلت سابقاً ـ لم يقتله بل عرض عليه مبلغاً من المال ثمناً لرأس فيدل. وعرفنا أنه هو الذي كشف موضعنا في كاراكاس وأنه أيضاً تسبب في الهجوم على هضبة الحمار على اعتبار مرورنا بها كان متوقعاً ولكننا غيرنا طريقنا في آخر لحظة. وأنه هو الذي دبر الهجوم المركز على ملجئنا في سرير النهر ذلك الهجوم الذي نجونا منه ولم نخسر فيه إلا قتيلاً واحداً بسبب أوامر الانسحاب التي أعطاها فيدل في الوقت الملائم. كما تأكد لنا أيضاً موت خوليو زينون أكوستا وبأن أحد الجنود على الأقل قد قتل كما جرح بعضهم. وإنني لأعترف بأن بندقيتي لم تتسبب في قتل أو جرح أي واحد من هؤلاء الجنود الأعداء لأنني لم أقم في هذه الفترة إلا

بانسحاب «استراتيجي» وبكل سرعة.. وهكذا اجتمعت مفرزتنا المؤلفة من / ١٢/ رجلاً استثناء لابارادا الذي ضاع في اليوم السابق. والتقينا براؤول ميخيرياس وسيرو ريدوندو ومانويل فاخرد ووايشي قارباً «والغاليسي» موران وفيدل. وأصبح مجموعنا /١٨/ رجلاً هم الجيش الثوري المتحد من جديد في ١٢ فبراير سنة ١٩٥٧.. وبعد أن تبعثر بعض الرفاق القدامى وانسحب بعض الجدد من الثورة نهائياً وبعد أن خسرنا أحد محاربي «غرانما» القدماء وهو أرماندو رود ريغس الذي هرب وهو يحمل المسدس الرشاش توميسون. وكان وجه هذا الرفيق في الأيام الأخيرة يكتسي بسحابة من القلق والاضطراب عندما يترامى إلى سمعه صوت طلقة بعيدة أو قريبة حتى إننا أطلقنا عليه فيما بعد لقب «سحنة التطويق» ثم أصبحنا نتوجس نهاية مفجعة عندما يظهر فيها على وجه أحد الرفاق هذا التعبير المذعور لحيوان محصور مهدد بالخطر. وكانت «سحنة التطويق» لا تتلاءم أبداً مع حياة الثوار. ودخل هذا التعبير في مصطلحاتنا التي نستخدمها. ومن الجدير بالذكر أننا وجدنا مسدس أرماندو الرشاش عند أحد الفلاحين بعد مدة طويلة وفي مكان بعيد جداً. لقد هرب ولم تخنه ساقاه.

نهاية كل خائن.

* ما أن تجمع الجيش الصغير قررنا ترك منطقة لومون والاتجاه نحو مناطق جديدة. وفي خلال هذا الوقت لم نكن نتوقف عن الاتصال بالفلاحين في الأراضي المجاورة لإيجاد الركائز اللازمة لحياتنا. وبدأنا نبتعد رويداً رويداً عن سبيرا مايسترا لنسير نحو السهل باتجاه نقاط نجتمع فيها مع مناضلي تنظيمات المدن.

واجتزنا قرية «لامونتيريا» ثم تمركزنا في دغل قرب غدير ماء على أراضي أبيفانيو دياز الذي كان أولاده يناضلون مع الثورة. وكنا نتقدم بغية عمل اتصالات أمتن مع «الحركة» لأن الترحال وسط جو السرية جعل من المستحيل التعاون بين هذين الفرعين (لقد كان هذان الفرعان يشكلان في الحقيقة جماعتين واضحتين، واختلافات وجهات النظر الواضحة التي كادت

أن تعرض وحدة الحركة للخطر لم تكن قد تفجرت بعد ولكن كان من الواضح أن الأفكار متضاربة).

وفي هذا الدغل تم اللقاء مع أكثر الشخصيات أهمية في الحركة العاملة داخل المدن: وأذكر من هذه الشخصيات ثلاث نساء مشهورات اليوم يعرفهن كل الشعب الكوبي وهن: فيلما أيسبن رئيسة الاتحاد النسائي وزوجة راؤول، وهايدي سانتا ماريا[1] رئيسة مؤسسة أمريكا وزوجة أرماندو هارت، وسيليا سانشيز رفيقة كل لحظات النضال التي انضمت بعد ذلك نهائياً للثورة فلم تتركنا أبداً وكذلك التقينا مع فوستينو بيريز الصديق القديم ورفيق «غرانما» الذي ذهب لتنفيذ بعض المهمات في المدن وعاد ليخبرنا بما فعل ثم رجع للالتحاق بمهمته داخل المناطق السكنية (ثم سقط أسيراً بعد مدة).

ولقد تعرفنا بأرماندو هارت. وكانت هذه أول وآخر مرة أحظى فيها بملاقاة فرانك بايس قائد سانتياغو.

وكان فرانك بايس أحد أولئك الرجال الذين تشعر بوجودهم منذ أول كلمة، وكان وجهه يشبه صورته المنتشرة حالياً. أما نظراته فكانت عميقة بشكل غريب. ومن الصعب التحدث الآن عن رفيق توفي ولم نره إلا مرة واحدة. وتعتبر قصته منذ الآن ملكاً للشعب وكل ما استطيع أن أقوله في هذه اللحظة إن من كان ينظر إلى عينيه يشعر بأن في داخل هذا الرجل قضية يعيش ويضحى من أجلها. لقد كان إنساناً متفوقاً، ويسميه الشعب اليوم «فرانك بايس الذي لا ينسى» وإنني لأجد هذه التسمية صحيحة لأنني ما زلت أذكره رغم رؤيته مرة واحدة. وينحدر فرانك من أسرة من المناضلين الذين استشهدوا في ريعان الشباب ولو عاشوا لشاركوا اليوم في البناء الجماعي للثورة الاشتراكية الكوبية. لقد كان هؤلاء الضحايا الثمن الذي دفعه الشعب ليأخذ حريته.

---

(١) كانت هايدي سانتا ماريا وميليا هيرناندز المرأتين الوحيدتين بين المشتركين في مونكادا. وهايدي هي أخت أبيل سانتا ماريا نائب فيدل في ذلك الوقت الذي أسره جيش باتيستا وعذبه حتى الموت وأخت الدوسانتا ماريا الذي التحق بالسبيرا عام ١٩٥٢ .

وأعطانا بايس دون أن يتكلم درساً في الانضباط عندما ما قام بتنظيف بندقيته بدقة وعدّ طلقاته ثم رتبها باعتناء حتى لا تضيع منها طلقة واحدة. ومنذ هذا اليوم قررت أن أعتني بسلاحي بشكل أفضل ونفذت قراري ولكنني لا أدعي أنني كنت دائماً مثالاً في الدقة والعناية.

ثم شاهد هذا الدغل حوادث من نوع جديد: فلأول مرة جاء صحفي لزيارتنا، وكان أجنبياً اسمه ماتهويس[1]. ولقد جاء ليأخذ منا حديثاً صحفياً ولم يكن معه سوى آلة تصوير صغيرة التقط بها الصور التي نالت شهرة وانتشرت بشكل واسع فيما بعد وهاجمتها ومنعت نشرها أفكار أحد وزراء باتيستا السخيفة، وكان المترجم بهذه المناسبة جافيير بازوس الذي انضم فيما بعد إلى الثورة ومكث في غمارها فترة من الزمن.

وحسب ما قال لي فيدل ـ لأنني لم أحضر الحديث الصحفي ـ كان ماتهويس يطرح أسئلة واقعية دون أن تكون عويصة. وظهر كصديق للثورة. وإنني لأذكر تصريحات فيدل مثلاً والطريقة التي أجاب بها بالإيجاب على سؤال: هل هو ضد الأمبريالية. وكيف انتقد تزويد باتيستا بالأسلحة لافتاً نظر ماتهويس أن هذه الأسلحة تستخدم لقمع حركات الشعب لا للدفاع عن البلاد.

وكانت زيارة ماتهويس قصيرة جداً. ولما تركنا وجدنا أنفسنا لوحدنا من جديد. وكنا نستعد للرحيل. وفي هذه الأثناء جاءنا من ينصحنا بضرورة مضاعفة الحذر والانتباه. لأن أوتيميو موجود في المنطقة. وتلقى الميبدا أمراً بالقبض عليه بسرعة فشكل دورية من دياز وسيروفرياس وكاميلو سياتفوغوس وإيفيجينوا ميخيرياس. وكلف سيروفرياس شخصياً بعملية القبض عليه. ولم يبد أوتيميو أية مقاومة أثناء عملية القبض عليه وإحضاره إلى المعسكر. ولما

---

(١) صحفي من أمريكا الشمالية مسنّ تقريباً، وكان معجباً حقاً بالثوار، وأحسّ بالصداقة والمحبة نحو فيدل كاسترو، ونشر بعد مدة مجموعة مقالات حول فيدل في (سبيرا مايسترا).

فتشناه وجدنا معه مسدساً عيار ٤٥ و٣ قنابل وإذن مرور من كاسيلاس. فلما وجد نفسه مقبوضاً عليه ومعه هذه الأدلة الدامغة عرف المصير الذي ينتظره، ركع على ركبته أمام فيدل وطلب أن يكتفي بقتله، وقال إنه يعرف أنه يستحق الموت. وفي هذه اللحظة بدا وكأنه شاخ. وظهر فوداه الأبيضان الأمر الذي لم يكن قد لاحظه أحد من قبل. وكان الموقف متوتراً إلى درجة كبيرة. ووجه إليه فيدل بقسوة تهمة الخيانة وكان كل ما يطلبه أوتيميو آنذاك هو الموت للتكفير عن خطيئته. وكلمة صديقه سيرو فرياس فترة من الزمن بقيت ذكراها محفورة في ذهن كل من حضر الموقف. وذكره بكل ما صنع من أجله والخدمات الصغيرة التي قدمها هو وأخوه لأسرة أوتيميو. وكيف كان جزاء ذلك خيانة من أوتيميو (بأن وشى بشقيق فرياس لدى الحراس فقتلوه بعد عدة أيام من اعتقاله. ثم حاول إبادة الجماعة كلها) لقد كان اتهاماً طويلاً ومؤثراً. وكان أوتيميو يصغي إلى كل هذا دون أن يقول شيئاً ورأسه مطرق إلى الأرض. وسئل إن كان يرغب بشيء فأجاب بأنه يرغب أن تقوم الثورة (أي أن نقوم جميعاً) بالاهتمام بأطفاله الذين لا ذنب لهم.

ولقد قامت الثورة بهذا الواجب. ويذكر اسم أوتيميو اليوم مقروناً بهذه الصفات والأحداث ولكنه في الواقع قد اختفى من الأذهان منذ زمن طويل. وحتى أولاده فإنهم يحملون إسماً آخر ويذهبون إلى المدرسة ويعاملون مثل جميع أبناء الشعب. ولكنهم سيعرفون يوماً ما بأن أباهم (أعدم باسم الثورة لخيانته). ومن حقهم أن يعرفوا أيضاً أن هذا الفلاح الذي أغرته الرشوة فسقط في براثن الخيانة بدافع حب الشهرة والمال لم يعترف بخطيئته فحسب بل إنه لم يطلب العفو مطلقاً لأنه كان يعلم بأنه لا يستحق هذا العفو، ومع ذلك فقد احتفظ لأولاده بآخر لحظات تفكيره وطلب من قائدنا معاملتهم معاملة كريمة والاعتناء بهم.

في هذا الوقت هبت عاصفة قاسية وغرقنا وسط سيل الماء المنهمر بغزارة من سماء مرعدة يمزق ظلامها البرق بين آونه وأخرى. وعندما سقطت صاعقة مصحوبة برعد شديد لفظ أوتيميو جبرا أنفاسه دون أن يسمع حتى أقرب الرفاق إليه صوت الطلقة النارية التي أزهقت روحه.

وفي اليوم التالي عندما دفناه في نفس المكان الذي أعدم فيه حصل نقاش صغير. فقد أراد مانويل فاخاردو أن يضع صليباً فوق لحده ولكنني عارضت ذلك لأن ترك هذا الدليل على عملية الإعدام أمر خطير جداً بالنسبة لأصحاب هذه الأرض فحفر عندئذ صليباً صغيراً على جذع شجرة قريبة ليدل على مكان وجود رفات الخائن.

ثم تركنا «الغاليسي» موران في تلك الفترة. لقد كان يشعر أن فكرتنا عنه لم تكن جيدة جداً. وكنا نعتبره شبه هارب (وكان قد اختفى يومين أو ثلاثة أيام ثم ادعى أن اختفاءه راجع إلى أنه كان يلاحق أوتيميو فضاع وسط الغابات).

وفي اللحظة التي كنا نودّ فيها الرحيل انطلقت رصاصة وجدنا بعدها موران جريحاً وقد اخترقت الرصاصة ساقه. ودخل الرفاق الذين شاهدوا الحادث في مناقشة حامية حول هذا الموضوع. فبينما رأى البعض أن الإصابة كانت قضاء وقدراً عارض البعض الآخر ذلك واعتبر أن موران أصاب نفسه عمداً ليتخلف عن المسير معنا. ولكن بقية قصة موران وخيانته فيما بعد ومقتله بيد ثوار غوانتا نامو تدل على أنه جرح نفسه في ذلك اليوم عمداً.

وعندما رحلنا وعدنا فرانك بايس بإرسال جماعة من الرجال في مطلع شهر مارس (آذار) وكانت نقطة الالتقاء منزل أبيفانيو دياز بالقرب من خيبارو.

متابعة مذكرات «تشي» الشخصية عن أيام الثورة:

* تعتبر الأيام التي تلت رحيلنا عن بيت أبيفانيو دياز بالنسبة لي شخصياً أكثر المراحل قسوة في هذه الحرب. وإنني أحاول في هذه اللحظة أن أعطي فكرة عن حالة المرحلة الأولى لصراعنا الثوري، بالنسبة لمجموع المقاتلين، مستعيداً هذه المرحلة من ذكرياتي معتمداً على مشاركتي الشخصية في أحداثها. ومع هذا فأنا أذكرها بسبب ارتباطها بالأحداث التالية التي لم يكن من الممكن تجاهلها دون تحطيم وحدة سرد الموضوع.

عند خروجنا من منزل أبيفانيو دياز كانت جماعتنا مؤلفة من ٢٠ رجلاً منهم ١٧ رفيقاً من جيشنا السابق و/٣/ أفراد جدد (جيل وستولونجو وراؤول دياز). وكان هؤلاء الرفاق الثلاثة قد نزلوا معنا من «غرانما» ثم اختبؤوا بعض الوقت في ضواحي مانزانيللو وما أن سمعوا بأخبارنا حتى قرروا الالتحاق بنا. وكانت قصتهم مشابهة تقريباً لقصة كل واحد منا. لقد استطاعوا النجاة من عمليات القمع الوحشية والالتجاء إلى بيت أحد الفلاحين ثم إلى بيت فلاح آخر. وما أن وصلوا إلى مانزانيللو حتى اختفوا. ثم أصبح مصيرهم بعد الالتحاق بنا مرتبطاً بمصير الجماعة كلها. وكان من الصعب زيادة تعدادنا في هذه الحقبة. فقد كان بعض الجدد يحضرون ولكن بالمقابل كان هناك آخرون يتركوننا بتأثير ظروف الصراع الجسماني القاسية بالإضافة إلى الظروف المعنوية التي كانت أشد قسوة. وكنا نشعر وكأننا نعيش وسط تمزق وإزعاج دائمين.

وفي هذه الفترة كنا نمشي على غير هدى وببطء مختبئين وسط الأدغال الصغيرة في منطقة المراعي التي حلت محل الأشجار البرية فلم يعد أمامنا من الغابات إلا مساحات صغيرة. وفي إحدى الليالي عرفنا من راديو فيدل الصغير إن السلطات أسرت أحد رفاق «غرانما» الذي ذهب مع كريسنسيو بيريز. وكنا نعلم من اعترافات أوتيميو بأنه قد أسر، ولكن الخبر لم يكن مؤكداً رسمياً. وقد عرفنا من هذا النبأ أنه لا يزال حياً رغم علمنا بأن الخروج من بين أيدي محققي باتيستا بسلام أمر نادر الوقوع.

وكنا نسمع بين آونة وأخرى صوت رشات مسدس رشاش كان الجنود يطلقونها بغزارة وعن بعد باتجاه الغابات متحاشين المغامرة حسب عادتهم.

وفي يوم ٢٢ فبراير (شباط) سجلت في سجل الميدان ظهور أول أعراض أزمة الربو التي كان يبدو أنها ستكون قوية لأنني وجدت نفسي لا أملك السائل المضاد للربو وكان علي أن أنتظر عدة أيام حتى يحين موعد الاتصال المحدد ٥ مارس (آذار).

وكنا نتقدم ببطء وبدون هدف ونقتل الوقت بانتظار ٥ مارس (آذار)

الموعد الذي سيرسل لنا فرانك بايس فيه مجموعة من الرجال المسلحين. وكنا قد اتفقنا على أن تصعد كافة الأسلحة الموجودة في سنتيا غوالي سبيرا مايسترا لتقوية جبهتنا.

وفاجأنا الفجر في إحدى المرات ونحن على ضفاف غدير في منطقة محرومة تقريباً من المزروعات فقضينا في هذه البقعة يوماً حرجاً في وادي لاس مرسيدس وفي المساء وصلنا إلى كوخ العجوز أميليانو. وكان هو أيضاً من أولئك الفلاحين الذين يسبب لهم قدومنا خوفاً شديداً ولكنهم يضحون بحياتهم لأجلنا بكل شجاعة ويساعدون بعملهم على تطوير وانتشار ثورتنا. وكانت هذه الفترة موسم أمطار في السبيرا وكنا نبتل كل ليلة وكانت السيول تغمرنا. لذا كنا نحاول الوصول إلى بيوت الفلاحين رغم الخطر، لأن المنطقة كانت تغص بالجنود. وجاءتني نوبة قوية من الربو أعجزتني عن التقدم بصورة طبيعية ولقد نمنا مرة في مزرعة بن قرب «بوهيو» الأمر الذي أعاد لنا بعض النشاط. وفي هذا اليوم الذي أتحدث عنه يوم ٢٧ أو ٢٨ فبراير (شباط) رفعت المراقبة الإعلامية ودأبت الإذاعة على تقديم أخبار ما وقع في الأشهر الأخيرة من عمليات الإرهاب، وعن المقابلة الصحفية التي تمت بين ماتهويس وكاسترو.. ووصف وزير الدفاع هذه المقابلة بأنها ليست سوى أكذوبة وأمر بمنع صورها من النشر في وسائل الإعلام.

وكان هيرميس أحد أبناء العجوز أميليانو يساعدنا في هذه الفترة في عمليات التموين ويبين لنا بصورة مجملة الطريق الواجب اتباعه. ولكن عندما لم يحضر هيرميس في الصباح كعادته أعطى فيدل الأمر بإخلاء المعسكر فوراً واحتلال نقطة تمكننا من مراقبة مسالك المنطقة لأننا لم نكن نعرف ماذا سيقع. وفي الساعة الرابعة بعد الظهر شاهد لويس كريسبو واونيفر سوسانشيز، أثناء مراقبتهما الطريق القادم من لاس فيجاس «قطعة عسكرية كبيرة» تستعد للتمركز في المنطقة وكان من الواجب المضي بأقصى سرعة للوصول إلى سفح الهضبة والانتقال إلى الطرف الآخر قبل أن يغلق الجنود علينا سبيل النجاة. ولم يكن الأمر صعباً ما دمنا قد شاهدنا العدو في الوقت الملائم. ورغم أن رمايات الهاون والرشاشات كانت تطلق باتجاهنا لتؤكد لنا

علم الجيش جيداً بوجودنا في المنطقة فقد وصلنا جميعاً إلى القمة دونما صعوبة ثم اجتزناها. ولكنني لم استطع الوصول إلى القمة إلا بصعوبة بالغة بعد أن أصابتني نوبة قوية من الربو جعلتني عاجزاً عن التقدم خطوة واحدة لولا جهود الفلاح «كريسبو» الكبيرة. إذ إنني عندما عجزت عن المشي وطلبت من الرفاق أن يتركوني ويتابعوا سيرهم قال لي «الفلاح» بلغة خاصة متداولة في (جماعتنا): «تقدم أيها الأرجنتيني اللعين وإلا أجبرتك على التقدم بضربات عقب البندقية. ولم يكن يكتفي بتشجيعي بالكلام بل كان يحملني بالإضافة إلى كيس أمتعتي في النقاط الوعرة التي يصعب تسلقها رغم أنه كان يحمل أعتدته الشخصية. وفي هذا الوقت كان المطر ينهمر فوقنا كأفواه القرب.

وأخيراً وصلنا إلى (بوهيو) صغير في مكان يدعى «بورجا توار» وهنا ادعى فيدل أنه غوانزالز من جيش باتيستا وأنه يبحث عن العصاة. فقدم لنا صاحب المنزل بيته واهتم بنا بأدب وبرود. وكان عنده صديقه الساكن في «البوهيو» المجاور وكان هذا الصديق ثرثاراً لا يتعب من الحديث. ولكن سوء حالتي الصحية منعني من تذوق الحديث الجذاب الذي دار بين فيدل في دور الرائد غوانزالز والفلاح الذي كان يقدم له النصائح ويفتش عن الأسباب التي تجعل رجال كاسترو يعيشون في الجبال ويطلقون النار...

وكان يجب اتخاذ قرار بشأني لأنني لم أكن قادراً على متابعة التقدم. وعندما انصرف الجار كشف فيدل لصاحب البيت عن شخصيته الحقيقية فعانقه الرجل الذي كان من حزب (orthodoxe) ومن اتباع شيباس وسأله عما يستطيع عمله من أجلنا؟ وكان من أهم الأمور إرسال فلاح إلى مانزانيللو والقيام باتصال وشراء بعض الأدوية على الأقل، وكان يجب أن يتركني على مقربة من المنزل ولكن دون علم أحد حتى زوجته.

وكان آخر رفيق التحق بجماعتنا رجل معنوياته مهزوزة ولكنه قوي البنية فاختير للبقاء معي وأعطاني فيدل بكل كرم بندقية جونسون آلية وهي درة من درر ثورتنا. وقال إنه يعطيني هذا السلاح الجيد للدفاع عن نفسي. ثم

تظاهرنا بالمسير جميعاً في اتجاه معين. وبعد عدة خطوات دخلت مع هذا الرفيق الذي كنا نسميه «المعلم» داخل الغابة في نقطة محددة مسبقاً بغية انتظار تسلسل الحوادث. كانت أخبار هذا اليوم كما يلي: ماتهويس تكلم هاتفياً وقال إن الصور ستنشر رغم كل شيء. وصرح دياز تامايو أن من المستحيل أن يجتاز أي شخص خطوط القوات التي تحاصر منطقة الثوار كما أن أرماندو هارت قد ألقي القبض عليه وأعدم بتهمة أنه نائب قائد «الحركة» وتم هذا يوم ٢٨ فبراير (شباط).

ونفذ «الفلاح» مهمته وجلب لي كمية كافية من الأدرينالين. واعتباراً من هذا اليوم وخلال أصعب عشرة أيام في الصراع بالسبيرا كنت أتقدم مستنداً على الأشجار من شجرة إلى شجرة وأتعكز على أخمص بندقيتي. وكان «المعلم» الجبان الذي يرافقني يرتجف كلما سمع صوت إطلاق نار من بعيد. كما كان يصاب بثورة عصبية كلما أجبرني الربو على السعال في نقاط خطرة. وقضينا عشرة أيام طويلة للوصول إلى منزل أبيفانيو مع أن المسافة لم تكن بحاجة إلا إلى مسير يوم واحد.. وتعذر لقائي مع الجماعة يوم ٥ مارس (آذار) بسبب الطوق الذي يضربه العدو حول المنطقة، بالإضافة إلى ذلك فإن حالتي الصحية منعتنا من التقدم بسرعة والوصول قبل ١١ مارس (آذار) إلى منزل مضيفنا أبيفانيو دياز. وكانت جماعة فيدل قد انقسمت إلى مفرزتين لأنها ظنّت خطأً أنها عرضة لهجوم الجنود في منطقة التوس دوميرينو حيث قاد فيدل مفرزة مؤلفة من ١٢ شخصاً بينما قاد سيرو فرياس مفرزة تعدادها ٦ أشخاص تمكن بهم من النجاة من كمين نصبه لهم العدو فخرجوا منه أحياء وأعادوا التجمع بسهولة. بيد أن بايو الذي عاد بدون سلاحه مرّ بمنزل أبيفانيو دياز في طريقه نحو مانزانيللو ونقل هذه الأخبار كلها. كما علمنا أن القوات التي كان فرانك ياريس يود إرسالها تنتظر جاهزة ولكن فرانك كان سجيناً في سانتياغو. ولقد تحدثنا مع رئيس هذه القوات واسمه النقيب جورج موتوس حيث قال إنه لم يستطع الوصول يوم ٥ مارس (آذار) لأن نبأ تحركه تسرب إلى السلطات فشددت الحراسة على جميع المسالك. فاتخذنا كافة التدابير لتصل هذه القوات التي تضم ٥٠ شخصاً بأسرع ما يمكن.

انتظار النجدة ومحاولة اغتيال باتيستا:

* في ١٣ مارس (آذار) كنا ننتظر وصول نجدة من القوات الثورية عندما أذيع في الراديو نبأ نجاة باتيستا من محاولة جرت لاغتياله كما أذيعت أسماء بعض القتلى الذين سقطوا أثناء المحاولة وأولهم خوزيه انطونيو أيشيفاريا زعيم الطلاب وآخرون مثل مينيلا أومورا كذلك بعض الذين سقطوا أثناء إطلاق النار دون أن يكون لهم علاقة بالهجوم. ولقد علمنا عن طريق الإذاعة أيضاً في اليوم التالي بمقتل المناضل بيلايوكيورفو نافارو، الذي لم يقبل في أية مرحلة من مراحل النضال التساهل والتعاون مع باتيستا. كما علمنا أن جثته ألقيت في مكان مشهور في كونتري كلوب يسمى «لا جوتيو». ومن الجدير بالملاحظة أن قتلة بيلايوكويرفو نافارو وأبناء القتيل نفسه قد اشتركوا معاً في الغزو الفاشل في شاطئ جيرون بغية تحرير كوبا من خطر الشيوعية [١].

ولنذكر بعض التفاصيل عن الهجوم ضد باتيستا، ذلك الهجوم الذي لا يزال شعب كوبا يذكر تفاصيله. إنني لم أقابل يوماً إيشيفاريا زعيم الطلاب. ولكنني كنت أعرف أصحابه في المكسيك في الوقت الذي كانت فيه حركة ٢٦ يوليو قد وصلت إلى اتفاق للعمل المشترك مع اتحاد الطلاب. ولقد

---

(١) منذ عام ١٩٥٩ بدأت الولايات المتحدة وبعض دول أمريكا الاتينية تفتح أبوابها للمهاجرين الكوبيين وتنظمهم وتعدهم لغزو كوبا. وفي ١٥ إبريل (نيسان) ١٩٦١ قصفت طائرات تحمل الشارات الكوبية قادمة من مطارات أمريكية مدارج المطارات الرئيسية في كوبا. وفي اليوم التالي نزل ١٥٠٠ مهاجر قادمون من فلوريدا وغواتيمالا على شاطئ جيرون في منطقة تدعى خليج الخنازير (لوس كوشينوس) على مقربة من شبه جزيرة زاياتا. وكانت مهمتهم عمل رقبة جسر وتشكيل حكومة مؤقتة تستطيع الدول الامبريالية دعمها بالطائرات والدبابات لتحرير البلاد كلها. ولكن جيش الثورة والميليشيا الوطنية اشتبكا مع النازلين بمعارك شديدة. وفي يوم ٢٠ إبريل (نيسان) دمرت قوات الغزو وأسر مئات الغزاة مع معداتهم العسكرية. (المصدر: فيدل كاسترو - ثورة كوبا).

عرفت منهم فور شومون سفير كوبا الحالي في الاتحاد السوفيتي كما عرفت فروكتويوز ورود ريغيس وجو وويستبروك ولقد اشتركوا جميعاً في الهجوم على مبنى الرئاسة، وإننا نعرف أنه لم يبق أمامهم للوصول إلى الدور الثالث حيث كان يوجد الدكتاتور إلا الشيء القليل. ولكن ما أن فشل الهجوم حتى قام الجنود بقتل كل الذين لم يتمكنوا من الخروج في الوقت الملائم من مبنى الرئاسة الذي تحول إلى مصيدة حقيقية.

وكان قدوم النجدة منتظراً يوم ١٥ مارس (آذار) وانتظرنا ساعات. طوالاً في المكان المحدد للقاء في سرير نهر صغير مرتفع الضفتين - وهذا مكان مثالي للعمليات السرية - ولكن أحداً لم يحضر. ثم بلغنا أن بعض الصعوبات ظهرت فجأة. وفي يوم ١٦ وصلت مع الفجر سيارات نقل تحمل الرجال المرهقين من التعب فما إن ساروا بشق الأنفس عدة خطوات للوصول إلى دغل كثيف حتى قرروا المكوث فيه للراحة بانتظار ضوء النهار.

وكانت سيارات النقل لصاحب مزرعة أرز في المنطقة فخاف من النتائج المترتبة على تصرفه هذا فطلب اللجوء إلى كوستاريكا ولكنه ما لبث أن عاد إلى كوبا بمظهر بطولي في الطائرة المشهورة التي جلبت الأسلحة من تلك البلاد. وكان اسمه هوبرت ماتوس.

وكانت النجدة مشكلة من حوالي ٥٠ رجلاً منهم ٣٠ مسلحاً فقط يحملون معهم أسلحة خفيفة ورشاشين خفيفين. ويبدو أن الأشهر التي عشناها في السبيرا جعلت منا محاربين قدماء لأننا كنا نشاهد في القوات الجديدة كل العيوب التي كنا نحملها عند نزولنا من (غرانما) وأهمها فقدان الانضباط وعدم تحمل المتاعب الكبيرة وعدم الثقة بالنفس. وباختصار عدم الأهلية لمثل هذا النوع من الحياة. وكانت القوات الجديدة بقيادة النقيب جورج سوتوس موزعة إلى ٥ جماعات تضم كل جماعة ١٠ رجال على رأسهم ملازم. وكانت هذه الرتب ممنوحة من قبل «منظمة السهل» ولم نكن صادقنا عليها بعد. وقد تولى قيادة الجماعات كل من: الرفيق دومينجز الذي مات بعد فترة قليلة في بيتوديل آجوا، والرفيق رينيه راموس لاتور الذي مات

ببطولة أثناء القتال في آخر ساعات الهجوم الأخير على الدكتاتور، وهو الذي نظم الميليشيا في السهل، وسوتو رفيق «غرانما» سابقاً والذي التحق بنا أخيراً بعد فيض من المحن وقتل أيضاً في المعركة ومنح رتبة والد شرف من قبل راؤول كاسترو في الجبهة الشرقية الثانية، وأخيراً الرفيق بينا وهو طالب من سانتياغو. وقد غدا رائداً ثم مات بعد النصر النهائي للثورة. والملازم هيرمو وهو الوحيد من قادة المجموعات الذي بقي حياً بعد سنتين من الحرب المريرة.

وكانت أكبر المشكلات مشكلة عدم المقدرة على المشي، وكان النقيب جورج سوتوس مثلاً سيئاً لرجاله في المسير حيث كان يسير دائماً في المؤخرة وبشكل سيِّئ جداً. ولقد تلقيت الأمر بالإشراف على هذه القوات وقيادتها ولكنني عندما تحدثت في هذا الصدد مع سوتوس اعتذر بأنه تلقى أمراً بعدم تسليم القيادة في أي حال من الأحوال إلا لفيدل وبأنه لن يتخلى عن وظيفته.. الخ وفي هذا الوقت لم أكن قد تخلصت بعد من عقدتي كأجنبي فلم أشأ أن أدفع الأمور إلى أقصى مداها رغم ضرورة ذلك لأن حالة القوات الجديدة المعنوية كانت تنحدر باستمرار. وبعد سلسلة من عمليات مسير قصيرة بسبب نقص الاستعدادات وصلنا إلى مكان اسمه «لاديريشا» حيث كان علينا أن ننتظر فيدل ولقد التقينا في «لاديريشا» بالمفرزة الصغيرة من الرفاق الذين اضطروا للانفصال عن مجموعة فيدل قبل مدة قصيرة (مانويل فاخاردو وغيير موغارسيا وجوفنتنو وبيزان والأخوة سوتومايور الثلاثة وسيرو فرياس).

وظهر التباين بين جماعة الرفاق القدامى وجماعة الجدد واضحاً جلياً إذ كان القدامى انضباطيين متلاحمين متمرسين بالحرب، أما الجدد فكانوا ضحية كل الأمراض التي تصيب المقاتل في بداية المعركة. فلم يكونوا قد اعتادوا بعد على تناول وجبة واحدة فقط في اليوم. وكانوا يحجمون عن تناول الطعام إن لم يكن لذيذاً. ويحملون في أكياسهم أشياء قليلة الفائدة. فإذا ما أثقلت الأحمال اكتفاهم فضلوا القاء علبة من الحليب المركز بدلاً من إلقاء فوطة.. وكنا نجمع وراءهم العلب والمواد التموينية التي يتركونها في الطريق

لنستفيد منها. . وما إن تمركزنا في «لاديريشا» حتى توتر الموقف بسبب الاحتكاكات المستمرة بين جورج سوتوس الفظ المتسلط وبين الجماعة كلها. وعند الخروج من مخبئنا كلف رينيه راموس لاتور بقيادة جماعة حاملي المسدسات الرشاشة احتياطاً لمنع وقوع أي حادث مؤسف ومحتمل من هذه الجهة. .

وبعد مدة أرسل جورج سوتوس بمهمة خاصة إلى ميامي. وهناك خان الثورة فالتقى مع فيليب بازوس، الذي كان يتعطش للسلطة لدرجة أنسته عهوده ووعوده ورشح نفسه للرئاسة المؤقتة في (طبخة) لعبت الحكومة فيها دوراً كبيراً. ثم حاول النقيب سوتوس بعد ذلك استعادة اعتباره فمنحه راؤول كاسترو الفرصة التي لم تبخل بها الثورة على أحد ولكنه استغل هذه الفرصة ليعمل ضد الحكومة الثورية فحكم عليه بالسجن ٢٠ عاماً إلا أنه استطاع الفرار من سجنه بالتآمر مع أحد سجانيه الذي هرب معه إلى الملجأ المثالي لكل (ديدان الأرض)[١] وهو الولايات المتحدة الأمريكية.

وكنا في فترة وجوده بيننا نحاول مساعدته بتخفيف التناقضات بينه وبين رفاقه الجدد مع محاولة إشعاره بضرورة التقيد بالانضباط. وفي ٢٤ مارس (آذار) حضر فيدل ليلاً بعد أن ذهب غيير موغارسيا لمرافقته من منطقة كاراكاس. كما ذهبت أنا لأحضر راميرو فالديس الذي شفي نوعاً ما من جروح ساقه. وكان وصول فيدل مهيباً يحيط به ١٢ رفيقاً من القدماء ظلوا متماسكين حوله. وفي الاجتماع الذي عقده فيدل وحضره راؤول والمييدا وسوتوس وغارسيا وسيانفوغوس وفاخارد وأنا لبحث التصرف الواجب اتباعه حيال الصعوبات والمشاكل التي تصادفنا نتيجة التناقض والاختلاف بين الثوار القدامى الملتحمين الذين يحملون أكياسهم المرقعة المربوطة كيفما اتفق الأمر وبين الجدد في ألبستهم النظيفة وأكياسهم الجميلة المتشابهة ووجوههم

(١) Gusano دودة الأرض. ويطلق هذا الاسم على أعداء الثورة في كوبا منذ محاولة غزو شاطئ Giron في عام ١٩٦١ التي قام بها أعداء الثورة لغزو كوبا فسحقتهم قوات الثورة في ٧٢ ساعة. (راجع الملاحظة المتعلقة بهذا الغزو في الصفحة ٥٥).

الحليقة. . ولقد انتقدني فيدل لأنني لم استخدم السلطة التي أحملها كما انتقدني لأنني تركت هذه السلطة بين يدي سوتوس القادم حديثاً. ولقد شرح لسوتوس أنه لا يحس نحوه بأقل حقد ولكنه لا يقبل تصرفه هذا في مثل هذه الظروف. وأعيد تشكيل الجماعات والفصائل فقسمت القوات إلى ٣ فصائلٍ يقودها راؤول كاسترو وخوان الميبدا وجورج سوتوس وكان على كاميلو سياتفوغوس أن يقود المقدمة بينما يقود أيفيجينيوا ميخيرباس المؤخرة وعينت طبيباً في الأركان التي كان يقود جماعتها أونيفرسو سانشيز.

ولقد كبرت قوتنا وازدادت ضخامة وأبهة بفضل رشاشين خفيفين محدودي الفعالية بسبب قدمهما وسوء العناية بهما. . ومنذ ذلك الوقت أصبحنا نشكل قوة كبيرة. . وكنا نتناقش حول ما علينا عمله الآن. وكنت أحبذ مهاجمة أول مخفر يصادفنا لتزداد صلابة معنويات الرفاق الجدد وسط نيران المعركة. ولكن فيدل وجميع الأعضاء المجتمعين وجدوا أن من الضروري إجبارهم على المسير فترة أخرى ليعتادوا شظف العيش في الغابة والجبل ويتلاءموا مع المشي على سفوح الهضاب الوعرة. وهكذا تم اتخاذ القرار بالمسير نحو الشرق والتقدم ما أمكن مع البحث عن المناسبات الملائمة لمفاجأة بعض مفارز الحرس، وذلك بعد أن يتبع الرفاق الجدد مرحلة تدريبية أولية خاصة بقتال العصابات. واستعدت قواتنا وسط موجة الحماس وانطلقت لتنفيذ المهمة التي كلفت بها. وكان اشتباكها الأول في القتال الحقيقي في أوفيرو.

اكتساب الخبرة والتنظيم والشجاعة:

* استغرقت عملية إعادة تنظيم وتدريب قوات الثوار شهري مارس وإبريل (آذار ونيسان) سنة ١٩٥٧ بما في ذلك تدريب قوات الدعم التي التحقت بنا. وعندما تركنا البقعة المسماة (لاديريشا) كان جيشنا مؤلفاً من حوالي ٨٠ شخصاً وكان تشكيله أثناء المسير كما يلي: المقدمة وتضم ٤ أشخاص بقيادة كاميلو تليها فصيلة يقودها راؤول كاسترو يساعده ٣ ملازمين كل منهم يقود جماعة وهم خوليتو دياز وراميرو فالديس وناتو دياز (ولقد

مات هذان الرفيقان اللذان يحملان اسم دياز ميتة الأبطال في أوفيرو ولم يكن بينهما أية قرابة. فقد كان ناتو من سانتياغو، حيث يحمل معمل التكرير فيها اسم «الإخوان دياز» تخليداً لذكرى ناتو وأخيه الذي سقط شهيداً في سانتياغو دو كوبا أما خوليتو فهو من أرتيميزا ومن رفاق «غرانما» ومونكانا ولقد استشهد في أوفيرو). ثم تأتي بعد فصيلة راؤول فصيلة أخرى يقودها النقيب جورج سوتوس ومعه ٣ ملازمين وهم: سيرو فرياس (وقتل بعد ذلك في الجبهة) وغييرمو غارسيا (وهو اليوم قائد عسكري) ورينيه رتاموس لاتور (وقتل وهو يحمل رتبة رائد في سبيرا مايسترا) وتليها بعد ذلك القيادة المؤلفة من القائد العام فيدل كاسترو ومعه سيرو ريد وندو ومانويل فاخاردو والفلاح كريسبو وانيفرسو سانشيز وأنا كطبيب. ويلي القيادة فصيلة ثالثة بقيادة الميبدا ومعه ٣ ملازمين هم: هيرمو وغيير مود ومينجز (قتل في بينو ديل آجوا) وبينا. وفي نهاية الرتل الملازم إيفيجينيوا ميخرياس ومعه ٣ رجال هم المؤخرة.

وبدأ الرجال يتعلمون تحضير الطعام داخل الجماعة. (الجماعة كانت وحدة القتال عندنا) وكنا نوزع التموين والدواء والذخيرة حسب الجماعات. وعلى كل حال كان في كل جماعة وداخل كل فصيلة أفراد متمرسون من المحاربين القدماء يعلمون الجدد فن الطبخ وأفضل السبل لاستخدام المواد الغذائية كما يعلمونهم فن استخدام كيس العتاد وفن المشي في السبيرا.

اجتزنا خلال ٥ أشهر من المسير البطيء الطريق الذي تقطعه السيارة بين لاديريشا ولومون وأوفيرو بعدة ساعات. وأمنا في هذا المسير تحضير الرجال لمعارك المستقبل وللحياة التي تنتظرهم. وهكذا غيرنا مرة أخرى مرتفعات أسبينوزا حيث حيا القدماء ضريح خوليو زينون الذي سقط في ذلك المكان من قبل. ولقد وجدت هناك قطعة من أغطيتي لا تزال معلقة بالأشواك كذكرى لـ«انسحابي الاستراتيجي» السريع فوضعتها في كيسي بعد أن قررت ألا أضيع أبداً شيئاً من تجهيزاتي في ظروف مشابهة.

ولقد التحق بي رفيق جديد اسمه يولينو وذلك لمساعدتي في حمل

الأدوية فأصبحت مهمتي أخف عبئاً وصرت قادراً على تخصيص عدة دقائق كل يوم لاهتم بصحة رجالنا عقب كل مسير وعدنا أثناء سيرنا إلى هضبة «كاراكاس» المكان الذي لنا فيه لقاء مشؤوم مع الطيران بسبب خيانة جيرا. ووجدنا هنالك بندقية من البنادق التي كانت زائدة عن حاجتنا آنذاك وتركها أحد رجالنا بلا شك لتخفيف أحماله أثناء التراجع. أما هذه المرة فإن البنادق كانت على العكس تنقصنا. لقد دخلنا في مرحلة جديدة.

ودخل علينا تبديل نوعي. لقد كانت هناك منطقة كاملة لا يستطيع العدو المغامرة بدخولها خشية الالتقاء بنا. صحيح إننا لم نكن بدورنا نبدي رغبة كبيرة بمجابهته فلقد كان الوضع السياسي يشجع على الانتهازية، وكانت أصوات بازدولادا وكونت أجويرو، الضخمة المعروفة بالإضافة إلى أصوات غيرهم ممن يبحثون عن المكاسب الدنيئة تلعلع بمحاضرات تقطر بالديماغوجية[1] وتدعو إلى التفاهم والسلام وتوجه النقد للحكومة بشكل خجول وغير مباشر. لقد تحدثت الحكومة عن السلام وكان ريفيروا جويرو رئيس الوزراء الجديد يقول لكل من يريد أن يستمع إليه إنه سيذهب إلى سبيرا مايسترا إذا اقتضى الأمر بغية إحلال السلام. وبعد عدة أيام أعلن باتيستا «أنه ليس من الضروري الاتصال بفيدل أو العصاة. لأن فيدل ليس في السبيرا وبالتالي ليس هناك ما يدعو للذهاب والتحدث مع عصابة من المجرمين». وهكذا كشف باتيستا عن نواياه. وكانت رغبة الاستمرار بالصراع النقطة الوحيدة التي اتفقت فيها وجهة نظرنا مع وجهة نظر العدو لأننا بدورنا قررنا متابعة الصراع مهما كان الثمن. وفي ذلك الوقت عينت الحكومة العقيد باريرا رئيساً للعمليات وهو المشهور بشراهته ورغبته في سرقة تموينات الجنود. ولقد عاصر هذا العقيد فيما بعد بكل هدوء انهيار نظام باتيستا غير

(١) الديماغوجية Demagogie أسلوب من أساليب العمل السياسي أو الدعائي يعتمد على إثارة الجماهير وكسب تأييدها وذلك بالتوجه إلى عواطفها ودغدغة غرائزها دون الاهتمام جدياً بمصالح هذه الجماهير أو الدخول في صلب القضايا المصيرية التي تهمها. (المعجم السياسي).

أنه عاصره عن بعد من كاراكاس عاصمة فينزويلا بعد أن عين ملحقاً عسكرياً فيها.

وكان معنا بعض المهووسين المؤيدين، وكانوا ينفعوننا في الدعاية لحركتنا في الولايات المتحدة. بينما سبّب لنا بعضهم القليل من المتاعب ومن بين هؤلاء ثلاثة شبان أمريكيين هاربين من أهاليهم المقيمين في القاعدة الأمريكية في أواتنانامو التحقوا بنا لرغبتهم في النضال. ولكن اثنين منهم انسحبا دون أن يشتبكا في القتال أو يسمعا طلقة واحدة وكان انسحابهما برفقة الصحفي بوب تابر بعد أن انهكهما الطقس والحرمان القاسيين بينما اشترك الثالث في معركة أوفيري ثم انسحب وهو مريض بعد أن قاتل مرة على الأقل. ولم يكن هؤلاء الفتيان معبئين عقائدياً للقيام بثورة. ولكنهم اشبعوا رغبتهم بالمغامرة بأن عاشوا بيننا شهرين أو ثلاثة. ولقد واجهت رحيلهم بأسف ممزوج ببعض الفرح إذا كانوا يترددون عليّ كثيراً بصفتي طبيب نظراً لضعف قدرتهم على تحمل شظف العيش الذي نتحمله.

وبعد عدة أيام دعت الحكومة بعض الصحفيين للقيام بجولة على متن طائرة عسكرية لتثبت لهم من علو عدة آلاف من الأمتار بأنه لا يوجد أحد من الثوار في سبيرا مايسترا. ولكن هذه العملية المكشوفة لم تقنع أحداً. وهذا هو أحد الأساليب التي كانت تستخدمها حكومة باتيستا لخداع الرأي العام مستعينة بكل الانتهازيين المتنكرين في هيئة ثوار ومستغلة خطبهم المخدّرة للشعب.

وخلال هذه الأيام العصيبة حصلت على فراش معلق من القطن الذي يعتبر من الممتلكات الثمينة. وكان قانون الثوار يحصر حق الحصول على هذا الفراش بمن يصنع بيديه من قماش الأكياس فراشاً معلقاً بغية مقاومة الكسل. وكان الجميع قادرين على صنع فراش الأكياس والحصول على فراش معلق من القطن، ولكن إصابتي بالربو كانت تمنعني من استخدام فراش الأكياس، ومن جهة أخرى فإن الحشة كانت تضايقني لدرجة إنني كنت أنام على الأرض. وبما أنني لم أكن أملك فراشاً من قماش الأكياس

فإن أملي بالحصول على فراش معلق من القطن كان مفقوداً ولكن فيدل لاحظ الموقف فأصدر أمراً بإعطائي فراشاً جديداً. . إن هذه الحوادث اليومية الصغيرة تشكل جزءاً من المأساة الشخصية لكل ثائر. وإنني سأذكر على الدوام اليوم الذي استلمت فيه هذا الفراش إذ كان ذلك غداة اليوم الذي أكلنا فيه لحم الحصان لأول مرة بعد أن اجتزنا آخر المرتفعات على ضفاف لابلاتا في طريقنا إلى بالماموشا.

ولم يكن لحم الحصان طعاماً شهياً بمقدار ما كان تجربة جديدة لقدرة الرجال على التلاؤم. ولقد رفض الفلاحون من جماعتنا تناول طعامهم في ذلك اليوم بكل اشمئزاز. واعتبر بعضهم مانويل فاخاردو قاتلاً (لقد كان فاخاردو زمن السلم يعمل في المذبح وقد استخدمنا إمكانياته وخبرته في حالات مشابهة حيث ذبح لنا أول حيوان) وكان هذا الحصان ملكاً لفلاح اسمه بوبا يقطن في الطرف الآخر من النهر. ولا شك أن بوبا يعرف الآن القراءة والكتابة بعد معركة مكافحة الأمية. ويمكنه إذا سقطت مجلة «فيردي أوليفو» بين يديه أن يتذكر تلك الليلة التي جاءه فيها ثلاثة من الثوار بوجوههم الشاحبة وقرعوا باب كوخه واتهموه ظلماً بأنه خائن وتذرعوا بهذه التهمة ليأخذوا حصانه العجوز الذي كان ظهره مليئاً بالقروح. ثم أصبح هذا الحصان الهزيل بعد عدة أيام نصيبنا اليومي من الطعام الذي تذوقه بعضنا كوجبة لذيذة ولكن المعدة كانت تتقبله بصعوبة بسبب تصلبها أمام كثرة ما كنا نسمعه من أوهام وانتقادات الفلاحين الذي كانوا يشعرون بأنهم يأكلون لحوم البشر حين يمضغون لحم صديق الإنسان.

وفي منتصف إبريل (نيسان) ١٩٥٧ عدنا مع جيشنا المدرب إلى منطقة بالماموشا بالقرب من قمة توركينو وكان الرفاق القرويون أفضل رجالنا وأجدرهم قتالاً في الجبال.

وكان غييرمو غارسيا وسيرو فرياس مع دوريات من الفلاحين يجوبون السبيرا من أولها إلى آخرها يجمعون الأخبار ويقومون بعمليات استكشاف ويحصلون على الأغذية. وكانت هذه الدوريات تشكل في الحقيقة طلائعنا

المتحركة. وقد وجدنا أنفسنا من جديد وسط منطقة غدير الجحيم التي شاهدت إحدى معاركنا. وفي هذه الفترة كان الفلاحون الذين حضروا للسلام علينا ينقلون إلينا اسم الشخص الذي قاد الجنود في أثرنا وأسماء القتلى الذين سقطوا.. الخ فقد كانوا خبراء حقيقيين بفن نقل وتسقط الأخبار، وأعطونا معلومات واسعة حول مختلف وجوه الحياة في هذا القطاع.

وطلب فيدل جهاز راديو من فلاح في المنطقة بعد أن كان بدون راديو فأسرع الفلاح إلى تقديم الجهاز الذي كان ينقل إلينا أخبار إذاعة هافانا، وكانت تتمتع بحرية أكبر في إذاعة الأخبار بعد أن تم وضع ما يُسمى بالضمانات.

وذهب غييرمو غارسيا مرتدياً لباس عريف من جيش باتيستا يرافقه اثنان من الرفاق المتنكرين بلباس الجنود لإحضار الخائن الذي قدم المعلومات لجيش العدو مدعياً أن لديه أمرا بإحضاره من العقيد، ولقد عاد به في اليوم التالي دون أن يشك بشيء. ولكن عندما شاهد جيش الثوار أدرك فوراً ما ينتظره. حدثنا بكثير من القحة والسخرية عن علاقاته بالتفصيل مع الجيش وشرح لنا أنه قال لـ «كاسيلاس الحقير» أنه قادر على مفاجأتنا حتماً بأن يدل الجيش على منطقتنا بعد أن شاهدنا هناك، ومع ذلك لم يأخذ رأيه بعين الاعتبار.. وبعد انتهاء التحقيق أعدم الخائن فوق هضبة من الهضاب ودفن في إحدى غابات المايسترا.

وفي هذه الفترة وردت رسالة من سليا سانشيز تعلمنا فيها بقدومها مع صحفيين أمريكيين راغبين بإجراء حديث صحفي مع فيدل حول موضوع الفتيان الأمريكيين الثلاثة وأرسلت بصحبة الرسالة بعض المال الذي جمعه أنصار الحركة.

واستقر الرأي على أن يتولى لالو سادريناس الذهاب ليصعد إلينا بالأمريكيين من منطقة استرادا بالما التي يعرفها جيداً لأنه كان يعمل فيها كتاجر. وكنا في ذلك الوقت نكرس وقتنا لإقامة علاقات واتصالات مع الفلاحين الذين يقومون بدور الاتصال ويهتمون بإدامة معسكراتنا الدائمة.

وكنا نفكر في الواقع أن نخلق في هذه البقعة مراكز حيوية حقيقية للمنطقة التي نسيطر عليها والتي بدأت تتسع. ولقد استطلعنا المنازل التي يمكن استخدامها كنقاط تموين لقواتنا لنضع فيها ما يرسل إلينا من تموين، وكانت هذه النقاط تفيدنا لكونها نقاط ارتباط للبريد السريع الذي يحمله المراسلون الذين يجوبون السبيرا طولاً وعرضاً ويتسللون من كل مكان في الجبال.

وأثبت مراسلو السبيرا قدرة غريبة على قطع المسافات الكبيرة في وقت قصير، الأمر الذي كان يدفعنا نحن سكان المدن غير المعتادين على هذا العمل الشاق إلى تجاهل تعليماتهم والشك بتقديراتهم. ولكن هذا النوع من المعلومات كان يظهر على الدوام صحيحاً بالنسبة للفلاحين رغم أن مفهومهم لعامل الزمن يختلف كلية عن مفهوم أهل المدن. .

وبعد تعيين لالو سارديناس بثلاثة أيام جاءنا إنذار بأن ستة أشخاص يصعدون إلينا من قطاع سانتو دومينجو وهم امرأتان وأمريكيان ومرافقان مجهولان. ولكن المعلومات كانت متضاربة. فيقال إن الجنود الأعداء قد عرفوا بوجودهم عن طريق أحد الجواسيس وحاصروا المنزل الذي ينامون فيه. والأخبار تذهب وتأتي بسرعة عجيبة في السبيرا ولكنها تتشوه أثناء حركتها. وذهب كاميلو على رأس فصيلة بمهمة تحريرهم من ربقة الأسر مهما كلف الأمر غير أن الجميع عادوا سالمين بعد أن تبين أن الإنذار الخاطئ كان سببه تحركات قام بها الجنود بناء على بعض الوشايات ـ ولم يكن هذا غريباً أو نادر الوقوع في هذه الظروف بين الفلاحين المتخلفين.

وفي ٢٣ إبريل (نيسان) وصل إلى معسكرنا الصحفي بوب تابر ومساعده المصور السينمائي وبصحبتهما الرفيقتان سيليا سانشيز وهايدي سانتا ماريا ومبعوثان من «حركة السهل» هما الرائد إيجليسياس (أصبح محافظ لاس فيللاس وكان في ذلك الوقت مكلفاً بمهمة في سانتياغو) ومارسيلو فيرناندز الذي يعمل لتنظيم التعاون مع الحركة وكان يرافقهم كمترجم للانجليزية: (أصبح معاون حاكم البنك الوطني).

ولقد مرّ كل شيء بطريقة بروتوكولية. وكنا نود أن نظهر قوتنا

ونتحاشى بنفس الوقت كل سؤال يكشف أسرارنا، لأننا كنا نجهل حقيقة هذين الصحفيين. وبدأ الحديث الصحفي مع الأمريكيين اللذين كانا يردان على كل سؤال بشكل مدهش لأن الحياة البدائية التي عاشاها بيننا بعثت فيهما أفكاراً جديدة.

وفي هذه المرحلة تقريباً انضم إلينا أكثر الوجوه لطفاً ودماثة والذي كنا نخصُّه بإعزاز كبير في هذه الحرب الثورية وهو «راعي البقر الصغير» الذي جاءنا يوماً قادماً من موطنه الأصلي مورمون مع رفيق له بعد أن بحث عنا لمدة شهر كامل. وكما هي القاعدة في مثل هذه الحالات بدأنا نطرح عليه العديد من الأسئلة. ثم أعطيناه كتيب التوجيه السياسي بعد أن اتضح لي أنه لا يحمل أية فكرة سياسية. وقد توليت عملية توجيهه حيث إن هذا النوع من العمل كان من اختصاصي. وكان هذا «الراعي الصغير» يبدو وكأنه غلام مرح صحيح البنية يعيش حياة المغامرة الرائعة. وأعارته سيليا زوجاً من الأحذية المكسيكية المصنوعة من الجلد المقلوب بعد أن جاءنا بقدمين حافيتين صغيرتين لم نجد لهما بين أحذيتنا زوجاً ملائماً. وكان يبدو صغيراً جداً ولكن الأحذية الجديدة وقبعة الفلاحين الكبيرة أعطته شكل رعاة البقر المكسيكيين ومن هنا جاءه لقب «راعي البقر الصغير».

ولم ير هذا الرفيق نهاية الصراع الثوري، فقد مات على رأس فصيلة الانتحار التابعة للرتل الثامن قبل احتلال سانتا كلارا بيوم واحد. وبقيت ذكراه بيننا مرتبطة بحبه للحياة وسعادته ومرحه المتدفق ومواجهته الأسطورية للمخاطر. لقد كان كاتباً بشكل مبدع، فما أن يفتح فمه حتى يشوه الحقيقة فتبدو غير معروفة ولكن من ينظر إليه وهو يعمل كمراسل في الفترة الأولى أو كجندي أو رئيس فصيلة انتحار يشعر بأنه لم يكن لديه حدود واضحة بين عالم الحقيقة وعالم الخيال. وكان يطبق في ساحة القتال كل ما كان يتخيله فكره المرن حتى غدت بسالته المبالغ فيها أسطورية يتحدثون عنها في كل مكان بعد انتهاء معاركنا بانتصار لم يكتب له أن يراه.

وخلال أحد دروس القراءة التي كنا نعطيها داخل جماعتنا طلبت منه

أن يروي لي قصة حياته وبدون أن يشعر بدأت أحسب بقلم الرصاص تفاصيل ما يرويه ولما انتهى من سرد عدة قصص ونوادر غرامية جريئة تخللت حياته التي كانت لم تزد عن ٢٠ عاماً جمعت هذه الأعمال التي قام بها كلها ووجدت أنه كان عليه أن يبدأ القيام بها قبل أن يولد بخمس سنوات. . .

وفي أحد الأيام أعلمنا الرفيق «النيكاراجوائي» بوجود مستودع صغير للأسلحة في سانتياغو - وهو باق منذ أيام الهجوم على مقر الرئاسة - وفيه ١٠ مسدسات رشاشة و١١ بندقية جونسون و٦ بنادق قصيرة موسكيتون. وكانت هنالك أسلحة أخرى، ولكن بعض الرفاق كانوا يفكرون بفتح جبهة أخرى في قطاع مركز صناعة السكر «ميراندا» ولكن فيدل عارض هذا المشروع ولم يقدم لهذه الجبهة سوى بعض الأسلحة، وطالب بتحويل كافة الإمدادات إلى جبهتنا. وتابعنا سيرنا بغية التخلص من الوجود جنباً إلى جنب مع قوات معادية تجوب المنطقة، وكنا قد قررنا الصعود إلى قمة توركينو. وكان هذا التسلق لأعلى قمة عبارة عن عمل شبه صوفي بالإضافة إلى أننا تجولنا قبله مدة طويلة على طول خط ذرى مرتفعات المايسترا بالقرب من أعلى قمة فيه.

وتسلق الجميع إلى توركينو، وعندما وصلنا إلى أعلى ذروة انتهت أحاديثنا مع بوب تابر الذي صور عنّا فيلماً عرض بنجاح في تليفزيون الولايات المتحدة في الوقت الذي لم يكن الأمريكيون يخشوننا فيه كاليوم. . ولقد جرى حديث ذو مغزى ملخصه أن أحد الفلاحين الملتحقين بنا حديثاً صرح أن كاسيلاس عرض عليه ٣٠٠ دولار وبقرة سمينة إذا قتل فيدل. إن غباء كهذا حول ثمن قائدنا الأعلى لا يرتكبه إلا الأمريكيون الشماليون. . .


وحسب جهاز قياس الارتفاعات الذي كان معنا كانت توركينو على ارتفاع ١٨٥٠ متراً عن سطح البحر. وهذه الملاحظة أوردها هنا عرضاً لأنها تختلف بشكل واضح عن الأرقام الرسمية مع أن جهازنا كان يعمل بشكل جيد.

ولقد أرسل غييرمو وجماعة من الرفاق لإطلاق النيران على سرية من الجيش كانت تتعقبنا وتعطيلها أطول مدة ممكنة. ونظراً لإصابتي بالربو فقد كنت مضطراً للسير في مؤخرة الرتل عاجزاً عن بذل أي مجهود إضافي وسحب مني مسدسي الرشاش تومبسون ولم يُعد إلا بعد ٣ أيام كانت من أكثر الأيام التي قضيتها في السبيرا مرارة وكنت أجد نفسي فيها أعزل بالرغم من احتمال مواجهة العدو في كل لحظة.

وفي هذه المرحلة مايو (أيار) ١٩٥٧ تركنا الأمريكيان الشماليان ورحلا برفقة الصحفي بوب تابر الذي أنهى تحقيقه الصحفي ووصلا سالمين إلى غوانتانامو، وتابعت قواتنا مسيرها البطيء على سفوح وذروة المايسترا. وقمنا بتنظيم بعض الاتصالات واستطلاع بعض المناطق وحملنا شعلة الثورة وأسطورة جماعتنا الملتحية إلى مناطق أخرى في السبيرا. وانتشرت في الجبل روح وأفكار جديدة ودأب الفلاحون على الحضور للسلام علينا بحذر أقل. أما نحن فلم نعد نخشى وجودهم أو نشك بتصرفاتهم لأن قوتنا الصغيرة زادت بشكل ملحوظ وأصبحنا نشعر بأننا مستعدون لكل مفاجأة يقوم بها جيش باتيستا كما كنا نشعر بثقة متزايدة بفلاحينا.

متابعة المسير ونجاح الثورة:

* قضينا النصف الأول من شهر مايو (أيار) ونحن نسير بدون توقف نحو هدفنا (ثكنة أوفيرو). وفي بداية الشهر كنا على مرتفع فوق ذورة مايسترا القريبة من قمة توركينو وكنا نجتاز قطاعات غدت فيما بعد مسرحاً لأحداث عديدة لحربنا. ومررنا من «سانتا آنا» و«هو مبريتو» و«قمة فيردى» حيث عبرنا منزل أسكوديرو في المايسترا في طريقنا إلى «هضبة الحمار» بهدف استلام كمية من الأسلحة القادمة من سانتياغو وتخزينها على مقربة من هذه الهضبة بجانب (أوتيميو جيرا). وفي إحدى الليالي بعد مسير دام أسبوعين بينما كنت منعزلاً عن الرتل لقضاء حاجة خاصة أخطأت الطريق ولم أعثر على الجماعة إلا بعد ٣ أيام في بقعة تدعى هومبريتو. ولقد سمحت لي هذه الفرصة للتأكد بأننا نحمل على ظهورنا كل الضروريات التي تلزمنا لنكفي نفسنا بنفسنا مثل



الحليب والملح والزيت للطعام المعلب وغيرها وكل ما يلزم للنوم أو لإشعال النار والطبخ بالإضافة إلى أداة كنت لا أزال أثق بها وهي البوصلة.

ولما وجدت نفسي تائهاً في اليوم التالي لهذه الليلة اللعينة سرت على هدى البوصلة يوماً ونصف اليوم لأجد نفسي في النهاية تائهاً أيضاً. ولكن سكان أحد الأكواخ دلني على معسكر الثوار. وثبت لي بعد ذلك أن البوصلة تعطي فقط الاتجاه العام في المناطق الكثيرة التضاريس والتعرجات كالسبيرا مايسترا ولكنها عاجزة عن إعطاء الاتجاه المحدد بدقة. أما تحديد الطريق الواجب اتباعه فيجب أن يتم عن طريق الإدلاء أو بمعرفة جيدة للأرض كالتي اكتسبتها فيما بعد عندما طلب مني أن أقاتل في قطاع «هومبريتو».

وكان لقائي بالرتل حاراً واحتفظوا لي بلقاء لطيف جداً. ففي اللحظة التي وصلت بها كانت المحكمة الشعبية منعقدة برئاسة كاميلو لمحاكمة ٣ جواسيس أحدهم كان يدعى نابولس حكم عليه بالإعدام لحظة وصولي.

وكان علي عند المرور من قرية أو دسكرة أن أقوم بواجبي كطبيب حيث كنت أكشف على المرضى من الأهالي. وكان هذا العمل يسير على وتيرة واحدة لأنني لم أكن أملك الأدوية لتوزيعها. وكل الحالات المرضية في السبيرا كانت متشابهة: نساء فقدن أسنانهن وأدركتهن الشيخوخة قبل الأوان، وأطفال ذوو بطون منفوخة، مصابون بالطفيليات ونقص الأغذية وأعراض نقص الفيتامينات. وهذه هي الأمراض التي كانت موجودة في السبيرا ولا تزال حتى الآن ولكن بنسبة أقل بكثير. والاطفال في السبيرا يذهبون اليوم إلى المدينة المدرسية كاميلوسيا نفوغوس، لقد كبروا الآن وأضحوا ينفجرون صحة وذهب عن وجوههم الشحوب الناحل الذي كان يكسوها عندما كانت المدرسة تستقبلهم للمرة الأولى.

وأذكر أن طفلة كانت تحضر عيادتي لنساء المنطقة اللواتي كن يحضرن اليَّ وكلهن ثقة بي لمعرفة سبب آلامهن. وعندما جاء دور أم الطفلة وكشفت عليها في الغرفة الوحيدة في «البوهيو» المخصص كعيادة قالت البنت: يا أماه

إن هذا الطبيب يقول نفس الكلام لكل النساء المريضات.

وكان كلامها صادقاً حقاً. ولعل معلوماتي كانت آنذاك محدودة. لكن على كل حال كانت أعراض أمراض تلك النساء واحدة وكن يروين جميعاً نفس الحكاية الأليمة. فما ذنب الطبيب إذا عزا التعب الغريب الذي تشعر به امرأة شابة عندها عدة أطفال عندما تحمل دلو ماء من الغدير إلى منزلها لسبب بسيط هو الإجهاد وسوء التغذية؟ وهذا الإجهاد أمر لا تستطيع المرأة في السبيرا فهمه، لأنها لم تنقطع طيلة حياتها عن حمل نفس الدلاء إلى نفس المكان وها هي اليوم تشعر فجأة بالتعب.. وسبب ذلك يعود إلى أن سكان السبيرا ينبتون بلا عناية كالنباتات البرية ثم تستهلكهم بسرعة حياة السخرة الخالية من الراحة. ومن هنا وسط هذه المآسي نما إيماننا بضرورة إجراء تغيير جذري في حياة الشعب كما زادت أهمية فكرة الإصلاح الزراعي. ولم تعد مشاركة الشعب نظرية بل غدت إلى الأبد جزءاً من كياننا.

ولا نستطيع أن نحدد في أية لحظة بالضبط من لحظات مسيرنا الطويل تم التلاحم بين الثورة وجماهير الشعب. كذلك لا نعرف اللحظة التي غدا فيها ما نادي به حقيقة واقعة أو اللحظة التي وجدنا أنفسنا بها جزءاً من الفلاحين. وكل ما نستطيع قوله هو أن الثورة وجماهير الشعب قد اندمجتا رويداً رويداً حتى أصبحتا كتلة واحدة. أما فيما يتعلق بي فإنني أعرف أن الإرشادات التي كنت أعطيها للفلاحين صبغت قراري العفوي والعاطفي بقوة أكثر عمقاً وصلابة. وهكذا لعب رجال سبيرا مايسترا ونساؤها الجلدون المخلصون دوراً عفوياً كبيراً في بناء عقيدتنا الثورية.

في هذه المرحلة بالذات رُقّي غييرمو غارسيا إلى رتبة نقيب وكلف بقيادة كل المتطوعين الجدد من الفلاحين. ومن يدري، فلعل الرفيق غييرمو قد نسي هذا التاريخ الوارد في سجل القتال وهو ٧ مايو (أيار) ١٩٥٧.

في هذا التاريخ ذهبت هايدي سانتا ماريا حاملة توجيهات محددة من فيدل لتحقيق الاتصالات الضرورية، وعلمنا في اليوم التالي أن «النيكاراجوائي» إيجيليسياس المكلف بمهمة استلام وإحضار الأسلحة إلينا

سقط في قبضة السلطات فسادنا اضطراب شديد وكنا نتساءل كيف سنستلم هذه الأسلحة بحق الشيطان؟ وقررنا رغم كل شيء متابعة المسير ووصلنا إلى منطقة قريبة من بينوديل اجوا. وكانت عبارة عن فجوة أرضية وفيها مجموعة أشجار مقطوعة ومبعثرة في قلب سبيرا مايسترا بالإضافة إلى كوخين مقفرين. وبالقرب من إحدى الطرقات أوقفت إحدى دورياتنا عريفاً من الجيش معروفاً بجرائمه منذ أيام حكم الدكتاتور ماشادو. وكان الكثيرون منا يودون إعدامه لكن فيدل رفض الإطاحة برأسه فتركناه أسيراً في حراسة المتطوعين الجدد بعد تجريده من سلاحه وإنذاره بأن أية محاولة منه للهرب معناها نهاية حياته.

وتابع قلب جيشنا التقدم للتأكد من وصول الأسلحة إلى المكان المحدد واستلامها في حالة الإيجاب. وكان مسيراً طويلاً ولكننا كنا نشعر بخفة تحركاتنا بعد أن تركنا الأكياس والمهمات في المعسكر الذي أودعنا فيه الأسير. غير أن هذا المسير لم يعط أية نتيجة لأن الأسلحة والمعدات لم تصل بسبب تأخر نجم بلا شك عن اعتقال «النيكاراجوائي» ولكننا استطعنا شراء كمية من المواد التموينية من أحد المتاجر ثم عدنا إلى نقطة انطلاقنا بحمولة غير متوقعة ولكنها استقبلت استقبالاً حاراً.

واتبعنا في العودة نفس طريق الذهاب وبخطوات بطيئة مثقلة عبر خط ذرى سبيرا مايسترا مجتازين بكل حذر المناطق المكشوفة. وفجأة ترامى إلى أسماعنا صوت طلقات نارية، وأقلقنا هذا الأمر لأن أحد رفاقنا كان قد حث المسير ليصل بسرعة إلى معسكرنا وهو الملازم غيرومو دومينجز (الذي جاء مع نجدة سانتياغو) فاتخذنا احتياطات الحذر ضد كل طارئ وانطلقت مفرزة منا تستطلع الأمر. وبعد وقت طال بسبب ظروف الحيطة عادت الدورية ومعها الرفيق فياللوا (المنضم حديثاً إلى الثورة) الذي يتبع جماعة كريسنسيو. ولقد جاء من معسكرنا ليخبرنا بوجود قتيل في طريق تقدمنا، وبأن اشتباكاً حصل مع الجنود الذين انسحبوا باتجاه بينوديل أجوا حيث توجد مفرزة معادية أكبر متمركزة على مسافة قريبة. وتقدمنا ونحن في منتهى الحذر حتى وصلنا فعلاً إلى الجثة وكان عليَّ مهمة تحديد هويتها.

كانت جثة غييرمو دومينجز، وكان جذعه عارياً وفي مرفقه الأيسر جرح رصاصة بينما بدت في منطقة فكه العلوي الأيسر طعنه حربة وهشمت طلقة نارية قريبة رأسه تماماً. ولاحظت آثار البارود ووجود بعض الشظايا الصغيرة على جوانب جرح رفيقنا المنكود الحظ. وفي تحليل ظواهر الإثارة المختلفة استخلصنا أن ما حدث كان نتيجة انتشار جماعة من الجنود يبحثون عن عريفهم الذي أسرناه فوجدوا غييرمو خلال بحثهم واستطاعوا مفاجأته لأنه كان يسير بلا حذر معتمداً على أنه كان قد سار على نفس الدرب في اليوم السابق وأخذوه أسيراً.

غير أن قسماً من جماعة كريسنسيو كان يتقدم من الاتجاه المعاكس للقيام باتصال معنا (وكل هذا كان يتم على مرتفعات المايسترا) ففاجأ هؤلاء الرفاق أعداءنا من الخلف وأطلقوا عليهم النار وأجبروهم على الفرار ولكن الجنود قتلوا رفيقنا دومنجيز قبل فرارهم.

وتعتبر بينوديل أجوا منطقة لنشر الأخشاب في قلب الجبل. ولقد سلك الجنود طريقاً قديماً كان يستخدم لجر الأخشاب، وكان علينا اجتياز هذا الطريق بعد أن سرنا فيه ١٠٠ متر لنصل من جديد إلى المدق الضيق الذي يسير عبر الغابات مع خط توزيع المياه المنحدرة من الذرى. وهكذا دفع رفيقنا حياته ثمن تهاونه في اتباع إجراءات الحيطة اللازمة على الدوام في مثل هذه الظروف. وكان من سوء حظه أن وجد نفسه وجهاً لوجه أمام العدو. وكان مصيره الأليم درساً قاسياً لنا في المستقبل.

وصول الأسلحة لدعم الثورة:

* وفي منطقة قريبة من منطقة نشر الأخشاب في بينوديل أجوا تحول الحصان الرائع الذي كان الأسير يمتطيه عند أسره إلى لحم مطبوخ. ولم يكن هذا الحيوان يقدم لنا أية فائدة للتقدم في منطقة كثيفة الأشجار والأشواك. بالإضافة إلى ندرة مؤونتنا. والطريف في الأمر أن العريف الأسير كان يطالبنا بالاعتناء بالحصان الذي استعاره من زميل له. ولقد أعطانا وصف

هذا الزميل ليسهل لنا إعادة الأمانة إلى صاحبها مهما كلف الأمر في نفس اللحظة التي كان يتلذذ فيها بتذوق الحساء والخضار المطبوخة بلحم حصانه.. دون أن يدري. لقد كان اللحم في السبيرا بالنسبة لنا ترفاً نتذوقه بكل تقدير.

وفي هذا اليوم عرفنا عن طريق الإذاعة أنَّ رفاق «غرانما» قد حكم عليهم وإنهم وجدوا محامياً واحداً للدفاع عن الجميع وهو القاضي أوروتيا. ويعود سبب انتخابه فيما بعد رئيساً مؤقتاً للجمهورية إلى هذا العمل المشرف. ويمكن اعتبار هذا الموقف في حد ذاته موقفاً شجاعاً جديراً بالاحترام. والحق يقال إن تصرفاً كهذا كان يحتاج في مثل تلك الظروف إلى شجاعة نادرة. ولكن هذا الموقف أوصل إلى سدة الرئاسة رئيساً سيئاً عجز عن فهم أبعاد التطور السياسي وإدراك أعماق ثورة لم تستطع أفكاره الرجعية مسايرتها. وكانت طبيعة تركيب شخصيته ونفوره من تحمل المهمة المطلوبة منه سبباً لعدد كبير من الصراعات إلى أن حلت الأيام التي كانت البلاد تستعد فيها للاحتفال بمناسبة ٢٦ يوليو (تموز) فاستقال من منصبه الرئاسي ونسيته الجماهير.

ثم جاءنا بعد ذلك نبأ موثوق من سانتياغو حمله الرفيق اندريس ومفاده أن الأسلحة في مأمن وأن نقلها سيتم خلال الأيام القادمة. تم تحديد نقطة الالتقاء على الشاطئ في منطقة قطع الأشجار التي تستغلها أسرة بابون. وكان يتحتم علينا نقل هذه الأسلحة بمساعدة هؤلاء السادة الذين طمعوا مقدماً ببعض المكاسب المجزية نظير خدمة الثورة (ثم جاءت الأحداث بعد ذلك ففرقت هذه الأسرة. وقدم أحد أعضاء مزرعة بابون ثلاثة من أبنائه للعمل مع أعداء الثورة«ديدان الأرض» ولكنهم وقعوا في قبضة الثورة كأسرى في شاطئ جيرون).

والجدير بالملاحظة أن الكثيرين كانوا يأملون آنذاك استخدام الثورة لتحقيق أهدافهم الشخصية. فكانوا عندما يقدمون لها خدمات صغيرة يعللون النفس بالحصول على مزايا ومكاسب مختلفة من السلطات الجديدة

بالمستقبل وهكذا كانت تفكر أسرة بابون التي طمعت بالحصول على امتياز باستغلال كل الغابات لتقوم بقطع أشجارها وتجريد البلاد من الغابات بشكل جشع وتهجير جميع الفلاحين المجاورين لهم لزيادة مزارع عائلة بابون.

وفي نفس الفترة التحق بنا صحفي أمريكي من نفس طراز أسرة بابون. وهو من أصل هنغاري يدعى أندراوس سان جورج. وعندما وصل لم يظهر لنا إلا أقل الأجزاء قبحاً من وجهه وهو وجه الصحفي الأمريكي، ولكنه كان بالإضافة إلى ذلك عميلاً لمكتب المخابرات المركزية الأمريكية. ولما كنت الوحيد الذي يتكلم الفرنسية في جماعتنا (ولم يكن هنالك من يتكلم الانجليزية) فقد توليت الاهتمام به. وإنني أعترف بكل صراحة بأنني لم أشك به أو بخطورة نواياه التي كشفها بعد ذلك تحقيقه الصحفي الثاني. وما إن نزع قناع الصحفي حتى ظهر لنا وجه عميل المخابرات بكل جماله.. وكنا نسير عبر بينو ديل آجوا للوصول إلى منابع نهر بيلا ديرو متقدمين على أرض شديدة الانحدار بظهور أثقلتها الأحمال. ومن بيلا ديرو صعدنا إلى أينديو أحد روافد نهر بيلا ديرو ثم عسكرنا في المنطقة ثلاثة أيام. وحصلنا على بعض المؤونة كما نقلنا الأسلحة المرسلة إلينا. وأخذنا نؤسس نوعاً من السلطة الثورية في القرى والدساكر الصغيرة التي نجتازها في هذا القطاع وكان الكثيرون يتطوعون بنقل المعلومات الينا عن الأمور التي تجري في القطاع بما فيها بطبيعة الحال تحركات العدو. ولكننا رغم ذلك بقينا نقضي حياتنا في الجبل ما عدا بعض الفترات التي نهبط فيها ليلاً إلى بعض المنازل حيث يستغل بعضنا الفرصة لينام بين أربعة جدران. ولكن معظم الرجال كانوا يفضلون الاحتماء وسط الأحراج. أما في النهار فكنا نحتمي تحت غطاء من الأشجار الكثيفة المدارية.

وكان ألد أعدائنا في هذه الفترة نوع مزعج من ذباب البقر وهو ينتشر كثيراً في إحد فصول السنة في الغابات، والجلد العاري أرضه المفضلة. وقد اضطررنا إلى حك جلودنا باستمرار. وكانت اللسعات تلتهب بسرعة مشكلة قروحاً متقيحة خطيرة أحياناً وأصبحت المناطق المكشوفة في أفخاذنا ومعاصمنا ورقابنا تحمل آثار الذباب اللعين. وفي ١٨ مايو (أيار) وصلتنا

أنباء عن الأسلحة ولكنها سرعان ما شاعت في جميع أنحاء المعسكر بسرعة وأهاجت الكثير من الانفعال والتأثر. فكل المقاتلين كانوا يأملون بالحصول على شيء منها. ولم يكن الجميع يأملون أن ينالوا أحدث الأسلحة ولكن على الأقل أن ينالوا أسلحة سواء أكانت جيدة أم رديئة طالما سيتركها المحاربون القدامى بعد أن يستلموا الأسلحة الجديدة التي يستحقونها عن جدارة.

ولقد علمنا أيضاً أن الفيلم الذي التقطه الصحفي بوب تابر في سبيرا مايسترا قد عرض بنجاح كبير في الولايات المتحدة. وفرح الجميع بذلك إلا أندراوس سان جورج.. لقد كان عميلاً بالإضافة إلى كونه ذا نفسية صحفية تتضايق من المنافسة والسبق الصحفي.. وفي اليوم التالي تركنا ورحل إلى سانتياغو دو كوبا.

وعندما كشف لنا مكان الأسلحة لاحظنا أن أحد جماعته قد اختفى وهذا أمر ينذر بأشياء كثيرة حيث إن الجميع في المعسكر كانوا يعلمون بوصول الأسلحة. ولقد أعلمتنا الدوريات التي أرسلناها بحثاً عن هذا الرجل عندما عادت بعد عدة أيام بأنه أبحر على المركب المتجه إلى سانتياغو. وكان الاستنتاج المنطقي أنه قد ذهب ليعلم السلطات. ولكن ظهر فيما بعد أن الرجل قد فرّ لأنه أحس بنفسه عاجزاً جسمانياً ونفسياً عن مواجهة متاعب حياتنا. ومع هذا كان علينا أن نضاعف الحيطة. وأن نقوم بصراع مستمر أمام نقص الإعداد الجسمي والمعنوي والعقائدي لدى المقاتلين ولم تكن نتائج جهودنا ناجحة على الدوام.. وكان الرجال يطلبون الإجازات متعللين بأسباب تافهة. فإذا رفضنا إعطاءهم هذه الإجازات كان ردّهم الفرار رغم أن عقوبة الفرار كانت الإعدام في نفس المكان الذي نعثر فيه على الهارب.

وجاءت الأسلحة ليلاً وكان قدومها أجمل مشهد في العالم حيث كان منظرها وهي مصفوفة وكأنها في صالة عرض يثير الرغبة في اقتنائها لدى جميع المقاتلين. وكانت الأسلحة تضم ٣ رشاشات ثقيلة و٣ رشاشات خفيفة مادزن و٩ بنادق م ١ و١٠ بنادق رشاشات جونسون مع ٦٠٠٠ طلقة فقط.

وبالرغم من أن البنادق م١ لم يكن لها إلا ٤٥ طلقة لكل بندقية فإن توزيع الذخيرة كان حسب استحقاق وجدارة كل رفيق من الرفاق وحسب قدم وجوده في السبيرا. وحصل الرائد راميرو فالديس على بندقية م ١ (وهي من الأسلحة التي كان الرفاق يتنافسون عليها) كما أن المقدمة التي يقودها كاميلو أخذت بندقيتين من هذا النوع. أما البنادق الأربعة الأخرى فقد خصصت لمفرزة حماية حاملي الرشاشات وألحق رشاش خفيف بفصيلة النقيب جورج سوتوس بينما ألحق الثاني بفصيلة الميبدا وأعطي الثالث إلى مفرزة القيادة حيث كلفت باستخدامه والإشراف عليه. أما الرشاشات الثقيلة فقد أعطي أحدها لراؤول والثاني لغييرمو غارسيا وأخذ كريسنسيو بيريز الرشاش الأخير. وهكذا تحولت إلى مقاتل فعلي بعد أن كنت طبيب المجموعة رغم أنني سبق أن قاتلت أحياناً وعن طريق الصدفة. وهكذا بدأت بالنسبة لي مرحلة جديدة من الحياة في السبيرا.

ولن أنسى أبداً اللحظة التي استلمت فيها الرشاش الخفيف. لقد كان قديماً ومن النوع الرديء ولكنني وجدته شيئاً ثميناً وخصصت لخدمته ٤ رجال ولقد سار هؤلاء الرجال فيما بعد على دروب مختلفة، فقد أعدمت الثورة اثنين منهم وهما الأخوان بوبو ومانولو بياتون نظراً لأنهما قتلا الرائد كريستينو نارانخو (وكانا قد فرا بعد عملية القتل واختفيا في جبال أوريانت حتى كشف لنا أحد الفلاحين مكانهما) وكان الثالث غلاماً في الخامسة عشرة من عمره واسمه خويل إيجليسياس وكان عليه أن يحمل طوال الوقت مخازن ذخيرة الرشاش الخفيف وهو اليوم رئيس الشبيبة الثورية ويحمل رتبة رائد في جيشنا. أما الأخير فقد أصبح اليوم ملازماً واسمه أونات ولكننا نسميه تحبباً كانتينفلاس. . ولكن قدوم هذه الأسلحة لم يضع حداً لمغامرتنا الخطيرة وكان على جماعتنا أن تزيد قوتها العقائدية وحماسها القتالي. وبعد عدة أيام أي في ٢٣ مايو (أيار) أمر فيدل بفصل جماعة كاملة. وهكذا تناقصت قواتنا حتى باتت ١٢٧ رجلاً فقط من المسلحين، منهم ٨٠ رجلاً مسلحاً بأسلحة جيدة.

ولم يبق من الجماعة التي فصلت كلها حتى رئيسها سوى رجل

واحد اسمه كروسيتو الذي لم يلبث أن أحبه الجميع. وكان كروسيتو هذا شاعراً بالسليقة وكانت له مناظرات طويلة مع شاعر المدينة كاليكستو موراليس رفيق «غرانما» القديم المعروف باسم شحرور السهول. وكان كروسيتو يرد على هذه التسمية في قصائده الموجهة إلى كاليكستو قائلاً «أما أنا فبرقش السبيرا».

ولقد نظم هذا الرفيق الرائع كل أحداث الثورة في ملاحم شعرية كان يؤلفها وهو يدخن الغليون في أوقات الفراغ. وبما أننا كنا فقراء في حيازة الورق في السبيرا فقد كان يحفظ أشعاره عن ظهر قلب كلما نظم قصيدة جديدة. ولما وضعت رصاصة معادية حداً لحياته في معركة بينو ديل أجوا ضاع وضاعت معه قصائده.

كنا في منطقة مناشر الخشب نعتمد على المساعدة الهامة التي يقدمها لنا أتريك لوبيز عندما كان يعمل عند آل بابون. وهو رجل طيب يعرفه فيدل وراؤول منذ أيام الصبا. فكان يساعدنا في أمور التموين. كما كان يؤمن تحركاتنا نظراً لأنه يعرف المنطقة كما يعرف قاع جيبه. وكان هذا القطاع مليئاً بالطرقات التي تستخدمها سيارات الجيش فنصبنا عدة كمائن للإيقاع بعربات عسكرية ولكننا لم نتوصل إلى ذلك أبداً. وكان هذا أفضل لنجاح العملية التي كنا نستعد لها والتي كان لها أثر نفسي كبير وهي معركة أوفيرو.

وفي ٢٥ مايو (أيار) جاءتنا الأخبار بأن حملة يقودها كاليكستو سانشيز نزلت من المركب أورنتيا وهي تتقدم من جهة ماباري. ثم علمنا بعد عدة أيام مصير هذه الحملة الرهيب. لقد كان بريو[١] يرسل رجاله إلى الموت دون أن يحاول مرافقتهم.. وكرد فعل لهذا النبأ رأينا أن علينا أن نشاغل قوات العدو بأي ثمن لنمكن هذه الجماعة من الوصول إلى مناطق آمنة حيث

---

(١) بريو سوكاراس زعيم حزب Authentique ورئيس جمهورية كوبا من عام ١٩٤٨ حتى ١٩٥٢ أدت اختلاساته إلى انتقاد فيدل له بشدة، وأطاح به انقلاب باتيستا في ١٠ مارس (آذار) ١٩٥٢ فلجأ إلى الولايات المتحدة. وكان جماعته يشترون ويجمعون الأسلحة دون استخدامها بينما كان يقيم لاجئاً في ميامي.

يتم تجمعها ودخولها في العمل. وكنا مدفوعين إلى ذلك بدافع التعاون بين المقاتلين رغم جهلنا بطبيعة البناء الاجتماعي والأهداف الحقيقية لهذه الحملة.

وبدأت آنذاك مناقشة هامة أهم من اشترك فيها فيدل وأنا. وكان من رأيي أننا لا نستطيع إضاعة فرصة جميلة وهي الاستيلاء على سيارة نقل عسكرية. وأن علينا أن نقوم بجهود لنوقف إحدى السيارات العسكرية التي تجتاز المنطقة طولاً وعرضاً هادئة مطمئنة، ولكن فيدل كان قد اتخذ قراراً بمهاجمة أوفيرو. وكان يرى أن احتلال هذا المركز العسكري أهم وأجدى من الاستيلاء على سيارة عسكرية لأن له نتائج حاسمة ويسبب صدمة نفسية أكيدة ينتشر صداها في جميع أنحاء البلاد. وهذا ما تعجز عن تحقيقه عملية الاستيلاء على سيارة نقل لأن العدو يستطيع خنق هذا الانتصار بأن يدعي بأن بعض الجنود قد قتلوا وجرحوا في حادثة من حوادث الطرق. فإذا ما شك الناس بحقيقة الأمر تعذر عليهم التأكد من وجودنا في السبيرا وقيامنا بالقتال. ولكن هذا لا يعني إسقاط فكرة الاستيلاء على سيارة نقل عسكرية بصورة نهائية، بل تركها ليكون تنفيذها رهناً بالظروف والفرص، على أن لا تكون محور نشاطنا.

والآن، وبعد سنوات من هذه المناقشة التي حسمها آنذاك فيدل بقرار نهائي لم يقنعني، أرى من واجبي أن أعترف بأن تقديره كان صحيحاً، وأن عملاً منعزلاً ضد دورية آلية معادية لم يكن ليقدم لنا إلا القليل من الفوائد. وأننا كنا جميعاً في هذه الأثناء راغبين بالقتال لدرجة كانت تدفعنا إلى البحث عن الحلول والأعمال المباشرة متجاهلين ضرورات الصبر والانتظار. كما أنه لم يكن لدينا، في تلك الفترة من الصراع، بعد النظر الذي يقود فيدل إلى أهداف بعيدة.

ومهما يكن الأمر فقد كنا آنذاك ننهي آخر الإعدادات لمعركة أوفيرو.

اختيار ٢٨ أيار (مايو) ١٩٥٧ لتنفيذ معركة أوفيرو:

* ما إن تم اختيار نقطة الهجوم حتى واجهنا مهمة تحديد طريقة العمل بدقة. لقد كان علينا أن نجمع الكثير من المعلومات عن عدد الجنود وعدد مخافر الحراسة وطريقة الارتباط التي يستخدمها العدو وطرق تقدمه وموقف الأهالي المدنيين وأماكن وجودهم الخ... ولقد قدم لنا الرفيق كالديرو من أجل هذه الأمور مساعدة رائعة (وهو اليوم برتبة رائد في جيش الثوار). وكان على ما اعتقد صهر مدير مصنع نشر الأخشاب.

وكان لدينا ما يدفعنا للاعتقاد بأن الجيش يعرف قليلاً أو كثيراً عن وجودنا في القطاع ولقد أوقفنا في تلك الفترة جاسوسين يحملان وثائق تثبت تواطؤهما مع العدو فاعترفا بأن كاسيلاس (أرسلهما للاستعلام عن مكان معسكرنا ونقاط تجمعنا المعهودة) وكان منظرهما وهما يطلبان الرحمة والعفو مقززاً ومثيراً للشفقة في آن واحد. ولكننا لم نستطع في هذه الساعات العصيبة خرق قانون الحرب.. وتم إعدام الجاسوسين في اليوم التالي.

وفي نفس اليوم ٢٧ مايو (أيار) اجتمعت هيئة أركان الحرب كلها وأعلن فيدل في الاجتماع أننا سنشتبك بالقتال خلال ال ٤٨ ساعة القادمة وأن علينا أن نستعد للحركة وأن نكون على أتم استعداد للحرب. ولكنه لم يعطنا أية معلومات عن الهدف.

وكان كالديرو دليلنا بسبب معرفته المتينة لمخفر أوفيرو ومداخله والطرقات المؤدية إليه. وبدأنا المسير تحت جناح الليل ولمسافة بلغت ١٦ كيلومتراً على أرض منحدرة مستخدمين مسالك أعدتها في القطاع شركة بابون لنقل الأخشاب. وكان مسيرنا بطيئاً أوقفته سلسلة من تدابير الأمن والحيطة اللازمة وخاصة عند اقترابنا من منطقة الهدف الخطرة حيث استمر المسير ٨ ساعات. وفي نهاية المسير تلقينا أوامر الهجوم وكانت بسيطة: علينا أولاً احتلال مخافر الحراسة ثم الهجوم على المباني الخشبية التي يقطنها الجنود.

كان الدفاع عن الثكنة ضعيفاً نسبياً إذ تتألف المخافر من ٣ـ ٤ جنود متمركزين في أماكن استراتيجية على مشارف الثكنة حيث يشكلون نقاط

مقاومة متقدمة. وكان أمام الثكنة هضبة تشرف عليها وتصلح مركزاً لإدارة المعركة. وكانت الشجيرات القصيرة الكثيفة المحيطة بالمعسكر تسمح لنا بالتقدم إلى مسافة عدة أمتار من المبنى. ولقد تلقينا أوامر مشددة بتجنب الرمي على الدسكرة الصغيرة المجاورة للثكنة نظراً لاحتوائها على النساء والأطفال (ومنهم زوجة المدير التي كانت على علم باحتمال وقوع الهجوم ولكنها رفضت مغادرة المكان لتجنب إثارة الشكوك حولها مستقبلاً). وكنا أثناء تسللنا إلى قاعدة الانطلاق نفكر بعدم المساس بأي فرد من المدنيين.

إن موقع ثكنة أوفيرو على شاطئ البحر فرض علينا مهاجمتها من ثلاث جهات فقط ودفعنا نحو مخفر الحراسة المسيطر على طريق بيلاديرو (وهو مسلك جمارك استخدمنا جزءاً منه خلال تقدمنا) فصيلتي جورج سوتوس وغييرمو غارسيا. أما الميبدا فكان عليه أن يحتل برجاله المخفر الذي يجابه الجبل من ناحية الشمال. وتمركز فيدل على الهضبة المشرفة على حقل المعركة بينما تقدم راؤول مع فصيلته نحو الواجهة الرئيسية وكلفت مع رشاشي الخفيف وسدنته بموضع متوسط بين الثكنة ومقر القيادة. وكان على كاميلو وأميخرياس التقدم جبهياً بين المكان الذي التمركز فيه واتجاه راؤول ولكنهما أضاعا الاتجاه وسط الظلام. فلما وقع الاشتباك وجدتهما على يساري بدلاً من يميني. أما فصيلة كريسنسيو فكانت مهمتها احتلال الطريق الذي يخرج من أوفيرو متجهاً نحو ستيفيريكو وقطع الطريق على أية نجدات محتملة.

وكنا نعتقد أن العمل سيتم في وقت قصير جداً بفضل المفاجأة التي سنحققها، وفي هذا الوقت كانت الدقائق تمر ببطء وبدأت الصعاب تظهر عند وضع الرجال في مراكز انطلاقهم على غير ما كان متوقعاً وفق تقارير دليلينا (كالديرو واليجيو مندوزا دليل المنطقة) وكان النهار يقترب وخيوط الفجر تلوح ولم نكن قد أخذنا بعد المواضع اللازمة لمفاجأة الخفراء الأعداء كما كنا نوّد. وأعلمنا جورج سوتوس أنه لا يستطيع الرمي على الهدف المحدد له من منطقة وجوده ولكن فات الأوان الذي نستطيع فيه تحريك قطعته. ولما بدأ فيدل الرمي ببندقيته المزودة بمنظار تليسكوبي فتحنا النار

باتجاه الثكنة. وكنت شخصياً أتمركز في بقعة تسيطر تماماً على الثكنة ولكنها كانت بعيدة عنها نوعاً ما فتقدمت بحثاً عن موضع أقرب للرمي.

وتقدم الجميع واندفع الميبدا نحو المخفر الذي كان يدافع عن الثكنة من جهته. وكنت ألاحظ على يساري قبعة كاميلو التي تتدلى منها قطعة قماش تغطي عنقه بشكل يشبه قبعات الفرقة الأجنبية الفرنسية ولكن عليها شعار (الحركة). وكان تقدمنا وسط الرمايات العارمة مشفوعاً بالحذر الكبير الذي يتطلبه هذا النوع من القتال.

أضفنا إلى جماعتنا مفرزة صغيرة من المقاتلين أضاعت وحداتها الأصلية وتضم رفيقاً من بيلون ندعوه «قنبلة» والرفيقين ماريو ليال وأكونا فشكلنا جميعاً مجموعة قتالية صغيرة ولكن المقاومة كانت شديدة ووصلنا إلى المنطقة السهلة المكشوفة التي يحتاج التقدم فيها إلى اتخاذ جميع تدابير الحذر نظراً لدقة رمايات العدو وغزارتها. وشاهدت من موضعي الذي يبعد ٥٠ـ ٦٠ متراً عن المخفر الأمامي المعادي جنديين يخرجان من الخندق المحفور أمام المخفر ويهربان بسرعة فائقة، فأطلقت عليهما النار. ولكنهما دلفا إلى مساكن الدسكرة التي حرمت الأوامر الرمي عليها. وتابع الجميع التقدم ولم يكن أمامنا سوى بقعة جرداء ليس فيها أثر أعشاب نختبئ وسطها. وكان الرصاص يحيط بنا من كل جانب. وفي هذه اللحظة جذب انتباهي أنين وصراخ وسط هدير المعركة وظننت أنها صادرة عن أحد جرحى الأعداء فبدأت الزحف باتجاه الصوت آمراً صاحبه بالاستسلام. لكنني فوجئت بأن الجريح كان الرفيق ليال المصاب برأسه. ففحصت جرحه بسرعة ووجدت أن رصاصة اخترقت طرف صدغه. وبدأت الغيبوبة تنتابه كما بدأ الشلل يزحف إلى نصف جسمه (وأنا لا أذكر الجهة المشلولة هل كانت اليسرى أم اليمنى..) فضمدت جراحه بالإمكانيات القليلة التي أحملها وتطوع خويل إيجليساس بنقل ليال إلى الخلف بينما كنا نتابع الهجوم. وبعد قليل سقط أكونا جريحاً وبدون أن نتقدم كنا نتابع الرمي أمامنا على خندق مجهز جيداً. وكان شاغلوه يصبون نيرانهم علينا. وكنا نجمع أطراف شجاعتنا لننقض على هذا الخندق كآخر وسيلة لتحطيم مقاومته ولكن الثكنة استسلمت قبل قيامنا بذلك.

إن هذا الوصف لم يستغرق مني سوى دقائق عدة، لكن المعركة دامت قرابة ساعتين و٤٥ دقيقة منذ الطلقة الأولى وحتى لحظة استسلام الثكنة واستيلائنا عليها. ولقد تم الاستسلام عندما انطلق من يساري اثنان أو ثلاثة من المقدمة ومنهم فيكتور مورا وأخذوا ينقضون على الأعداء الذين رفضوا الاستسلام، عندها خرج من الخندق الأمامي جندي يشير إلينا برغبته في الاستسلام. ثم تتابعت من كل الجهات صرخات الاستسلام واندفعنا إلى الثكنة التي كانت تنطلق فيها طلقات متفرقة أصابت إحداها رفيقنا الملازم نانو دياز، فأودت بحياته.

ثم انطلقنا إلى الدسكرة الصغيرة وأسرنا الجنديين اللذين هربا إليها أثناء المعركة ومعهما طبيب الثكنة ومساعده. وكان هذا الطبيب ناضجاً هادئ الأعصاب ولست أدري ماذا حل به بعد ذلك، هل التحق بالثورة أم لا؟ المهم أن حديثي معه كان غريباً. إن معلوماتي الطبية لم تكن آنذاك غزيرة وكان لدينا عدد كبير من الجرحى بالإضافة إلى أنني في هذه الأثناء لم أكن مكلفاً بالاعتناء بالصحة العامة. ومن أجل كل هذه الأسباب كنت أود تكليف هذا الطبيب العسكري بالجرحى. عندها سألني عن سني وعن كل شيء منذ تخرجي من كلية الطب. فأعلمته أن الأمر يعود إلى سنوات فقال بكل صراحة: إذن يا صغيري عليك أن تهتم بكل هذا لأنني حديث التخرج وخبرتي العملية أقل من محدودة.. هذا الرجل المسكين بخبرته القليلة والخوف الذي سيطر عليه كأسير نسي آخر كلمة تعلمها عن الطب. عندئذ اضطررت مرة أخرى إلى استبدال البندقية بملابس الطبيب (وليس المقصود هنا ملابس الطبيب الحقيقية. لأنني لم أفعل لانتقل من مهمة الجندي إلى مهمة الطبيب سوى تنظيف يديّ جيداً).

وكانت هذه المعركة من أكثر معاركنا ضراوة. وقد سمحت شهادات الرفاق بإعادة وصف تفاصيلها وسرد تسلسل أحداثها وإعطائها صورة أكثر عمومية وشمولاً من الصورة التي رسمتها حتى الآن معتمداً على مشاركتي الشخصية فيها. ودارت المعركة بصورة عامة كما يلي: أعطى فيدل أمر إطلاق النار عندما بدأ بالرمي فتقدم الجميع نحو الأهداف المحددة سابقاً.

ورد العدو بنيران حامية اتجهت بصورة خاصة نحو المرتفع الذي كان قائدنا يقود العمليات منه. وبعد بدء العمليات ببضع دقائق سقط خوليتو دياز قرب فيدل قتيلاً بعد أن اخترقت رأسه رصاصة. ومرت الدقائق والمقاومة مستمرة بعنف. ولاح لنا أن الوصول للأهداف مستحيل. وكان الميبدا يتولى أصعب المهمات في المركز حيث كلف بتطهير المخفر مهما كلّف الأمر بغية فتح الطريق أمام رجال راؤول المتقدمين من الجبهة نحو الثكنة.

وتحدث الرفاق فيما بعد عن الطريقة التي قاتل بها اليجيو مندوزا عندما أخذ بندقيته واندفع إلى المعركة. فهو رجل يؤمن بالخرافات ويحمل «أيقونة» تحميه وعندما صرخ به أحدهم بأن يأخذ حذره أجابه باستخفاف أن القديس «يحميه من كل شيء» وبعد عدة دقائق سقط وقد اخترقته رصاصة مزقت جذعه تمزيقاً تاماً. . .

وصدت قوات العدو المتمركزة في الخنادق هجومنا بجدارة وكبدتنا بعض الخسائر. ولم يكن هناك مجال للتقدم عملياً من الاتجاه الأوسط. أما في قطاع طريق بيلاديرو فقد حاول جورج سوتوس الالتفاف جانبياً على الموقع المعادي وبرفقته مساعده يطلق عليه لقب (الشرطي) ولكن هذا الآخر قتل فوراً واضطر جورج إلى القاء نفسه في البحر للتخلص من موت محقق فخرج بذلك عملياً من المعركة. وحاول بعض أفراد فصيلته التقدم ولكن قوات العدو أوقفت تقدمهم، وسقط في هذه الأثناء رفيق من أصل ريفي اسمه فيجا وأصيب مانالس في رئته أما كويك فقد جرح في ثلاثة أماكن في ذراعه ويده ومؤخرته وهو يحاول التقدم. وتابع جنود العدو المتمركزون وراء جذع شجرة المقاومة برشاشاتهم الخفيفة وبنادقهم نصف الآلية وأوقعوا بمفرزتنا الصغيرة بعض الخسائر.

وأعطى الميبدا الأمر بالانقضاض النهائي لتدمير العدو الذي يجابهه وأثناء ذلك جرح سبيروس ماسبو وهرمز ليفاوبينا. كما جرح الميبدا نفسه في كتفه وساقه اليسرى. وسقط الرفيق مول شهيداً ومع هذا أدى الانقضاض البائس إلى احتلال المخفر وانفتح بذلك الطريق إلى الثكنة. وفي الجبهة

الأخرى أمطر غييرمو غارسيا المعسكر برمايات محكمة من مسدسه الرشاش فقتل ثلاثة من جنود الأعداء أما الرابع فقد فرّ هارباً ولكنه أصيب أثناء هروبه فسقط قتيلاً أيضاً.

وقسم راؤول فصيلته إلى قسمين انقض بهما على الثكنة. ولقد كان لأعمال النقيبين غييرمو غارسيا والمييدا تأثير حاسم على مصير المعركة إذ استطاع كل واحد منهما تطهير المخفر المكلف به وتسهيل الانقضاض النهائي باتجاه الثكنة. ويجب أن ننوه هنا بموقف لويس كريسبو الذي ترك مركز القيادة ليشترك مع غييرمو في الانقضاض.

وارتفعت من الثكنة راية بيضاء بعد أن خفتت المقاومة. ولكن عندما أشرفنا على احتلالها خرجت من صفوفنا طلقة أجابت الثكنة عليها برشة أصابت نانو دياز برأسه فأردته قتيلاً. وكان قد أبلى في المعركة بلاء حسنا وحصد الأعداء بمسدسه الرشاش أثناء القتال حصداً.

أما فصيلة كريسنسيو فلم تدخل المعركة بصورة فعالة بسبب تعطل رشاشه فاكتفى بأن بقي يراقب الطريق القادم من سيفيريكو معترضاً الجنود الهاربين. وقد استمرت المعركة ساعتين و٤٥ دقيقة لم تقع خلالهما أية إصابة في صفوف المدنيين رغم أن الرمايات كانت كثيفة وفي كل الاتجاهات. وعند إحصاء الخسائر والمغانم وضح لنا ما يلي: خسرنا ستة من رفاقنا وهم نانو دياز ومول، وفيجاو «الشرطي»، وخوليتو دياز واليجيو مندوزا. أما ليال وسيبروس فكانا مصابين جراحاً خطيرة بالإضافة إلى آخرين أصيبوا بجراح مختلفة وهم ماسيو وأصيب في كتفه، وهرمزليفا بصدره. والمييدا بذراعه وفخذه الأيسر، وكويك أسكالونا بذراعه ويده اليمنى. أما مانالس فقد أصيبت رئته بطلقة ولكن بدون أعراض خطيرة. كما أصيب كل من بينا في ركبته ومانويل أكونا في ذراعه الأيمن وكان مجموع الجرحى ٦ وهكذا بلغ مجموع الخارجين من القتال بعد هذه المعركة ١٥ رفيقاً. أما خسائر العدو فكانت ١٩ جريحاً و١٤ قتيلاً و١٤ أسيراً وفرَّ ٦ جنود وكان مجموعهم ٥٣ جندياً يقودهم ملازم ثان خرج رافعاً العلم الأبيض بعد أن جرح.

فإذا أخذنا بعين الاعتبار أن عددنا كان حوالي ٨٠ مقاتلاً والأعداء ٥٣ أي أن المجموع ١٣٣ مقاتلاً وجدنا أن ٣٨ منهم باتوا خارج المعركة أي أن الخسائر كانت فادحة قاربت ربع عدد المشتركين في قتال دام ساعتين و٤٥ دقيقة. وقد هاجم رجالنا المعسكر بصدور مفتوحة ووجدوا أمامهم آخرين متمركزين يدافعون بلا حماية كبيرة ويجب أن نعترف بظهور بطولات رائعة بين صفوفنا وصفوف الأعداء على السواء. وكان هذا الانتصار بالنسبة لنا حاسماً أدخل ثورتنا في دور النضج ورفع معنوياتنا بشكل كبير وأصبح تصميمنا على النصر أقوى من أي وقت مضى. وتجسد أملنا بالانتصار النهائي بصورة أكبر. ورغم أن الأشهر التالية جاءتنا بتجارب قاسية مريعة فإننا كنا نملك منذ هذه المعركة سر الانتصار على العدو. ودقت هذه المعركة ناقوس الموت بالنسبة للثكنات الصغيرة المعادية البعيدة عن المراكز الكبيرة فتفتّتت بعد فترة وجيزة.

ولقد تعطل الاتصال الهاتفي مع سانتياغو بعد أن تحطم جهاز الهاتف منذ الطلقة الأولى للمعركة. ثم حلقت طائرة معادية مرة أو مرتين فوق أرض المعركة ومضت. وبعد عدة ساعات حلقت طائرات أخرى فوق المنطقة ولكن بعد أن انسحبنا إلى جبالنا. ولإعطاء فكرة عن تركيز نيراننا يكفي أن نذكر أننا قتلنا بالإضافة إلى الجنود ٣ أو ٥ ببغاوات كان الجنود يربونها في الثكنة. وعندما نتخيل حجم هذه الطيور الصغيرة نستطيع تكوين فكرة عما أصاب هذا المبنى الخشبي من رصاص.

وسببت لي العودة إلى مهنة الطبيب بعض الانفعال والاضطراب إذ بدأت بالاهتمام بالرفيق سبيروس نظراً لخطورة جراحه. فقد حطمت إحدى الطلقات ذراعه الأيمن ثم اخترقت رئته لتستقر كما يبدو في العمود الفقري شالة أطرافه السفلى. وكانت حالته ميؤوساً منها وكل ما كنت أستطيع عمله هو إعطاءه مسكناً وربط صدره بشدة حتى يتنفس بشكل أفضل. ولم يكن نقله معنا ممكناً. وكان من الضروري أن نتركه مع ليال بين أيدي العدو وتحت إشراف طبيب الثكنة العسكري لأن هذا هو السبيل الوحيد للحفاظ على حياته. وعندما أعلمت رفيقنا الجريح سبيروس بهذا القرار مقروناً ببعض

كلمات التشجيع ردّ علي بابتسامة حزينة معبرة أكثر من أي حديث عن إيمانه بأن كل شيء بالنسبة إليه قد انتهى. وكنا نعلم ذلك بدورنا ورأيتني مدفوعاً برغبة ملحة لأن أطبع على جبينه قبلة الوداع. لكن هذه القبلة مني شخصياً كطبيب كانت تعني الحكم بالموت على رفيقنا فلم أقبله. لقد منعني الواجب من أن أضيف إلى مرارة لحظاته الأخيرة مرارة أخرى بحركة تؤكد له ما كان يتوقعه. . وانصرفت مسحوقاً من الألم مع كل المشاعر التي أكنها لهذين الرفيقين اللذين نتركهما بين أيدي الأعداء رغم أنهما أعلنا تفضيلهما الموت بين ظهرانينا، لكن كان علينا أن نفعل المستحيل حتى تبقى حياتهما سليمة. فبقيا هناك مع رفاقهما في الآلام الـ١٩ جريحاً من جنود العدو بعد أن عالجناهم مستخدمين جميع التعلميات الصحية التي سمحت بها إمكانياتنا. ولقد اعتنى العدو فيما بعد برفيقينا ولكن سبيروس لم يصل حياً إلى سانتياغو. أما ليال فقد عاش رغم خطورة حرجه وأرسل إلى جزيرة الصنوبر وبقي فيها سجيناً حتى نهاية الحرب. وهو لا يزال حتى اليوم يحمل الآثار العميقة لهذه المغامرة الهامة في حربنا الثورية.

وبعد أن كدّسنا فوق إحدى سيارات بابون أكبر كمية ممكنة من الحاجيات المتنوعة (وخاصة الأدوية) غادرنا الثكنة متجهين إلى مخابئنا الجبلية حيث وصلناها في الوقت الملائم لنعتني بجرحانا ونودع شهداءنا الوداع الأخير قبل أن ندفنهم عند أحد منعطفات الطريق. وبما أننا كنا نتوقع أن تكون عمليات القمع حامية جداً فقد تقرر أن يبتعد رفاقنا الأصحاء مسافة كبيرة وبسرعة عن الأعداء على أن يبقى الجرحى معي وتحت إشرافي. وكان على أتريك لوبيز أن يجد لي طريقة لنقلهم إلى المخبأ وأن يجمع لي بعض المساعدين لنقل الجرحى وتأمين الاتصالات اللازمة للحصول على الأدوية والاعتناء برفاقنا على أحسن وجه.

وطلع الفجر ونحن نتحدث عن تفاصيل المعركة. ولم ينم في تلك الليلة أحد تقريباً واسترق بعضهم إغفاءة قصيرة عادوا بعدها إلى مشاركة الجماعة. فتحدث كل منهم عن دوره وعن الأعمال التي شاهدها أثناء المعركة. ولقد قمت بدافع من حب الاطلاع بتسجيل عدد الأعداء الذين

قتلهم كل متحدث خلال المعركة فكان عدد القتلى يزيد كثيراً عن مجموع عدد الجنود الأعداء، فقد زخرف كل واحد أعماله حسبما أوحى إليه خياله. وفي هذه المناسبة وفي مناسبات أخرى مشابهة تبين لنا أن كل قضية يجب أن توصف من قبل عدة شهود لتظهر واضحة ومعروفة بكاملها، ووصلنا إلى ضرورة البحث عن إثبات يؤكد مقتل كل جندي معاد قبل أن نضمه إلى خسائر الأعداء. والحقيقة أن البحث عن المعلومات الأكيدة كان دائماً الشغل الشاغل لجيش الثوّار وكان من الضروري دائماً حث الرفاق على الإيمان بضرورة الاحترام المطلق للحقيقة، وإفهامهم أن عليهم وضع الحقيقة فوق الاعتبارات الشخصية.

وفي الصباح رحلت قواتنا المنتصرة بعد وداع حزين مؤثر بينما بقي معي بعض المساعدين وهم خويل إيجليسياس وأونانا وسينيسيو توريس بالإضافة إلى فيلواكونا الذي أصر على البقاء إلى جانب عمه الجريح.

وغداة معركة أوفيرو، ومنذ الفجر كانت الطائرات تحلق في السماء. فبعد أن ودعنا قوتنا التي تابعت سيرها بدأنا نزيل كل أثر يرشد إلى مكان دخولنا في الغابة. وتمركزنا على بعد بضع مئات من الامتار فقط من طريق سالك. وكنا ننتظر عودة أتريك لوبيز الذي وعد بمساعدتنا على إيجاد ملجأ ننقل إليه الجرحى.

ومن بين الجرحى كان الميدا، وبقينا عاجزين عن المسير. أما كويك أسكالونا فلم يكن كسابق عهده مليئاً بالحيوية ومنع مانالس من المسير بسبب رئته. ولم يكن قادراً على المسير سوى كل من مانويل أكونا وهرمز ليفا وماسيو. وكان لدينا للدفاع عن هؤلاء الجرحى والاعتناء بهم ونقلهم هذه المفرزة الصغيرة من الرجال المنهكين: فيلو كونا وسينيسيو توريس وخويل إيجليسياس وأليخاندرو أونات وأنا. وفي الصباح جاء رجل وأعلمنا أن اتريك لوبيز لن يستطيع الحضور لمساعدتنا لأن أحد أطفاله أصيب بمرض اضطره للذهاب إلى سانتياغو لرؤيته. ووعد بإرسال متطوعين لمساعدتنا. وبتنا ننتظر هؤلاء المتطوعين الذين لم يصلوا حتى ذلك الوقت.

وكنا في وقت سيِّئ وكانت جراح كويك أسكالونا ملتهبة وكان من الصعب جدا تحديد درجة خطورة جراح مانالس بدقة. وكنا نسير على الطرقات الخطرة دون أن نقابل جنود الأعداء فقررنا نقل الجرحى إلى مسافة ٣ أو ٤ كم ووضعهم في «بوهيو» هجره أصحابه بعد أن تركوا فيه خم دجاج كبير.

وفي اليوم الأول ساعدنا عاملان من عمال نشر الخشب مساعدة جدية. ولم تكن مهمة السير مع هؤلاء الرجال الجرحى سهلة وسط الدساكر. وفي صبيحة اليوم التالي ملأنا معداتنا بوجبة دجاج كبيرة. ثم تركنا المكان بسرعة بعد أن تلكأنا كثيرا قرب طريق يحتمل أن يسير عليه الأعداء. ولما وصلنا إلى نهاية أحد هذه الطرقات التي شقتها شركة بابون لاستغلال الغابات اضطلع رجالنا القلائل المشوهون بمهمة صغيرة ولكنها صعبة. وهو عبارة عن النزول نحو مسيل ماء صغير يسمى (انديو) ثم الصعود مرة أخرى عبر مسلك ضيق نحو «بوهيو» حيث يعيش فلاح اسمه اسرايل وزوجته واخيها. ولقد كان نقل الرفاق صعبا في منطقة وعرة كهذه ومع هذا تم الانتقال وأعطانا الفلاحون كل شيء لديهم ومنحونا بالإضافة إلى ذلك سرير العائلة لينام عليه الجرحى.

وفي منطقة تعسكرنا الأولى اخفينا قسماً من الأسلحة التي كانت في حالة سيئة والتي لم نستطع حملها معنا. كما أننا كنا نترك بعض الأجهزة والأعتدة الحربية الصغيرة كلما تزايد إحساسنا أثناء سيرنا بنقل الجرحى. وكنا نشعر بأننا مهملون وأننا نترك باستمرار بعض الآثار التي تدل على مرورنا في الأكواخ. فقررت، طالما لدينا بعض الوقت، الذهاب لإعادة تفتيش آخر موضع توقفنا فيه واخفاء كل الآثار لنضمن أمننا وسلامتنا. كما ذهب سينيسيو في الوقت نفسه لإحضار بعض معارفه في قطاع بيلاديرو.

وبعد ذلك بمدة أخطرنا أكونا وخويل ايجيلسياس بأنهما سمعا أصواتاً غريبة على المنحدر الآخر فأحسسنا بأن ساعة القتال حتى الموت قد أزفت رغم الظروف غير الملائمة وذلك للدفاع عن مجموعة من الجرحى الأعزاء

الذين انيطت بنا مهمة حمايتهم. فتقدمنا بحيث نجعل الاشتباك يدور بعيداً بقدر الإمكان عن «البوهيو». وعلى المدق الترابي رأينا آثار أقدام حافية «وكان ذلك غريباً» مما يدل على أن هؤلاء الأشخاص الدخلاء قد مروا من هنا. فاتخذنا كل تدابير الحيطة ثم تقدمنا ببطء وفي أثناء ذلك سمعنا عدة أصوات تتكلم بلهجة بذيئة فجهزت مسدسي الرشاش، واندفعت لأفاجئ المتحدثين معتمداً على حماية ودعم فيلو وخويل، ولم يكن المتحدثون سوى أسرى أوفيرو الذين أطلق فيدل سراحهم وتركهم يجولون على غير هدى ليخرجوا من القطاع. وكان بعضهم يسير حافياً وبينهم عريف عجوز يكاد يغمى عليه بسبب إصابته بالربو. ولقد شرح لي هذا العجوز بصوت متقطع إعجابه بنا وبمعرفتنا بالغابة. وكانوا يسيرون بلا دليل ويحملون إذناً خاصاً موقعاً من فيدل. عندئذ نصحناهم بعدم الدخول إلى الغابة بلا سبب وبأن ينفذوا هذا التحذير بكل دقة. لقد كانوا من سكان المدن الذين لم يعتادوا حياة الجبال وتحمل مشاقها. وبعد أن أرشدناهم إلى طريق الوصول إلى الشاطئ أكدنا لهم للمرة الثانية أننا نسيطر سيطرة مطلقة على المنطقة الواقعة من أول الغابة حتى أعماقها. كما أن دورياتنا (وكنا نبدو وكأننا مجرد دورية صغيرة) مكلفة بإنذار قواتنا بسرعة عند ظهور أي عدو. وما أن انتهينا منهم حتى وجدنا أن من دواعي الحذر الابتعاد بسرعة.

وقضينا هذه الليلة في «بوهيو» الفلاّح الكريم ولكن ما أن بزغ الفجر حتى عدنا إلى الغابة بعد أن رجونا صاحب الكوخ وزوجته أن يذهبا لإحضار بعض الدجاج من الكوخ لإطعام الجرحى. ولبثنا طوال النهار ننتظر عودتهما بدون جدوى. ثم علمنا فيما بعد بأنه قبض عليهما في خم الدجاج. إذ أن الجنود مروا في اليوم التالي لرحيلنا بالمكان الذي بتنا فيه فأوقفوهما وأجبروهما على العمل معهم كدليلين.

وبقينا في حالة التأهب وإن كان يبدو لنا عدم احتمال وقوع هجوم مفاجئ ذلك لأن هجوماً كهذا يعني تدميرنا. وعند الغروب عاد سينيسيو ومعه ٣ متطوعين أحدهم عجوز يدعي فيليسيانو واثنان آخران التحقا بعد ذلك بجيش الثوار وهما بانديراس (ووصل إلى رتبة ملازم وقتل في معركة خيجي) واسرايل

باردو (الولد البكر لعائلة كبيرة من المقاتلين وهو الآن برتبة نقيب). وساعدنا هؤلاء الرفاق على نقل الجرحى بسرعة إلى «بوهيو» يقع في الطرف الآخر من المنطقة الخطرة وبقيت مع سينيسيو حتى هبوط الظلام ننتظر وصول الزوجين (ولكنهما لم يرجعا بسبب أسرهما) فتوجسنا من الخيانة واضطررنا إلى إخلاء المكان في اليوم التالي. وتناولنا عشاء متواضعاً مما وجدناه من طعام بجوار «البوهيو». وفي اليوم التالي - وكان قد مر على نزولنا من «غرانما» ٦ أشهر - بدأنا المسير مع ظهور النهار. وكان السير مؤلماً وقصيراً لدرجة غير معقولة بالنسبة لمن اعتاد اجتياز الجبال. وكنا نحمل الجرحى في محفة محمولة على غصن غليظ يعقر اكتاف الحاملين الذين لم يكونوا يستطيعون الاستمرار في الحمل أكثر من ١٠ أو ١٥ دقيقة لأن حمل جريح واحد بحاجة إلى ٦ـ ٨ رجال يتناوبون العمل باستمرار. وفي خلال هذه الظروف كنت أتقدم مع الميبدا من شجرة إلى أخرى وكان، يعتمد علي تارة ويجر نفسه تارة أخرى. وتولى اسرايل فتح مسلك لنا وسط الغابة ثم جاء الحمالون واهتموا برفيقنا وبعد ذلك هطل مطر غزير منعنا من الوصول إلى بيت عائلة يبدو فلم نصل إليه في النهاية إلا مع حلول الظلام. واستغرقنا في اجتياز هذه المسافة القصيرة من الطريق مدة ٢١ ساعة بمعدل ١كم كل ٣ ساعات.

وخلال كل هذه المرحلة كان سينيسيو مبعوث العناية الإلهية لجماعتنا الصغيرة. فقد كان يعرف مسالك المنطقة وسكانها. ويقدم لنا المساعدة في كل الأوقات وبفضله استطعنا بعد يومين إرسال ماتالس إلى سانتياغو وكان من الضروري أيضاً تنظيم سفر كويك أسكالونا بسبب حالته الصحية السيئة.

وفي أحد هذه الأيام وجدنا أنفسنا وسط سيل من الأخبار المتناقضة. فقد قيل لنا إن سيليا أسيرة. كما قيل إنها قتلت. ومن جهة أخرى نقل إلينا أحدهم أن مفرزة من الجيش أسرت رفيقنا هرمز كالديرو. ولم نكن ندري ماذا نصدق وماذا نكذب من هذه الإشاعات. وكانت سيليا ارتباطنا الوحيد الموثوق به وأن توقيفها معناه انعزالنا تماماً. . ومن حسن الحظ أن الإشاعة حولها كانت كاذبة. أما بالنسبة لهرمز كالديرو فكانت أخبار إيقافه صحيحة ولقد خرج حياً من أقبية التعذيب الرهيبة بأعجوبة.

وعلى ضفاف نهر بيلا ديرو كان يعيش المشرف الزراعي لإحدى المزارع ويدعى دافيد وكان هذا المشرف يتعاون معنا جيداً. ولقد ذبح لنا بقرة وكان علينا أن نذهب لاستلامها بعد أن تم سلخها وتقطيعها عند ضفة النهر على أن يتم نقلها ليلاً. فأرسلت مفرزة بإمرة اسرايل باردو وثم اتبعتها بأخرى بإمرة بانديراس الذي كان من أعداء التمسك بالانضباط، فلم ينفذ مهمته، وترك للآخرين مهمة حمل كل قطع اللحم بينما ظل مختفياً لا نعرف له مكاناً لليلة كاملة. ودفعني شعوري بالمسؤولية تجاه هذه الجماعة الموجودة تحت إمرتي (طالما أعجزت الجراح الميبدا عن القيادة) بأن أقول لبانديراس بعد أن تم العثور عليه بأنه إما أن يغير من تصرفاته أو يترك مهمة المقاتل ويبقى بعيداً عنا في صفوف المؤيدين.. فقام ببذل جهد كبير لإصلاح نفسه ولكنه لم يصبح أبداً مثلاً يحتذى به بالنسبة للانضباط. إلا أنه كان يتمتع رغم ذلك بصفات أخرى آسرة. فقد كان ذهنه متفتحاً كما كان بسيطاً وساذجاً ويمكن اعتباره من الرجال الذين جعلتهم صدمة الثورة يرون الحقيقة بشكل أفضل. لقد كان يزرع أرضه الصغيرة المنتزعة من بطن الجبل ويحس بحب حقيقي للأشجار والمزروعات. وكان يعيش في «بوهيو» حقير مع كلب وخنزيرين صغيرين كلاهما يحمل اسمه. وفي أحد الأيام أراني صورة ولديه اللذين يعيشان مع زوجته التي انفصل عنها - في سانتياغو وأكدّ لي أنه بعد انتصار الثورة سيترك هذه الأرض الشحيحة المعلقة على سفح الجبل ويبحث عن عمل ملائم.

وحدثته عن التعاونيات ولكنه لم يفهمني جيداً. وكان كل مناه أن يعمل بالأرض لحسابه الخاص وبعرق جبينه. ولكن فكرة ضرورة العمل بالأرض بصورة جماعية وفكرة استخدام الآلات لزيادة دخله وجدت بالتدريج هوى في نفسه. ولو أن بانديراس بقي حياً حتى نهاية الثورة لأصبح اليوم من رواد الانتاج الزراعي. ففي السبيرا حسّن معلوماته بالقراءة والكتابة، وكان يستعد للمستقبل. لقد كان فلاحاً متفتحاً يحس بأن المشاركة بالجهد الشخصي لتسطير صفحات من تاريخ البلاد عمل نبيل وشجاع.

وتحدثت في هذه الفترة مع المشرف الزراعي دافيد الذي طلب مني

لائحة باحتياجاتنا وكان يستعد للسفر إلى سانتياغو ويرغب في استغلال هذه الفرصة ليزودنا بما نريد. لقد كان مشرفاً مثالياً، مخلصاً لسادته ينظر إلى الفلاحين نظرة استعلاء طبقية. ومع هذا أسرته قوات الجيش عندما عرفت علاقته بنا وسامته سوء العذاب. وأول عمل قام به عندما ظهر ثانية بعد إطلاق سراحه، وكنا نظن أنه مات، هو إعلامنا بأنه لم يتكلم أبداً. ولا أعرف ما إذا كان اليوم في كوبا أو أنه تبع سادته القدماء الذين رحلوا إلى الخارج بعد أن جردتهم الثورة من أراضيهم. لقد شعر هذا الرجل بضرورة إجراء تغيير ما دون أن يتصور أن هذا التغيير سيصيبه وسيصيب عالمه الخاص المحيط به. ومع هذا لاحظ الأهمية الكبرى لتغيير الأمور.

إن البناء الثوري يتم بجهود جماهير الشعب المخلصة وكانت مهمتنا كطلائع ثورية هي أن ننمي ما في كل فرد من هذا الشعب من زوايا نبيلة. وتحويل كل مواطن إلى ثائر. لقد انتصرت ثورتنا بدافيد الذي لم يكن يعي الأمور جيداً، وببانديراس الذي سقط قبل أن يرى فجر النصر، وبتضحيات جليلة قام بها أشخاص مجهولون. إننا نستطيع اليوم أن نرى ما حققته الثورة ولكن لا يسعنا إلا أن نفكر بالذين سقطوا على دروب النضال وأن نعمل حتى يقل عددهم في المستقبل.

ليديا الثائرة.

* لقد كان عمر الثورة ستة أشهر عندما تعرفت بليديا. وكنت آنذاك قد عينت منذ مدة قريبة قائداً للرتل الرابع. وعرفتها بمناسبة نزلة من النزلات الصاعقة التي كنا نترك بها الغابة ونذهب إلى السفوح بحثاً عن المؤونة. وكنا قد اخترنا في هذه المرة قرية «سان باولو دوياؤو» الواقعة قرب بinformally بايامو على سفوح سبيرا مايسترا. وكان أحد المنازل المتطرفة في القرية ملكاً لعائلة من الخبازين ومنهم ليديا. ومنذ اللحظة الأولى اندفعت هذه المرأة ذات الـ ٤٥ عاماً والتي كان ابنها الوحيد في رتلنا، قلباً وقالباً وبكل حماس وإقدام مثاليين، لخدمة الثورة.

إنني أكن لهذه المرأة المثالية أكثر من الحب والاحترام ولقد تعلقت بي بصورة خاصة وكانت تفضل العمل تحت إمرتي مهما كانت المهمة المناطة بي. ولا أستطيع إحصاء المرات التي عملت فيها ليديا كمبعوث خاص من قبلي أو من قبل الحركة من سانتياغو دو كوبا إلى هافانا. وكانت تنقل أكثر الأوراق سرية وكل مذكرات واتصالات رتلنا. كما كانت تنقل أعداد صحيفة «الكوبي الحر».. الخ وتحضر لنا الأوراق والأدوية وكل ما كنا نضطر إليه أو نحتاجه..

وكانت جريئة لدرجة تجعل بقية المراسلين يتحاشون مرافقتها. وإنني لأذكر أقوال أحد المراسلين التي يختلط فيها الإعجاب باللوم، لقد قال لي: «إن هذه المرأة تملك من الصفات أكثر من اللازم ولكنها ستودي بنا جميعاً إلى التهلكة. إنها تتصرف بشكل لا يتصرفه إلا مجنون حتى ليظن المرء أنها تتسلى..» ولكن ليديا كانت تتابع عملها ثابتة الجنان وتجتاز خطوط العدو إلى ما لا نهاية.

ثم نقلت ليديا إلى منطقة ميناديل غريو في لاس فيجاس دوجبياكوا، وكان ذلك كافياً لأن تترك المعسكر الإضافي الذي قادته خلال فترة من الزمن وتترك الرجال الذين قادتهم بكل حزم وعنف يشوبهما شيء من الظلم الذي كان يثير امتعاض الكوبيين الذين لم يعتادوا العمل بإمرة امرأة. وكان المركز الذي تقوده أكثر المراكز تقدماً نحو العدو مراراً فاضطر رجالنا في كل مرة لأن يفتحوا الطريق بطلقات بنادقهم. ولما حاولت سحب ليديا من هذا القطاع نهائياً رفضت ثم ربطت موافقتها بالسير معي نحو جبهة القتال الجديدة.

وإنني لأذكر قصة تجلل بالفخار شخصية ليديا: كان ذلك في يوم قتل فيه أحد رجالنا وكان فتى يافعاً يدعى جيلين التحق بمركزنا الأمامي في الوقت الذي كانت ليديا موجودة فيه. وبينما كانت ليديا عائدة من مهمة وأثناء تقدمها نحو المعسكر رأت جنود العدو يتسللون إليه ـ ولا شك أن ذلك نتيجة وشاية جاسوس ما ـ وكان رد فعل ليديا مباشراً إذ إنها شهرت

مسدسها الصغير عيار ٣٢ لتنذر الحارس بإطلاق طلقتين في الهواء. ولكن يداً صديقة حذرة منعتها في الوقت المناسب لأن عملاً كهذا كان سيكلف جميع مرافقيها حياتهم، وتابع الجنود تقدمهم حتى فاجأ بعضهم حارس المعسكر غييرمو جيلين الذي ظل يقاومهم بشدة حتى أصيب بجرحين ثم انتحر ليَدْفَعَ عن نفسه المصير الأليم الذي ينتظره إذا ما وقع في أسرهم. ولقد قابلت ليديا في اليوم التالي وقد كسا سحنتها ألم عميق بتأثير موت المقاتل الصغير. وامتزج هذا الألم بالاحتقار الشديد للرجل الذي حال بينها وبين إنذار جيلين المسكين وسمعتها تقول: «لقد كانوا سيقتلونني، ولكن لا بأس إن كان في ذلك انقاذاً لحياة الفتى. إنني الآن عجوز أما هو فلم يكن قد تجاوز العشرين ربيعاً». ودار حديثها كله حول هذا الموضوع. فهل كان في هذا الاستخفاف بالموت الذي يلوح من كلماتها شيء من التبجح؟ على كل حال لقد نفذت دائماً كل مهماتها التي كلفت بها بكل شجاعة وتهور.

وكانت تعرف حبي للكلاب وتعدني بأنها ستحضر لي معها كلباً من هافانا.. وكان هذا وعداً يصعب تحقيقه ولكنها حققته في أيام الهجوم المعادي العنيف. . وكانت تذهب وتعود بين السبيرا والسهل حاملة معها وثائق بالغة الأهمية، ومؤمنة اتصالنا مع العالم الخارجي. وكان مع ليديا رفيقة لها من نفس معدنها ترافقها في ارتياد المخاطر، وكان جميع رفاق جيش الثورة يعرفونها ويدعونها كلودوميرا. حتى أصبحت الرفيقتان شخصاً واحداً لا ينفصم في الأخطار وكانتا تسيران هناوهناك معاً باستمرار.

تلقت ليديا فور وصولي إلى لاس فيللاس بعد عملية الاجتياح أمراً بالاتصال بي. وكان عليها أن تلعب دور صلة الوصل بين هافانا والقيادة العليا في سبيرا مايسترا. وبعد وصولي بقليل وجدت رسالة صغيرة بخطها تعلمني فيها أنها استطاعت أن تحصل لي على كلب صغير، وأنها ستحمله هدية لي في رحلتها القادمة ولكن هذه الرحلة لم تتم أبداً، ولم تعد ليديا وكلودوميرا تجوبان الطرقات. فبسبب ضعف رجل كان أقل منهما بألف مرة كرجل وكمقاتل وكثوري وكإنسان. استطاع الجيش تحديد مكان جماعة من رجالنا كانت بصحبتهم ليديا وكلودوميرا. وفاجأ العدو الجماعة التي قاتلت

بكل بسالة حتى الموت وأسرت ليديا جريحة ثم قتلت مع كلودوميرا واختفت جثتاهما. ولا شك في أنهما الآن راقدتان جنباً إلى جنب في مثواهما الأخير كما كانتا في أيامهما الأخيرة التي عاشتاها وسط المعركة الكبيرة لأجل الحرية.

وقد نجد يوماً رفاقهما في حقل منعزل من حقول الجزيرة التي كانت كلها آنذاك مقبرة كبيرة. إن رجال جيش الثورة الذين قاتلوا وضحوا في تلك الأيام العصيبة الخطيرة سيحتفظون على الدوام بذكرى النساء اللواتي عرضن حياتهن للخطر بغية تأمين الاتصالات على طول الجزيرة. وتحتل ليديا بالنسبة لهن جميعاً وبالنسبة لرجال الجبهة الأولى وبالنسبة لي أنا شخصياً مكاناً مختاراً من بين تلك النساء. لذا فإنني اليوم أكتب هذا التكريم لذكراها وأضعه كزهرة متواضعة أمام هذا اللحد الواسع الذي ضم آلافاً من الحفر في جزيرتنا التي كانت ولا تزال نابضة بالسعادة.

وقد قضينا شهر يونيو (حزيران)١٩٥٧ كله في محاولة معالجة رفاقنا جرحى معركة أوفيرو وتنظيم هذه المجموعة الصغيرة التي كان عليها أن تلتحق بفيدل وتعزز قواته.

أما الاتصال مع الخارج فكان يتم عن طريق دافيد الذي كان يتولى تحسين وضعنا المعيشي بفضل نصائحه ومعلوماته والمؤونة التي يحملها إلينا. ولم يكن باستطاعتنا في الأيام الأولى الاعتماد على مساعدة الفلاح العجوز بانشو تامايو (قتله الأخوان بياتون في سنوات ما بعد الحرب) ولكنه بعد ذلك اتصل بنا وبات يقدم لنا كل خدمة ويعمل معنا كعنصر ارتباط.

أما سينيسيو الذي لم يكن يتحلى بالروح الثورية فقد بدأ يتجاوز الحدود إذ أنه كان يحتسي الخمرة حتى الثمالة مبدداً أموال الحركة. ولا يلبث بعد أن يفقد وعيه أن يفضح بعض الأسرار بالإضافة إلى أنه لم يكن ينفذ الأوامر. ولقد عاد مرة من إحدى جولاته ومعه ١١ من رفاقه بدون سلاح. ويقضي المنطق عدم قبول رجال جدد بدون سلاح. لكن في ثورتنا الصغيرة كان الانضمام يتم كيفما اتفق الأمر وبشكل يتعارض مع مقتضيات

المنطق. كما كان بعض الفلاحين الذين يعرفون مكان تمركزنا يحضرون لنا بعض زملائهم الراغبين بالتطوع أيضاً. ولقد تطوع للعمل معنا ما لا يقل عن ٤٠ رجلاً وكان دائماً يغادرنا بعضهم برغبتنا أو بدون رغبتنا. . ولم تكن جماعتنا تتجاوز أبداً ٢٥ـ ٣٠ رجلاً مضموناً.

وفي هذه الفترة تفاقمت أزمات الربو عندي، وبما أنه لم يكن عندي أي مسكن فقد اضطررت للمكوث بلا حراك كأي جريح. ولأخفف قليلاً من نوبات اختناقي اخذت أدخن أوراق الشجر الجافة مستخدماً دواء السبيرا الطبيعي ريثما تحضر أدوية المدنية والحضارة. ثم جاء يوم أحسست فيه بأنني مستعد للرحيل (الوفاة) بعد أن تأخر رحيلنا يوماً بعد يوم. فأرسلنا دورية لتجلب كل الأسلحة التي أخفيناها بسبب عدم صلاحيتها ونقلها بعد هجوم أوفيرو. وكنا نود تسليح المتطوعين الجدد بها. ففي هذه الظروف كانت كل الأسلحة بما فيها البنادق القديمة المعطلة نسبياً والمسدس الرشاش القديم عيار ٣٠ بمثابة كنز لا يقدر بثمن. وقضت الدورية الليل كله لتخرج الأسلحة من مخابئها وحددنا تاريخ الرحيل يوم ٢٤ يونيو (حزيران).

وكان تشكيل جماعتنا كما يلي: ٥ جرحى في دور النقاهة مع ٥ مرافقين لهم و١٠ متطوعين جدد واثنان من الجدد الملتحقين بنا و ٤ رجال من المنطقة وكان مجموعنا ٢٦ رجلاً. وسار فيلواكونا في المقدمة وتلته الأركان بقيادتي حيث أن الميدا رغم شفاء جرح ساقه لم يكن يستطيع القيادة لأنه يجد صعوبة كبيرة بالمسير، وفي المؤخرة سارت جماعتان صغيرتان بإمرة ماسيو وبينا.

وتتالت الحوادث وأخرت انطلاقنا ٢٤ ساعة. فقد حضر أحد الأدلاء مع متطوعين جدد، ثم وردت أنباء عن قرب وصول كمية من الأدوية والتموينات فوجدنا أنه لا بد من انتظارها وكان تامايو العجوز يذهب ويعود باستمرار حاملاً الصناديق وعلب الأغذية المحفوظة والألبسة مع الجديد من الأنباء. وكان علينا إيجاد كهف نخفي فيه جزءاً من المواد التموينية، أما الاتصال مع سانتياغو فقد تأمن أخيراً، وجلب لنا دافيد حمولة لم نكن نأمل

بحملها معنا نظراً لظروف المسير في جماعتنا المؤلفة من رجال في دور النقاهة أو متطوعين أحداث.

وفي ٢٦ يونيو (حزيران) قمت لأول مرة بمهنة طبيب أسنان وإنني لاعترف أن زبائني في السبيرا كانوا يلقبونني «خالع الأسنان». وكان أول ضحاياي اسرايل باردو وتمت عملية الخلع بشكل عادي. أما الضحية الثانية فكان خويل ايجليسياس، وباءت محاولتي معه بالفشل رغم أنني استخدمت كل الأساليب الممكنة. ولم يعد أمامي سوى أن أضع قطعة ديناميت بجانب نابه لخلعه. وانتهت الحرب ولكن هذا الناب العنيد لم يتزحزح من مكانه.. ولم يكن عندي أية خبرة في هذا المضمار. كما أن مواد التخدير كانت قليلة لدرجة تدفعني إلى التقتير في استهلاكها وكنت أستخدم التخدير النفسي. أي أنني كنت أزجر مرضاي إذا ما اشتكوا تحت وطأة الألم.

وما أن أعطينا الإنذار بالتحرك حتى تخاذل بعض الرجال وتركونا. ومن حسن الحظ أن بعض الجدد حلّوا محلهم. وأحضر تامايو ٤ رجال جدد كان بينهم فيليكس مندوزا الذي جاء ببندقيته معه، وشرح لنا كيف كان يسير مع زميله ففاجأتهما مفرزة من الجيش تمكنت من القاء القبض على زميله بينما ألقى هو بنفسه وراء منحدر، وهرب بأقصى سرعة دون أن يصيبه الجيش بأذى. ثم عرفنا فيما بعد أن الجيش الذي تحدث عنه لم يكن سوى إحدى دورياتنا بقيادة الرفيق لالو سارديناس. كما عرفنا أن زميله التحق بقوات فيدل وكان اسمه إيفيليوسا بوريت.

وغدا عددنا بعد التحاق فيليكس مندوزا وزملائه ٣٦ رجلاً. وفي اليوم التالي تركنا ٣ رجال جاء بدلهم أناس آخرون التحقوا بنا فأصبح عددنا ٣٥. ولما بدأ المسير انخفض العدد من جديد وبدأنا نتسلق منحدرات بيلاديرو على مراحل مسير قصيرة جداً.

ثم علمنا عن طريق الإذاعة أن موجة من العنف تجتاح الجزيرة كلها. وفي ١ يونيو (تموز) جاءنا نبأ مقتل خوزيه بايس شقيق فرانك وبعض الرفاق الآخرين الذين سقطوا في المعركة الدائمة الدائرة في سانتياغو.

وعندما كنا ننزل على سفوح هضبة «يونيللا» مررنا بمنزل بينيتو مورا فاستقبلنا أحسن استقبال في كوخه المتواضع الذي يبدو وكأنه معلق على المنحدر الصخري في هذا الجزء من السبيرا. وقبل الوصول إلى هذا البيت جمعت الرجال (وكانت معنوياتهم منخفضة جداً) وأعلمتهم بالموقف قائلاً: «إننا سنلاقي عن قريب ساعات خطر جسيم، وإننا نتقدم باتجاه جيش حقيقي وعلينا بالتالي أن نمتنع عن الأكل عدة أيام ونتابع سيرنا بدون توقف. فإذا كان بينكم من يعتقد بأنه لن يستطيع تحمل كل هذه المشاق فما عليه إلا أن يقول منذ الآن». وكان لدى بعضهم الشجاعة للاعتراف بمخاوفهم وتركونا نهائياً. ولكن رجلاً يدعى شيشو قال بحماس وحزم غريبين إنه ورجال زمرته سيتابعون «حتى الموت» وبعد أن اجتزنا منزل بينيتو وبدأنا بإعداد معسكرنا قرب غدير صغير لنقضي الليل فيه، أبلغتنا زمرة شيشو نفسها بأنها راغبة في ترك الثورة فتركناها ترحل. وأسمينا المكان غدير الموت تهكماً لأن حدود عمل شيشو وزمرته انتهت في هذا المكان. . .

وهكذا أصبح عددنا ٢٨ رجلاً، وفي اليوم التالي كنا نستعد للرحيل عندما التحق بنا متطوعان جديدان هما جيلبرتو كابوت ونيكولاس. وكانا عسكريين سابقين جاءا إلى السبيرا للنضال من أجل الحرية. ولقد أحضرهما أريستيدس جيرا أحد رجال الارتباط في المنطقة والذي غدا فيما بعد كنزاً حقيقياً لرتلنا. وكنا نلقبه «ملك التموين» وقدم لنا «ملك التموين» في كل مراحل القتال خدمات كبيرة كانت تعرضه لخطر يفوق ما يتعرض له من يقاتل العدو في خطوط النار (ومن أعماله أنه كان يدفع قطعان البغال من منطقة بايامو إلى منطقة عملنا).

وبينما كنا نسير على مراحل صغيرة وجدنا أنه قد آن الأوان لتدريب المتطوعين الجدد على استخدام السلاح فكلفنا العسكريين السابقين بتدريبهم على البندقية وطريقة املائها وتفريغها والرمي بها في مختلف الأوضاع. . الخ. ولكن لسوء الحظ ما أن بدأت الدروس حتى انطلقت من بندقية أحد المدربين بطريق الخطأ طلقة. فقررنا الاستغناء عن خدماته وأبدينا نحوه بعض الحذر فاكتسى وجهه بسحابة من الحزن الكبير لا يمكن أن نعتبرها «خدعة»

إلا إذا كان ممثلاً كبيراً. وفي نهاية الأمر تعب العسكريان السابقان ولم يعد بإمكانهما تحمل استمرار المشي فتركانا برفقة أريستيدس. ثم عاد جيلبرتو كابوت إلى صفوفنا وبقي معنا حتى وصل إلى رتبة ملازم وسقط شهيداً بشجاعة في بينو ديل أجوا.

وتركنا مكان تمركزنا الذي كان في منزل بولو توريس على نهر لاميسا الذي أصبح فيما بعد أحد مراكز عملياتنا. ثم تابعنا المسير وكان دليلنا في هذه المرة فلاح يدعى توتو الميبيدا.. وكانت مهمتنا الوصول إلى نيفادا ومنها إلى شمال قمة توركينو للوصول إلى المنطقة التي فيها فيدل. وكنا نسير في هذا الاتجاه عندما شاهدنا عن بعد اثنين من الفلاحين حاولا الفرار بمجرد رؤيتنا. فأرسلنا من يعدو خلفهما لإيقافهما. ثم ظهر لنا أنهما فتاتان زنجيتان واسم كليهما مويا، وكانتا متدينتان من (Advantiste)[1] وقدمتا لنا آنذاك وطوال مدة الحرب بعد ذلك مساعدات غير محدودة رغم أن عقيدتهما تدعوهما إلى عدم استخدام العنف.

وقطعنا مسيرنا طلباً للراحة وتناولنا طعاماً شهياً. وعندما أردنا التوجه إلى مارفيردي (حيث كان علينا أن نمر بها للوصول إلى نيفادا) وردتنا أخبار بأن القطاع مليء بجنود باتيستا. وبعد مناقشات بين قيادتنا الصغيرة والادلاء قررنا النكوص على أعقابنا واجتياز الجبل مباشرة عبر قمة توركينو. ومع أن هذا الطريق أصعب إلا أنه أكثر أمناً.

وعرفنا من مذياعنا الصغير بأن معارك كبيرة دارت في منطقة استردادا بالما وأن راؤول سقط جريحاً ولم نكن نعرف كيف نتصرف حيال هذه الإشاعات. ولكن التجارب علمتنا أن نشك بصحتها.. ومع هذا حاولنا حث الخطى ما أمكن للوصول إلى فيدل.. وبدأنا المسير في المساء وقضينا الليل في منزل فلاح أعزب يدعى فيزكينو (البيسكوني) وكان يعيش وحيداً تماماً في

(١) Advantiste: فرد يؤمن بطائفة خاصة من الطوائف المسيحية في أمريكا ويعتقد بعودة المسيح إلى الأرض.

كوخ صغير على مقربة من توركينو لا يؤنس وحشته سوى بعض الكتب الماركسية التي يخفيها بكل عناية في حفرة صغيرة يغطيها حجر على مقربة من كوخه. وأعلمنا هذا الرجل بكل افتخار أنه كان مناضلا ماركسياً وهذا أمر معروف لدى مجموعة من الأصدقاء في المنطقة. ثم دلنا قبل تحركنا على الطريق الواجب اتباعه أثناء تقدمنا البطيء. ولاحظ سينيسيو أننا نبتعد رويداً رويداً عن منطقة نشاطه. فكان هذا بالنسبة لروحه القروية البسيطة المتمردة جزئياً أمر مزعجاً يدعو إلى القلق. وفي أحد الأيام وخلال وقفة من التوقفات كان أحد المتطوعين الجدد ويدعى كوبر فو يقوم بالحراسة بعد أن زودناه ببندقية ويمنجتون نظراً لحسن سلوكه فذهب سينيسيو توريس لمقابلته في مركز حراسته ومعه بندقيته. فلما علمت بالأمر بعد نصف ساعة ذهبت لأعود به لأن البنادق كانت عزيزة وغالية في هذه الفترة. ولما وصلت إلى مركز الحراسة وجدت أنهما قد هربا بسلاحهما معاً. فذهب بانديراس وساريل باردو في أعقابهما رغم علمهما بعدم فاعلية مسدسيهما البسيطين بالنسبة لأسلحة الهاربين. ولكنهما لم يستطيعا القبض عليهما في هذه المرة.

وكان من الصعوبة أن نحافظ على معنويات هذه المجموعة الضعيفة التسليح والمحرومة من الاتصال المباشر مع قائد الثورة. وكنا نتقدم تقريباً على غير هدى ودون أية خبرة يحيط بنا عدو تضخمه أفكار وتخيلات الفلاحين وتعطيه حجماً هائلاً. وتسلل الضعف إلى مقاومة الجدد القادمين من السهول وغير المعتادين على آلاف الصعوبات التي تعترض طريق متسلقي الجبال. وأدى ذلك إلى ظهور العديد من الأزمات بين رجالنا. ونظّم أحد الأفراد ويدعى «المكسيكي» محاولة للهرب (وصل هذا الرجل فيما بعد إلى رتبة نقيب ثم خان الثورة وعمل مع أعداء الثورة في ميامي) لكن هيرمز ليفا أعلمني بالأمر. وأمام عملية مجابهة لكشف الحقيقة اعترف «المكسيكي» بأنه حاول تنظيم جماعة مستقلة يقودها بنفسه، ولكنه أقسم إيماناً مغلظة بأنه لم يكن ينظم هذه الجماعة بهدف الفرار، وعرض عليّ أن يقوم بتنظيم مفرزة تقوم بالأعمال الثورية ومهاجمة الجواسيس وقتلهم، لأنه يرى أن جماعتنا لا تقوم بنشاط كاف بهذا الصدد. والحقيقة أنه كان يريد التفرغ لمطاردة

الجواسيس لسلب نقودهم بأساليب قطاع الطرق. وعندما اشتبكنا فيما بعد بمعركة هومبيريتو لم نخسر سوى هيرمز ليفا. فحامت شكوكنا حول «المكسيكي» واتهمه البعض بقتله انتقاماً منه لأنه كشف خطته. ولكني لم أقنع تماماً بذلك.

وبقي «المكسيكي» بين صفوفنا وأعطى كلمة الشرف كرجل وكثائر.. الخ. بأنه لن يترك الثورة ولن يحاول أن يغري أحداً على الهرب.

وبعد عدة مراحل مسير قصيرة وصلنا إلى منطقة بالماموشا على المنحدر الغربي لقمة توركينو في منطقة الكهوف فاستقبلنا الفلاحون استقبالاً حاراً واستخدمت صفة «خالع الأسنان» لإقامة اتصالات مباشرة مع الأهالي وسط هذا الجو الحماسي.

وبعد عشاء دسم واستراحة كافية انطلقنا مباشرة نحو بالماموشا وقطاع الجحيم حيث يوجد بعض أصدقائنا القدامى. فوصلنا إليها في ١٥ يوليو (تموز) وأعلمنا فلاح يدعى أميليو كابريرا أن لالوسا رديناس يكمن مع رجاله في مكان قريب. واشتكى الفلاح من تصرفات لالو الذي اختار مكان الكمين في بقعة قريبة من كوخه بشكل تعرض الكوخ وساكنيه للخطر إذا ما داهمت المكان دورية معادية.

وفي يوم ١٦ تم الاتصال بين رتلنا الصغير وفصيلة من رتل فيدل يقودها لالو مارديناس. ولقد روى لي لالو كيف وجد نفسه مضطراً للالتحاق بصفوف الثورة، إذ كان تاجراً يحمل إلينا المؤونة من السهل وفاجأه العدو في أحد الأيام، فاضطر إلى قتل أحد رجاله ومنذ ذلك الوقت أصبح مكرها على الالتحاق بالغابات.. وكان لالو قد تلقى تعليمات بالتمركز في هذا المكان وانتظار قوات سانشيز موسكيرا المعادية نظراً لأن سانشيز موسكيرا عاد إلى التغلغل ضمن أراضينا في قطاع بالماموشا يدفعه إلى ذلك حماسه وتهوره. وبعد أن أوشك رتل فيدل على محاصرته استطاع تلافي الوقوع في قبضته بأن اجتاز توركينو بمسير سريع ووصل إلى السفح الآخر من سلسلة الجبال. وكنا آنذاك نعلم بوجود قوات معادية في المنطقة لأننا عندما وصلنا

إلى أحد الأكواخ شاهدنا بقربه خنادق تركها العدو منذ فترة قريبة. ولكننا لم نستطع أن نتصور أن هذه الآثار التي تدل على وجود عدو خطير لم تكن في الحقيقة سوى آثار جنود الأعداء المنسحبين. وهكذا تغير وجه العمليات في السبيرا في هذه المرحلة. وأصبح لدينا منذ ذلك الوقت القوات الكافية لمحاصرة أرتال العدو وإجبارها على الانسحاب خشية الإبادة.

وفهم العدو الدرس جيداً. فلم يعد يشتبك معنا إلا في معارك محلية محدودة في السبيرا. ولكن سانشيز لم يستوعب هذا الدرس كما يجب وكان من أكثر قادة الأعداء عناداً وعدواناً وسفكاً للدماء فحصل على ترقيات سريعة وتمكن القفز من رتبة ملازم في عام ١٩٥٧ إلى رتبة عقيد في يونيو (حزيران) عام ١٩٥٨. وكانت حياته العسكرية شهاباً لمع بسرعة ثم انطفأ. ولكنها كانت مثمرة من ناحية الأموال التي كدسها بعد أن اغتصبها من الفلاحين، إذ كان يصادر كل شيء وبلا شفقة بمجرد أن يضع جنوده أقدامهم في شعب سبيرا مايسترا.

التعرض للخيانة:

* كم كنا سعداء عندما التقينا ثانية برفاقنا القدماء.. وكم احسنوا استقبالنا. ولقد أسعدتنا أيضاً رؤية قواتنا وقد بلغت ٢٠٠ مقاتل تقريباً وغدت أكثر انضباطاً وارتفعت معنوياتها وتزودت ببعض الأسلحة الحديثة. وليس هناك شك في التبدل النوعي الذي تحدثنا عنه والذي كان يتم في سبيرا مايسترا. وأصبحنا نعيش في أرض حرة تماماً، ولم يكن علينا أن نتخذ تدابير حيطة كبيرة كما أصبحنا نتمتع بقسط من الحرية يسمح لنا بالسهر والمناقشات مساء. كما يسمح بالتسكع قليلاً في المعسكر. وبدأنا نسمح لأنفسنا بزيارة أهالي السبيرا في بيوتهم الأمر الذي دفع إلى تنمية العلاقات الوثيقة معهم.

وكان نجما هذه المرحلة فيليب بازوس وراؤول شيباس وهما شخصيتان لاتجمعهما أية رابطة أو صفة مشتركة. لقد كان راؤول يستفيد من سمعة أخيه (الذي كان مثلاً أعلى لمرحلة من مراحل نضال كوبا) ولكن دون

أن يتمتع بأية صفة من صفات هذا الأخ الممتاز كالكرم أو التفكير السليم أو الذكاء. ولعل تفاهته أمام كل تجربة هي التي جعلته يبدو الوجه الواضح لحزب Orthodoxe. . لقد كان بيننا قليل الكلام. ولم يكن يردد سوى فكرة واحدة وهي ترك السبيرا بأسرع ما يمكن.

أما فيليب بازوس فلم تكن تنقصه الشخصية القوية. وكان علاوة على ذلك رجل الاقتصاد القدير المشهور بأمانته لأنه لم يمدّ يده إلى الأموال العامة عندما كان حاكماً للبنك الوطني في عهد التزوير والاختلاس العارمين أيام حكم الرئيس بريوس ساكاراس. أفلا ترون أن الاحتفاظ باليدين نظيفتين في تلك السنوات أمر يستحق الإعجاب؟. أفلا ترون أن الموظف الذي يقوم بواجبات وظيفته بكل دقة دون أن يهتم بمشاكل الشعب الكبيرة موظف يستحق التقدير؟ ولكن كيف يمكن أن نتصور رجلاً ثورياً يبقى يوماً بعد يوم صامتاً أبكم أمام الظلم الفادح الذي كان يصيب المواطنين آنذاك، لقد قام فيليب بازوس ببطولات خارقة حتى لا ينبس ببنت شفة، ثم ترك بعد ذلك وظيفة حاكم البنك الكوبي بكل هدوء وهو في أوج شهرته (بعد انقلاب باتيستا) تحيط به هالة من الاحترام والتقدير نظراً لأمانته وذكائه وخبرته الاقتصادية الكبيرة. فلم يهتم بكل هذا وتوجه إلى السبيرا آملاً أن يبسط سيطرته على الموقف هناك. وفي رأس هذا المكيافيلي الصغير كانت تدور فكرة تقول إنه الرجل المختار لقيادة مصائر البلاد. . فهل كان في رأسه آنذاك أيضاً فكرة خيانة الحركة. أم أن هذه الفكرة نبتت بعد ذلك؟. وعلى كل حال فإن تصرفاته لم تتسم مطلقاً بالصراحة.

ولقد عين نفسه مندوباً عن (٢٦ يوليو) في ميامي مختبئاً وراء بيان السبيرا وكان يطمع بمنصب رئيس الجمهورية المؤقت فوجد بريو في ذلك وسيلة جديدة ليضع رجلاً موثوقاً على رأس الحكومة المؤقتة.

ولم يكن لدينا الوقت الكافي في هذه الأثناء للمناقشة. لكن فيدل أوضح لي الجهد الكبير الذي بذله مع هاتين العقليتين الرجعيتين البعيدتين عن قبول فكرة النضال الشعبي لأجل إتمام صياغة وثيقة نضالية حقيقية.

وهذه الوثيقة كانت تصر قبل كل شيء على ضرورة إيجاد جبهة وطنية ثورية تضم كل الأحزاب السياسية المعارضة وكل المؤسسات الوطنية والقوى الثورية، وفيها بعض العروض مثل (الانطلاق من هذه الجبهة الشعبية لخلق جبهة كاملة للصراع) وتعيين شخصية كبيرة لرئاسة الحكومة الثورية، وكان فيها إعلان صريح بأن الجبهة ترفض أن تطلب أو تقبل وساطة دولة أجنبية لحل المشاكل الداخلية الكوبية وتعارض كل مشروع، يسلم الجمهورية ولو لمدة مؤقتة إلى عصبة عسكرية مهما كان نوعها، وقرار واضح يمنع نهائياً تَدَخّل الجيش بالسياسة أو ضمانة الحصانة للمؤسسات العسكرية مع إعلان انتخابات حرة خلال سنة واحدة.

ويعلن البرنامج، الذي يجب على الحكومة المؤقتة أن تسير عليه، إطلاق سراح كل المعتقلين السياسيين المدنيين والعسكريين، مع ضمانة مطلقة لحرية الإعلام اللفظية والكتابية - إن جميع الحقوق الشخصية والسياسية يضمنها الدستور - وإخضاع وتعيين رؤساء البلديات المؤقتين في كل البلديات لاستشارة المؤسسات الوطنية في هذه البلدية. وكان البرنامج ينظر بعين الاعتبار إلى ضرورة مكافحة الاختلاس بكل أنواعه واتخاذ التدابير الرامية إلى زيادة درجة فعالية أجهزة الدولة مع إعادة تنظيم قواعد التوظيف في الإدارة وتحقيق ديموقراطية النقابات عن طريق انتخابات حرة في كل النقابات والاتحادات الصناعية والانطلاق المباشر بمعركة حامية ضد الأمية ترافقها معركة للتثقيف الوطني تدرس فيها حقوق المواطنين وواجباتهم نحو المجتمع والوطن. وأكد البرنامج في النهاية ضرورة وضع قواعد الإصلاح الزراعي بغية توزيع الأراضي غير المزروعة، وتحويل المزارعين غير المالكين إلى ملاك لقطع صغيرة من الأراضي - سواء كانت هذه الأراضي مملوكة للدولة أو للأفراد - مع تعويض الملاك السابقين والسير على سياسة مالية صحيحة تؤمن ثبات العملة الوطنية، وتثمير ثروة الأمة في مشاريع مفيدة، وزيادة سرعة التصنيع مع خلق فرص جديدة للعمل.

وبرزت من خلال هذا البيان بقوة نقطتان: الأولى «ضرورة تعيين الشخص المدعو لرئاسة الحكومة المؤقتة للجمهورية فوراً بغية إقناع العالم

أجمع أن الشعب الكوبي قادر على الاتحاد وراء شعار الحرية، ومستعد لدعم الشخص الذي يجمع صفات عدم التحيز والأمانة والوقار والقادر على تمثيل هذا الشعار إذ لا ينقص كوبا الرجال الممتازون لرئاسة جمهوريتنا» (وعندما وقّع فيليب بازوس على البيان كان يدرك في أعماق ضميره أنه ليس هناك أعداد كبيرة من هذا النوع من الرجال وأن هناك شخصاً واحداً هو فيليب بازوس نفسه). أما النقطة الثانية فهي الإصرار على «أن يتم تعيين هذا الرئيس من قبل المؤسسات الوطنية التي لا تهتم بالسياسة بشكل يخلص الرئيس المؤقت من كل التزام ويؤمن إجراء انتخابات نزيهة بلا تزوير أو تحيز».

وأعلن البيان أن الصعود إلى السبيرا للمناقشة غير مجد لأنه يمكننا إيجاد من يمثلنا في هافانا أو المكسيك أو في أي مكان عندما يبدو ذلك ضرورياً؟..

وحاول فيدل أن يصيغ بعض التصريحات المتعلقة بالإصلاح الزراعي بشكل أكثر راديكالية، ولكن تحطيم الجبهة الصلبة لهذين الرجلين الرجعيين كان في منتهى الصعوبة وكانت صحيفة دياريو دو لا مارينا[1] «تنادي بوضع قاعدة للإصلاح الزراعي الرامي إلى توزيع الأراضي غير المزروعة وخصوصاً بعد وضع الفقرة التي تنص على دفع تعويض مجز لأصحاب الأرض الأصليين».

غير أن الثورة لم تنفذ بعض وعود هذه الوثيقة تماماً. ويجب أن نلاحظ أن العدو هو الذي حطم الحلف المعقود ضمنياً داخل البيان عندما رفض الاعتراف بسلطة السبيرا، محاولاً تقييد الحكومة الثورية المقبلة مسبقاً. علماً بأن هذا الحل الوسط لم يكن يعجبنا ولكنه كان ضرورياً. لقد كان خطوة إلى الأمام في الظرف الراهن ولكنه لم يكن قادراً على الاستمرار في

---

(١) دياريو دو لا مارينا صحيفة يومية رجعية. ولقد احتلت الصحيفة الشيوعية (اليوم) مكاتبها بعد انتصار الثورة وانتقلت الصحيفة الرجعية إلى ميامي وهي تصدر الآن من هناك.

اللحظة التي يصبح فيها عائقاً أمام تطور الثورة. ولكننا كنا مضطرين لقبوله والعمل به ثم جاءت خيانة العدو فساعدتنا على تحطيم هذه الروابط المعيقة وكشف حقيقة مشاريعه المشبوهة أمام الشعب.

وكنا نعرف جيداً أن الأمر يتعلق ببذرة برنامج أو ببرنامج يحدد ويعيق جهودنا ولكن لم يغب عن ذهننا أننا لا نملك ونحن في سبيرا مايسترا الوسائل التي تساعدنا على فرض إرادتنا. وكان لا بد لنا من الاعتماد ولوقت طويل أيضاً على مجموعة كبيرة من الأصدقاء الذين كانوا بدورهم يحاولون استغلال قوتنا العسكرية والثقة الكبيرة التي كان يضعها الشعب في شخص فيدل كاسترو لمصلحة ألاعيبهم التافهة وللمحافظة على الامبريالية في كوبا بواسطة المصدرين البورجوازيين المرتبطين جيداً بسادة الشمال الأمريكيين.

ولقد كان للبيان جهة إيجابية. فقد تم التحدث فيه عن سبيرا ماسترا بشكل جدي «إن شخصاً لن يستمع إلى دعاية الدولة بخصوص الوضع السائد في سبيرا مايسترا. إن سبيرا مايسترا في هذا اليوم قلعة شامخة للحرية التي تغلغلت جذورها في قلوب مواطنينا ونحن في هذا المكان نعرف كيف نحترم عقيدة وثقة شعبنا. إن كلمة نحن هنا تعني فيدل كاسترو فقط لأن الاثنين الآخرين ظهرا عاجزين عن متابعة تطور النضال في سبيرا مايسترا حتى ولو كمتفرجين، لأنهما لم يلبثا أن نزلا من الجبل فقبضت شرطة باتيستا على أحدهما وهو شيباس وعذبته قبل أن يذهبا إلى الولايات المتحدة معاً».

وكان الأمر مرتباً بشكل جيد: مجموعة من شخصين اختارتهما الأوليغاركية الكوبية صعدا إلى سبيرا مايسترا للدفاع عن الحرية ووقعا مع قائد الثورة المحاصر وسط الغابات والأحراج بياناً مشتركاً ليذهبا بعد ذلك بكل حرية ويلعبا بهذه الورقة في ميامي. ويبدو أن هذين السيدين نسيا أن هنالك حدوداً للمناورة السياسية. وفي حالتنا هذه كانت هذه الحدود هي أسلحة الشعب.

غير أن العمل السريع لقائدنا الواثق من جيش الثورة منع الخيانة من احتلال أرض أوسع. وجاء رده الحاسم بعد أن عرفت نتيجة تحالف ميامي

في الأشهر التالية فشل نشاط العدو ولقد اتهمنا بأننا انفصاليون وبأننا نحاول فرض إرادتنا من السبيرا. ولم يكن أمام العدو سوى تبديل التكتيك وبدء مناورة جديدة هي تحالف كاراكاس.

ونشرت الصحف البيان المؤرخ في ١٢ يوليو (تموز) ١٩٥٧. وكان هذا الإعلان بالنسبة لنا فترة توقف قصيرة على الطريق لا أكثر. وكان علينا متابعة مهمتنا الرئيسية وهي الانتصار على قوات الطاغية في ساحات القتال. ولقد تمكنا خلال هذه الفترة من تشكيل رتل جديد استلمت قيادته وأنا أحمل رتبة نقيب. وشملت الترقيات بعض الرفاق فغدا راميروا فالديس نقيباً ودخل مع فصيلته في تشكيل رتلي. كما وصل سيروريد وندو أيضاً إلى رتبة نقيب وأصبح يقود فصيلة. وكان رتلي يتألف من ثلاث فصائل يقود الفصيلة الأولى لالوسا رديناس مع مفرزة المقدمة علاوة على مهمته كمعاون لي. وكان هذا الرتل الذي يضم «٧٥ رجلاً» تقريباً يحوي تشكيلة عجيبة من الأسلحة والآليات حتى أسماه الرفاق «رحلة الفلاحين». ولكن هذا لم يمنعني من أن أفاخر به. وبعد عدة ليالٍ غدوت أكثر فخراً وأكثر تعلقاً بالثورة وأشد رغبة في إثبات جدارتي واستحقاقي للرتبة الجديدة التي حصلت عليها. وكان ذلك في يوم اجتمعنا فيه لكتابة بطاقة تهنئة وتقدير إلى «كارلوس» (وهو الاسم السري لفرانك بايس) الذي كان يعيش آخر أيام حياته، ووقع على هذه البطاقة كل ضباط جيش الثورة الذين يعرفون القراءة والكتابة.

ومع مطلع هذه الحياة المستقلة بدأت المشاكل تظهر وبات من الضروري بناء انضباط شديد وتنظيم الجماعات مع خلق نوع من القيادة الصغيرة القادرة على تأمين النجاح في المعارك القادمة. وكان ذلك أمراً صعباً بسبب ضعف انضباط المقاتلين.

وكان رتلنا حديث التشكيل عندما خسرنا أحد رفاقنا الأعزاء وهو الملازم ماسيو الذي قتل اثناء ذهابه بمهمة إلى سانتياغو لم نره بعدها. وحصلت ترقيات جديدة: فرفع ويليام رود ريغيس إلى رتبة ملازم كما تم ترفيع راؤول ميركادر أيضاً إلى رتبة ملازم. وفي أحد الأيام التي كنا نحاول

فيها تقوية مجموعتنا الثورية الصغيرة واجهنا نبأ سيئاً يقول إن أحد أفراد المقدمة قد هرب ببندقية من عيار ٢٢ في وقت كنا فيه بحاجة للسلاح. ولقد التجأ الهارب واسمه (الصيني) وونغ إلى منطقته في سبيرا مايسترا فأرسلنا رجلين خلفه. ولكن لكي لا نفقد كل أمل في القبض عليه عاد في نفس اللحظة الرفيقان اسرايل باردو وبانديراس اللذان كانا قد انطلقا في أثر هاربين آخرين دون جدوى. ووجدت لدى اسرايل باردو صفات كبيرة منها معرفته الجيدة للأرض وقوة تحمله البدنية فعينته مرافقاً لي.

وبدأنا بعد ذلك تحضير مخطط جريء بغية مهاجمة استرادا بالما عند هبوط الظلام ثم التقدم بسرعة نحو القرى القريبة من بارا وفيجيتياس واحتلال المخافر الصغيرة ثم العودة إلى الجبل من نفس الطريق. وكنا نستطيع بذلك احتلال ثلاث ثكنات مرة واحدة بفضل المفاجأة. وقمنا بتدريب جديد على الرمي مع الاهتمام بتوفير الذخيرة. لاحظنا أن جميع الأسلحة صالحة للاستعمال باستثناء الرشاش الخفيف مادزن القديم. وكتبنا رسالة صغيرة لفيدل نعلمه بالمشروع ونطلب موافقته خطياً لكنه لم يرد علينا. ثم أعلنت الإذاعة في ٢٧ يوليو (تموز) بلاغاً صادراً عن المصادر الرسمية يقول أن ٢٠٠ رجلاً بإمرة راؤول كاسترو هاجموا استرادا بالما.

ولقد كشفت مجلة «بوهيميا» في عددها الوحيد الذي لم يخضع للمراقبة في هذه الفترة بتحقيق صحفي عن الأضرار التي الحقتها قواتنا في استرادا بالما. وكيف أشعلت النيران في الثكنة القديمة ولكنها ادعت أن فيدل كاسترو وسيلياسا نشيز وعدداً كبيراً من الرفاق الثوريين قد قتلوا خلال الهجوم. وكما هو الحال في مثل هذه الظروف فقد اختلطت الحقيقة بالخطأ لدرجة لم يستطع الصحفيون معها أن يروا الحقيقة بوضوح. واتضح لنا فيما بعد أن غييرمو هو الذي قاد الهجوم ولم يكن معه ٢٠٠ رجلاً بل أقل من هذا العدد بكثير.

ولقد تعذر على غييرمو أن يقوم بالاشتباك مع العدو لأن القائد المعادي باربراس فكر تفكيراً منطقياً بأن يوم ٢٦ يوليو (تموز) يمكن أن يكون مناسبة

تقوم بها قوات الثورة بعمليات عنيفة. فلم ينتظر بل انسحب مسبقاً. ولعله لم يكن يثق بموقعه ثقة كبيرة. وحملة استرادا بالما كانت بلا جدوى. ولكن هذا لم يمنع القوات المعادية من مطاردتنا في اليوم التالي. واستطاع العدو أن يأسر أحد رجالنا وكان نائماً قرب سان لورنزو. ويعود هذا إلى وقوعنا بالأخطاء الناجمة عن نقص التنظيم.

وكردّ فعل لهذه الأخبار قررنا القيام بالهجوم على ثكنة أخرى بسرعة بغية إحاطة يوم ٢٦ يوليو (تموز) بجو ملائم يتناسب مع حالة العصيان.

وخلال سيرنا قرب منطقة تدعى لاخيرينجا لحق بنا أحد الرجلين اللذين أرسلناهما للبحث عن الصيني وونغ «الهارب» وأعلمنا أن زميله في المهمة أخبره بأنه صديق «الصيني» الحميم وهو لا يستطيع أن يخونه. ثم حرضه على الهرب هو الآخر وأعلن أنه لن يعود أبداً إلى صفوف الثورة. وإزاء رفضه الهرب تركه مبتعداً. ولما لم يستجب لندائه بالعودة أطلق النار عليه فأرداه قتيلاً.

وعلى المرتفع الأخير الذي يفصلنا عن مكان هذه المأساة جمعت كل الرجال وشرحت لهم ماذا سيرون ومعناه وبينت لهم لماذا يجب معاقبة الهارب بالموت ومعاقبة من يخون الثورة بلا شفقة أو رحمة. ومررنا برتل طويل صامت أمام جثة الرجل الذي حاول أن يترك مكانه في المعركة. وكان الحزن بادياً على وجوه عدد لا بأس به من الرفاق الذين يواجهون الموت عن قرب لأول مرة. وإنني لا أستطيع أن أؤكد ما إذا كانت انفعالاتهم ناجمة عن حقدهم على هذا الخائن أم حزنهم الخفي على رفيق هارب. وكان هذا الموقف ضعفاً سياسياً طبيعياً في ذلك الوقت. وكانت الأيام قاسية بلا شك وكان العقاب يعطي المثل للآخرين. وليس من الضروري أن نذكر اسم الرفيقين ولنكتف بأن نقول بأن الهارب القتيل كان فلاحاً يافعاً من المنطقة.

ومررنا في منطقة كنا نعرفها سابقاً. وفي ٣٠ يولو (تموز) حقق لالو سارديناس الاتصال مع صديق قديم يعمل تاجراً في منطقة المناجم، ويدعى أرماندو أوليفر وضرب له موعداً في منزل قريب من قطاع كاليفورينا دي

كوبا. وتم اللقاء مع التاجر في الموعد المحدد وكان برفقته شخص يدعى جورج أبش وفي اللقاء أعلمناهما أننا نود مهاجمة لاس ميناس وبوئيسيتو. وكانت هذه مخاطرة منا. ولكن لالو سارديناس طمأننا بأنه يعرف الرجلين ويثق بهما.

وأعلمنا أرماندو أن كاسيلاس كان يجوب المنطقة يوم الأحد، حيث كان له فيها علاقات غرامية مع امرأة شابة. ولكن المغامرة لمحاولة أسر كاسيلاس لم تكن تغرينا. وكنا نميل إلى القيام بعملية هجومية سريعة قبل أن يكتشف العدو وجودنا في المنطقة. وقررنا القيام بالهجوم في الليلة التالية ٢١ يوليو (تموز). وكان على أرماندو أوليفر تزويدنا بسيارات للنقل مع إدلاّء، وعامل مناجم مهمته نسف الجسور التي تصل طريق بوئيسيتو (العجل الصغير) بطريق مانزانيللو - بايامو. وفي الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم التالي بدأنا المسير وقضينا ساعتين للوصول إلى قمة مايسترا حيث أخفينا جميع أكياسنا واعتدتنا وتابعنا التقدم ومعنا بعض التجهيزات الميدانية فقط. وكان أمامنا طريق طويل يمر أمام مجموعة من المنازل في أحدها حفلة يقيمها الأهالي. ولقد لفتنا انتباه المحتفلين فاضطررنا إلى الوقوف حيث أفهمناهم بأننا سوف نحملهم المسؤولية كاملة مع كل نتائجها الوخيمة إذا ما علمت السلطات بنبأ مرورنا. ثم تابعنا تقدمنا بسرعة كبيرة. ومما لا شك فيه أن خطورة هذا اللقاء كانت قليلة لأنه لم يكن في القرية آنذاك هاتف أو أية وسيلة أخرى للاتصال ولم يكن أمام أي جاسوس أية فرصة لنقل أخبارنا إلا إذا قطع المسافة عدوا..

ووصلنا إلى منزل سانتيستيبان الذي أعدّ لنا سيارة نقل صغيرة بالإضافة إلى سيارتي النقل المرسلتين من (قبل أرماندو) فوزعنا كل الرجال على السيارات الثلاث وركب لالو سارديناس في السيارة الأولى وركبت مع راميرتيو في الثانية أما سيرو فقد اعتلى الثالثة مع فصيلته. وانطلقت بنا السيارات ثلاث ساعات وصلنا بعدها إلى قرية ميناس. وفي لاس ميناس كانت مراقبة الجيش خفيفة لدرجة قللت من أهمية اتخاذ تدابير الحيطة أثناء التحرك باتجاه بوئيسيتو. وتركنا في المكان جماعة المؤخرة بقيادة الملازم فيلو أكونا (وهو الآن برتبة رائد) ثم تابعنا التقدم مع بقية الرجال حتى مشارف بوئيسيتو.

وعلى مدخل القرية أوقفنا سيارة نقل محملة بالفحم وأركبنا فيها أحد رجالنا ككشاف ليستطلع لنا مدى وجود دلائل تشير إلى مراقبة العدو وحذره. ولقد وصل إلى مدخل بوئيسيتو حيث وجد جميع جنود المخفر العسكري المكلفين بمراقبة القادمين من السبيرا يرقدون في سبات عميق.

وكانت خطتنا بسيطة جريئة إلى حد ما: لقد كان على لالو سارديناس أن يتجه إلى غرب الثكنة بينما يتولى راميرو وفصيلته تطويقها من جميع الجهات. أما سيرو فيهاجم برشاش جماعة القيادة من الجبهة ويتقدم أرماندو أوليفر بالسيارة كما لو أن شيئاً لم يقع، ويسلط أنوار السيارة على الجنود لإعمائهم ومنعهم من رؤية تحركات الرفاق. عندها يدخل رجال راميريتو الثكنة ويقضون على جميع رجالها على أن يتخذوا في الوقت نفسه كافة التدابير لأسر الجنود النائمين في بيوتهم. أما جماعة الملازم نودا (الذي قتل في معركة بينوديل أجوا) فكانت مكلفة بإيقاف كل حركة على الطريق حتى سماعهم أول طلقة. وتولى ويليام نسف الجسر الذي يوصل بوئيسيتو مع مفترق الطريق «كاريتيرا سنترال» لتأخير وصول قوات النجدات المعادية.

غير أن تنفيذ المخطط لم يكن جيداً، لأنه مع بساطته كان معقداً جداً بالنسبة لرجال غير مجربين لا يعرفون الأرض جيداً. وأضاع راميرو بعض رجاله ووصل متأخراً كما أن السيارة لم تستطع التحرك وتسابقت الكلاب في نباح مسعور عندما كنا نوزع الرجال على مراكزهم.

وكنت ماراً في طريق القرية الرئيسي عندما رأيت رجلاً يخرج من أحد المنازل فصرخت به: قف. من هناك؟ فأجابني وهو يعتقد أنني أحد زملائه «الحرس المحلي» ولما شهرت سلاحي نحوه قفز إلى المنزل وأقفل الباب من الداخل بسرعة وسمعت بعدها صوت ارتطام طاولة وكراسي وتحطيم أقداح زجاجية. بينما قفز شخص ما من الخلف بدون ضوضاء وكان هذا مطلبي لأنني لم أود إطلاق النار حتى أسمح للرفاق بمفاجأة الثكنة، كما أنه بدوره لم يصرخ محذراً زملاءه.

ولما انهينا وضع آخر رجالنا في مكانه تقدم نحونا أحد الحراس الذي أثار شكه نباح الكلاب وصوت اعتراضي للجندي. ووجدت نفسي أمامه وجهاً لوجه وعلى مسافة عدة أمتار وكان يحمل بندقيته «جارانت» بينما كان معي مسدسي الرشاش تومبسون ويحميني اسرايل باردو ببندقيته القديمة عيار ٢٢، وصرخت به قف. عندها استعد الرجل لإطلاق النار باتجاهي. فضغطت بأصبعي على الزناد محاولاً إفراغ رصاص مسدسي الرشاش في جسمه ولكن الرصاصة الأولى رفضت الخروج فغدوت بلا دفاع. وأعلنت بندقية اسرايل عصيانها فلم تنطلق نارها هي الأخرى. ولست أدري كيف نجا اسرايل باردو بجلده؟ وكل ما أعرفه أنني تحت سيل من رصاص بندقية الجندي عدوت بسرعة لم أصل إليها في حياتي. والتففت خلال طيراني حول منزل يقع على الناصية لأجد نفسي في الشارع المعترض واقفاً أحاول إصلاح مسدسي الرشاش بعد أن تولى الجندي المعادي برصاصته الأولى إعطاء إشارة بدء الهجوم لرفاقنا، فبدأ الرمي من كل ناحية وأصابت الرهبة الجندي فاختبأ خلف عمود وبقي هناك حتى انتهت المعركة التي لم تدم طويلاً.

ولم يلحق بي اسرايل إلا بعد أن توقف الرمي واستسلمت الثكنة ولقد اجتاز راميريتو وجماعته منذ سماعه الطلقة الأولى سور الثكنة، وهاجموها بنيرانهم الغزيرة عبر باب خشبي وكان في الثكنة ١٢ رجلاً أصيب منهم على الفور ٦ جنود بجراح مختلفة. أما نحن فقد خسرنا الرفيق بيدرو ريفيرو، الذي التحق بنا منذ فترة وجيزة ومات من جراء رصاصة اخترقت صدره. كما كان بين صفوفنا ثلاثة مصابين بجروح طفيفة. فما أن احتللنا الثكنة حتى أحرقناها بعد أن أخرجنا منها كل ما يفيدنا. وفي طريق عودتنا بالسيارات اصطحبنا معنا أسيرين هما الرقيب رئيس المخفر وجاسوس يدعى أوران.

وقدم لنا الأهالي أثناء المسير البيرة المثلجة وعصير الليمون (وكان النهار قد طلع) وتابعنا مسيرنا إلى أن وصلنا إلى جسر على جدول صغير فنسفناه وكنا قد نسفنا قبله الجسر الخشبي الواقع على الطريق المتفرع من كاريتيرا سنترال، ثم انضم إلى مجموعتنا نهائياً عامل المناجم الذي أحضره

إلينا أوليفر وقام بالنسف بكل مهارة وبقي معنا مدة طويلة قدم لنا خلالها خدمات جلى.

وأخيراً وصلنا إلى لاس ميناس. فتوقفنا لعقد اجتماع شعبي وقمنا بحركة مسرحية فأوعزنا لأحد تجار المنطقة أن يطلب منا باسم القرية أن نطلق سراح الرقيب والجاسوس ولما فعل ذلك أعلمناه بأننا نحتفظ بهما كأسيرين لنضمن حياة المواطنين وحتى لا تقوم السلطات بعمليات قمع في القرية. ولكن بما أن الأهالي يطلبون ذلك بكل الحاح فإننا نجد أنفسنا مضطرين إلى تركهما. وهكذا أطلقنا سراح الأسيرين وبقيت القرية في مأمن من انتقام الجنود.

وقبل أن نصعد إلى السبيرا دفنا رفيقنا في مقبرة القرية.

وبدأت طائرات الاستطلاع تحلق فوق رؤوسنا على ارتفاعات عالية فقررنا التوقف في أحد الدكاكين لمعالجة جرحانا الثلاثة. وكان أحدهم مصاباً بكتفه وكان كتفه ممزقاً بشكل يجعل الشفاء صعباً. أما الثاني فكان جرحه ناجماً عن سلاح صغير العيار بينما كانت إصابة الثالث كدمة كبيرة في رأسه ناجمة عن رفسة بغل من بغال الثكنة التي جمحت عند سماع صوت الرصاص وانطلقت تكتسح وتهدم كل ما يعوق طريقها.

وعلى مرتفع كاليفورينا نزلنا من سيارات النقل ووزعنا الأسلحة. ومع أن اشتراكي في المعركة لم يكن باهراً ولم يتصف بالعنف والشجاعة حيث أنني لم أقابل الطلقات التي وجهت إلي إلابظهري فلقد احتفظت لنفسي بالرشاش الخفيف براونينغ، جوهرة الثكنة وتركت المسدس الرشاش تومبسون ورصاصاته الخطرة التي لا تنطلق أبداً في الوقت الملائم. وتابعنا توزيع الأسلحة فنال أفضل المقاتلين أحسن الأسلحة كما سرحنا أولئك الذين لم تعجبنا أوضاعهم في القتال ومن بينهم «المبتلين» وهم جماعة من الرجال سقطوا في الماء أثناء هروبهم الفوضوي عند سماعهم أولى الطلقات النارية. . وبرز في المعركة راميرو فالديس الذي قاد الهجوم والملازم راؤول ميركادر الذي قام مع بعض رجاله بدور حاسم.

في هذه المعركة الصغيرة وعند عودتنا إلى الجبال علمنا بنبأ إعلان الأحكام العرفية في البلاد وإعادة المراقبة. كما علمنا أن العدو قد سدد للثورة ضربة قوية بقتل الرفيق فرانك بايس في أحد شوارع سانتياغو. وهكذا انتهت حياة واحد من أنقى وأشجع رجال الثورة الكوبية. واندفع شعب سانتياغو وهافانا وباقي سكان كوبا إلى الشوارع باضراب مباشر شامل في شهر أغسطس (آب). وفي نفس الوقت أصبحت المراقبة الحكومية كاملة. وبدأت مرحلة جديدة اختفت فيها الغربان التي تدعي أنها من المعارضة. وضاعف جنود باتيستا عمليات القتل والاغتيال، حتى عمت أرجاء الجزيرة التي وقفت على أهبة الحرب.

وبموت بايس اختفى رجل من أنشط المقاتلين. غير أن اغتياله أثار مظاهرات ضخمة كانت دليلاً على انضمام قوى جديدة إلى الصفوف المعادية للنظام القائم، وبرهاناً جديداً على اشتعال جذوة روح القتال عند الشعب.

صراع الثورة ضد المجرمين وقطاع الطرق:

* سمحت لنا ظروف السبيرا في هذه الفترة بأن نعيش بحرية في منطقة واسعة لم يتمكن الجيش من احتلالها أبداً. بل إن بعض المناطق لم تطأها بتاتاً أقدام رجال الجيش. لكن سيطرتنا لم تكن كاملة بحيث تسمح لنا بوضع حد لأعمال عصابات المجرمين، تلك العصابات التي كانت تتستر تحت اسم العمل الثوري لتقوم بعمليات النهب وقطع الطرق وارتكاب كل أنواع الجرائم.

وكانت الظروف السياسية لاسبيرا حرجة نسبياً نظراً لسطحية ثقافة سكانها السياسية وكان وجود جيش العدو القوي والقادر على تهديد المناطق المجاورة يجعل كل جهودنا في معالجة هذه النقطة الضعيفة عبثاً لا جدوى منه.

وضيق العدو الخناق علينا وتتالت الظواهر التي تدل على أنه ينوي العودة ثانية إلى السبيرا. وأدى ذلك لإثارة ذعر السكان فبدأ بعضهم يبحث عن مبرر يستند إليه لترك المنطقة هادفاً التخلص من خطر عملية الاجتياح التي سيقوم بها مجرمو الدكتاتور. وركز سانشيز موسكيرا قيادته في إحدى

قرى لاس ميناس دو بوئيسيتو وبات من المؤكد أن عمليات اجتياح جديدة يجري الاستعداد لها.

ورغم هذه التهديدات تابعنا نشاطنا في وادي هومبريتو واضعين الأسس اللازمة لبناء منطقة حرة. فأقمنا في هذه السبيرا المعدمة البداية الأولى للنشاط الصناعي بأن أنشأنا مخبزاً. وكان في قطاع هومبريتو نفسه معسكر يعتبر قاعدة لتمويل قوات الثوار. وكان بعض الشبان الراغبين بالانضمام يحضرون إلى هذا المعسكر زرافات ووحدانا. ويباشرون العمل بإشراف بعض الفلاحين الموالين الذين نثق بهم ثقة كاملة. وانضم رئيسهم أريستيديو إلينا قبل معركة أوفيرو بيومين أو ثلاثة. ولكنه لم يشترك بالمعركة بسبب انكسار أحد ضلوعه. غير أنه لم يبد رغبة صريحة في متابعة القتال بعد شفائه.

وأريستديو هذا نموذج واضح للفلاحين الذين تسللوا إلى صفوف الثورة دون أن يكون لديهم الوعي الكافي. ولقد هداه تفكيره بعد فترة من التعامل معنا بأن من الأنسب البقاء بعيداً عن المتاعب «فباع مسدسه بثمن بخس وبدأ يردد أمام كل من يراه بأنه لا يريد أن يقبض عليه في عقر داره بكل بساطة عندما سيترك الثوار القطاع وأنه سيقوم بالاتصال بالجيش.. وصلتني هذه الأقوال من مصادر مختلفة في وقت كانت الثورة فيه تجتاز مرحلة خطيرة. فاستخدمت سلطتي كقائدة قطاع وبدأت القيام بتحقيق صغير تمّ إعدام الفلاح أريستيديو على أثره (لثبوت ضرره للثورة).

وكان هناك سؤال يعترضنا. هل كان أريستيديو مذنباً حقاً لدرجة يستحق معها الموت؟ أفلم يكن هناك مجال لإنقاذ حياته التي وضعها في خدمة الثورة في المراحل الأولى لبنائها؟ ولكن الحرب قاسية أليمة وفي الأوقات التي يضاعف العدو فيها نشاطه يصبح من الصعب التساهل والتسامح حتى ولو كان هنالك شك أو تخمين بوجود الخيانة. ولو وقع هذا الحدث قبل عدة أشهر لكان من الممكن إنقاذ رأس أريسيتديو بسبب ضعف الثورة. ولو أنه وقع بعد عدة أشهر لكان من الممكن أيضاً إنقاذ حياته لأننا غدونا أكبر قوة وأكثر ثقة بنفسنا. ولكن اريستديو اختار لسوء حظه لحظة تخاذله في

الوقت الحرج الذي كنا فيه أقوياء لدرجة تكفي لمعاقبته على جريمته بكل عنف، ولكن قوتنا لم تكن قد وصلت إلى درجة تسمح لنا بمعاقبته بشكل آخر حيث لم يكن لدينا سجن أو وسيلة عقاب أخرى.

وقررنا ترك المنطقة لفترة من الزمن فتحرك الرتل كله نحو «لاس كو كوس» على نهر ماجدالينا حيث كان علينا الاتصال بفيدل ثم أسر عصابة كاملة يقودها «الصيني» شانغ دأبت على نهب قطاع كاراكاس. واستطاع كاميلو أثناء انطلاقه على رأس قوة المقدمة أن يأسر بعض أفرادها قبل وصولنا إلى المكان. وتمت محاكمة رئيس العصابة «الصيني» شانغ في أحد أكواخ الفلاحين وصدر الحكم بإعدامه بتهمة ارتكابه مع رجاله جرائم قتل وتعذيب عدد كبير من الفلاحين وزرع الإرهاب والخوف في المنطقة باسم الثورة بالإضافة إلى سرقة ممتلكات الثورة. كما حكم على فلاح آخر من العصابة بالإعدام لأنه اغتصب صبية يافعة منتحلاً صفة «مبعوث» من قبل جيش الثورة. وحوكم بعدهما عدد لا بأس به من رجال العصابة وكانوا فتياناً جاءوا من المدن وفلاحين أغرتهم الحرية المجردة من كل قيد التي كان الصيني يمنيهم بها. وتم العفو عن معظمهم بعد أن دبرنا القيام بتمثيلية أمام ثلاثة منهم تجعلهم يفكرون مستقبلاً بصورة أفضل.

ولقد ربطنا «الصيني» والفلاح المغتصب بشجرتين من أشجار الغابة ونفذنا بهما حكم الإعدام. فواجها الموت بقسط وافر من ضبط النفس ومات الفلاح وهو مفتوح العينين ناظراً إلى البنادق المصوبة إليه وهو يهتف «عاشت الثورة» بينما قابل «الصيني» الموت بهدوء ولكنه طلب الاعتراف أمام الأب سارديناس الذي كان آنذاك بعيداً عن مكان معسكرنا واستحال علينا تنفيذ رغبته فطلب منا أن نشهد جميعاً على توبته الأخيرة معتقداً أن هذه الشهادة العامة ستخدمه كعامل مخفف فيما بعد.

وجاء دور التمثيلية التي أعددناها للفتيان الثلاثة. لقد كانوا غارقين حتى آذانهم في عمليات «الصيني» شانغ وموبقاته. ولكن فيدل رأى أن من الحكمة إعطاءهم فرصة لإصلاح أنفسهم. فعصبت عيونهم بعد أن أجريت أمامهم

الاستعدادات اللازمة لتنفيذ عملية الإعدام. ثم أطلق الجنود الرصاص في الهواء فلما وجدوا أنفسهم رغم ذلك أحياء جنوا من الفرح واندفع أحدهم نحوي وبحركة عفوية تفيض بالفرح والاعتراف بالجميل طبع على خدي قبلة عميقة كما لو أنه وجد نفسه أمام أبيه..

ولقد شاهد أندراوس سان جورج عميل المخابرات المركزية الأمريكية بعينيه هذه الأحداث فنشر بعدها في مجلة لوك تحقيقاً صحفياً اعتبره القراء في الولايات المتحدة أحسن تحقيق في تلك السنة درّ على كاتبه بلا شك المال الكثير..

ولو عدنا بذاكرتنا إلى الوراء لوجدنا أن أسلوبنا في السبيرا كان همجياً إلا أننا لم نكن نستطيع تطبيق غيره مع رجال منحرفين لم يكونوا في الحقيقية يستحقون الموت. ولكنهم كانوا يرتكبون سلسلة من الجرائم الخطيرة نسبياً.. ولقد انضم الفتيان الثلاثة الذين أبقينا على حياتهم إلى جيش الثورة وبلغني أن اثنين منهم يتمتعان بسلوك رائع. وبقي الثالث لفترة ضمن رتلي.. وكان يرد على أحاديث الجنود عن الحرب وعلى شكوك رفاقه بشجاعته وهو يقول متعاظماً: إنني لا أخاف الموت و«تشي» نفسه شاهد على ذلك.. ملمحاً طبعاً لقصة إعدامه الصورية. ثم أسرنا بعد ثلاثة أيام عصابة أخرى وسبب لنا أعدامها ألماً عميقاً. فقد كانت مؤلفة من فلاح يدعى ديونيزيو وصهره خوان ليبريجيو وهما من الأوائل الذي ساعدوا ثورتنا في بدايتها. إذ أن ديونيزيو قدم لنا مساعدة فعالة في كشف الخائن أوتيميو جيرا وقدم لنا العون في أحلك ساعات ثورتنا، ولكنه استخدم ثقتنا به فيما بعد بشكل واسع فأساء التصرف كصهره تماماً. واستولى على كل الامدادات التموينية التي كانت منظمات المدن ترسلها لنا، وإقامة عدة معسكرات يتم فيها ذبح الحيوانات بدون تميز بين أنواعها. ثم انزلق حتى وصل إلى حد ارتكاب جريمة القتل.

وفي هذه المرحلة في السبيرا كانت ثروة الرجل تقاس بعدد النساء اللواتي يعرفهن. وطبق ديونيزيو عادات وتقاليد السبيرا واستغل السلطات التي وضعتها الثورة بين يديه فأقام ثلاثة بيوت وضع في كل بيت منها امرأة مع كمية كبيرة من المواد الغذائية.. وعندما وجه إليه فيدل تأنيباً شديداً

أثناء المحاكمة لاستغلاله الثقة الممنوحة له وخيانته وتصرفه اللا أخلاقي ـ نظراً لأنه كان ينفق أموال الشعب على ثلاث من النساء ـ أجاب ديونيزيو بسذاجة ريفية أنه ليس هنالك ثلاث نساء بل اثنتان فقط، لأن الثالثة كانت زوجته الشرعية (وهذا صحيح..) وفي نفس الوقت الذي أعدمنا فيه هذين الرجلين تم إعدام جاسوسين من جواسيس ماسفيرير قبضنا عليهما متلبسين بالجرم المشهود. بالإضافة إلى فني يدعى ايشيفاريا كان مكلفاً بمهمات خاصة في الحركة. ورغم أن أسرة ايشيفاريا قد قدمت لجيش الثورة مقاتلين أكفاء (وأحد أخوة هذا الفتى كان معنا أثناء النزول من غرانما) ولكن هذا الفتى بعد أن شكل عصبة صغيرة ومكث ينتظر قدومنا للانضمام إلينا وقع تحت تأثير إغراء نجهله، وقام بهجمات مسلحة للنهب والسلب داخل منطقة الثورة وكانت آخر لحظاته مفجعة إذ اعترف فيها بكل أخطائه ولكنه لم يكن يستطيع تقبل فكرة إعدامه رمياً بالرصاص فبدأ يرجونا أن نتركه يموت في المعركة المقبلة. واقسم أنه سيبحث في هذه المعركة عن الموت وأنه لا يريد إلا إنقاذ اسم الأسرة من العار. ولكن المحكمة أصرت على تنفيذ الحكم عليه بالموت فكتب ايشيفاريا رسالة طويلة مؤثرة لأمه يشرح لها فيها عدالة الحكم الذي أصابه ويطلب منها أن تبقى مخلصة للثورة.

وكان آخر الذين نفذ بهم حكم الإعدام شخص يدعى «المعلم» الذي تحدثنا عنه سابقاً والذي تعرفنا به في ظروف صعبة عندما كنت أسير برفقته على غير هدى في هذه الجبال وأنا مريض. ولقد انفصل عنا بعد تلك المعركة مباشرة بحجة إصابته بمرض. ثم انغمس بعد ذلك في حياة المجون. ومن أعماله أنه انتحل شخصية الدكتور «جيفارا» واستغلها في محاولة اغتصاب فلاحة صغيرة كانت بحاجة إلى معالجة سريعة. لقد ماتوا جميعاً وهم ينادون بتعلقهم بالثورة ما عدا جاسوس ماسفيرير. إنني لم أحضر الموقف شخصياً. إلا أن الذين شاهدوه حدثوني عنه وقيل لي إن الأب سارديناس «وكان موجوداً آنذاك» تقدم من أحد المحكومين ليباركه قبل موته فقال له هذا الرجل: «اسمع يا أبتاه، اذهب عني إلى غيري لعله بحاجة إلى ذلك لأنني في الحقيقة لا أؤمن كثيراً بهذه الأمور..».

بهؤلاء الرجال بدأت الثورة. لقد كانوا في البداية مجرد متمردين على كل ظلم وطغيان تعضهم الوحدة بأنيابها، ثم اعتادوا على الاهتمام بمكاسبهم الشخصية متناسين هدفهم في قلب النظام الاجتماعي. فما أن خففت الثورة مراقبتها بعض الشيء حتى انزلقوا في أخطاء قادتهم إلى ارتكاب الجرائم بسهولة ويسر غريبين. ومع أن ديونيزيو وخوانيتو ليبريجيو لم يكونا أسوأ خلقاً من الأحداث الذي سامحتهم الثورة بعد ذلك والذين لا يزال بعضهم حتى اليوم في صفوف جيشنا، إلا أن الوضع آنذاك كان يتطلب السيطرة على الموقف بقبضة فولاذية. وكان من الضروري فرض عقاب رادع وكاف لإيقاف كل محاولة لخرق الانضباط وقادر على اجتثاث الجذور الفوضوية التي بدأت تتغلغل في هذه المنطقة المحرومة من وجود حكومة ثابتة. لقد كان المجال متاحاً أمام ايشيفاريا ليصبح بطلاً من أبطال الثورة ومناضلاً ممتازاً كأخويه الضابطين في جيش الثورة. ولكن حظه العاثر دفعه إلى ارتكاب جريمته في هذه الظروف فدفع حياته ثمناً لها. ولقد ترددت قبل ذكر اسمه على هذه الصفحات ولكن موقفه أثناء المحاكمة وبعدها كان محترماً وثورياً. وبقي صلباً أمام الموت فاعترف بكل ثبات بعدالة الحكم بشكل جعلنا نرى في نهايته سموا بالنسبة له. لقد كان أمثولة حزينة قدمت العبرة الرادعة أمام أعين الجميع حتى يعرفوا ضرورة جعل ثورتنا عملاً طاهراً نقياً من كل أعمال الإجرام التي هي إرث دكتاتورية باتيستا.

وقام بدور المحامي خلال هذه المحاكمات رجل لجأ إلى السبيرا بعد مناقشات حادة بينه وبين قادة ٢٦ يوليو في السهل واسمه «سوري ماران» وغدا فيما بعد وزيراً للزراعة في عهد الثورة حتى اللحظة الحاسمة التي تم فيها إصدار قانون الإصلاح الزراعي الذي وقعه الآخرون بعد أن رفض توقيعه[1].

---

(١) نص دستور ١٩٤٠ في كوبا على الإصلاح الزراعي ولكن المجالس النيابية كانت تتردد وتحجم عن إصدار القوانين اللازمة خشية غضبة كبار الملاك وأصحاب الاحتكارات الأجنبية. ولقد نادت الثورة منذ أيام السبيرا بالإصلاح الزراعي. وعندما سقطت =

وعندما فرغنا من تنفيذ مهمتنا الأليمة وخيم السلام والنظام على أرجاء المنطقة التي أخذ جيش الثورة على عاتقه إدارتها سرنا عائدين باتجاه منطقة هوميريتو. وكان رتلي موزعاً على ثلاث فصائل، وسار على رأس المقدمة كاميلوسيا نفوغوس ومعه أربعة ملازمين هم: اوريستس وبولدو وليفا ونودا. بينما تولى النقيب راؤول ميركادر قيادة الفصيلة الثانية ومعه الملازمون الفونسو زاياس وأورلاندو بوبو وبابلو كابريرا. أما مفرزة القيادة فكانت بإمرة راميرو فالديس يساعده الملازم خويل ايجليسياس الذي لم يكن قد تجاوز السابعة عشرة من عمره عندما كان يقود رفاقاً تجاوزوا الثلاثين وكان يخاطبهم بصيغة الجمع ويردون عليه بصيغة المفرد إلا أنهم كانوا يطيعونه بكل انضباط. أما فصيلة المؤخرة فكانت بقيادة سير ريد وندو ويساعده فيلو أكونا وفيليكس ريس وويليام رود ريغس وكارلوس ماس.

وفي أواخر أكتوبر (تشرين أول) سنة ١٩٥٧ عدنا إلى التمركز في هومبريتو. وكان علينا أن نقيم جهازاً دفاعياً عن كل القطاع بعد أن تولينا مهمة حمايته. وبدأنا بوضع مخطط لمحطة كهربائية صغيرة أردنا إقامتها على سيل هومبريتو بمساعدة طالبين قدما من هافانا إلينا مؤخراً وأصبح أحدهما فيما بعد مهندساً وغدا الآخر طبيباً بيطرياً.. كما أسسنا أيضاً مطبعة لإصدار صحيفتنا، وكان لدينا آلة ناسخة (جستنتز) قديمة جاءتنا من السهل. وقدمت

= الدكتاتورية ونجحت الثورة ظهرت الاختلافات داخل الحكومة الثورية حول هذا الموضوع، وظهر خلال فترة رئاسة أوروتيا أن الثورة لا تزال مرتبكة في تناقضاتها ولا تستطيع حسم الأمر وأن في داخلها يميناً ووسطاً ويساراً. وفي ٥٩/٢/١٥ أصبح كاسترو رئيساً للوزراء فحسم كل خلاف وأصدر مجلس الوزراء في ١٧ مايو/ أيار/ ١٩٥٩ قانون الإصلاح الزراعي الذي ألغى الملكيات الزراعية الكبيرة (لاتيفوندا) مع التعويض على أصحابها بسندات وحدّد حدوُد الملكية الزراعية بثلاثين كاباليرية (٤٠٠ هكتار) وحرم على الأجانب امتلاك الأرض الكوبية ونظم العمل ضمن التعاونيات الزراعية حتى لا يتم توزيع الأراضي توزيعاً يسيء إلى زراعة قصب السكر المبنية على الزراعة الواسعة: «فيدل كاسترو» «ثورة كوبا» و(جان بول سارتر «عاصفة على السكر»)..

لنا هذه الآلة القديمة خدمة ثمينة وسمحت لنا بأن نطبع أول أعداد صحيفة (الكوبي الحر) وكان الطالبان ليونيل رود ريغيس وريكاردينو ميدنيا يتوليان تحريرها وطبعها.

وهكذا استفدنا من مساعدة وحماية وكرم أهالي ضفتي وادي همبريتو وبخاصة صديقتنا الشجاعة (العجوز) شانا كما ندعوها جميعاً. وبدأنا بتنظيم حياتنا الثابتة بعد طول ترحال كما بدأنا أخيراً ببناء فرن في كوخ قديم مهجور حتى لا نقدم للطيران بناء جديداً كهدف لقذائفه. وصنعنا بعد ذلك علماً كبيراً لـ ٢٦ يوليو كتبنا عليه: عام سعيد ١٩٥٨ رفعناه خفاقاً على أعلى هضبة في منطقة هومبريتو حتى يستطيع الناس رؤيته من بعيد اعتباراً من ميناس دوبوئيسيتو. وبدأنا نجوب المنطقة لندعم فيها سلطتنا ونعطيها شكلاً واضحاً. وكنا بنفس الوقت نستعد لصد أي هجوم مفاجئ يقوم به سانشيز موسكيرا وذلك بإنشاء التحصينات على المسالك الصالحة لتقدم العدو.

مضي سنة على الثورة والصراع المسلح:

* في مطلع عام ١٩٥٨ كنا قد خلفنا وراءنا أكثر من سنة من الصراع. وخلال الفترة الممتدة من الانزال والهزيمة الدامية في «اليجريادوبيو» وحتى معركة أوفيرو كانت قواتنا تتصف بوجود رتل واحد من الثوار يقوده فيدل كاسترو. كما كانت تتصف بالحركة المستمرة (ولنسمِّ هذه المرحلة: مرحلة الترحال). وفي الفترة ما بين ٢ ديسمبر (كانون أول) و٢٨ مايو (آيار) تم الارتباط مع المدينة ببطء واثبت قادة الحركة في السهل عدم تفهمهم التام لأهميتنا كطليعة للثورة وعدم تقديرهم لقيمة فيدل كاسترو الذي يترأس هذه الطليعة. ومهما كان الأمر بالنسبة لنا خلال الأشهر الأولى، فقد كان علينا أن نصمد ونقوي النواة الثورية.

أما موقف الفلاحين منا فكان يتقلب بتقلب الأحداث. فبعد كارثة «اليجپريادوبيو» مباشرة تعاطف هؤلاء المواطنون معنا بحماس وقدموا لنا الدعم المباشر بلا حدود. وبعد تجمعنا وبدء الاشتباكات مع قوات الحكومة

قامت السلطات بعمليات قمع شديدة خاف منها الفلاحون وأصابهم ذعر شديد، وبدأوا يتصرفون حيالنا ببرود. وكان وضعهم ـ بلا جدل ـ دقيقاً جداً، إذ كان عليهم إعلام المسؤولين فوراً عند ظهورنا بينهم وإلا تعرضوا لعقاب وخيم بمجرد أن تصل أخبار وجودنا إلى المسؤولين عن غير طريقهم. ولكنهم إذا ما فعلوا ذلك وكشفوا مكاننا هزهم تأنيب ضميرهم وعرضوا أنفسهم لعقاب العدالة الثورية.

وبرغم هذا الموقف المناوئ أو المحايد الذي كان يتخذه هؤلاء الفلاحون الجبليون المعرضون للارهاب وغير المضمونين والذين كانوا يفضلون أحياناً ترك السبيرا على أن يتخذوا أي موقف حيال هذه المعضلة، استطاع جيشنا الثائر أن يعيش ويفرض بالتدريج سيطرته على المنطقة وينشر سلطته على قطاع كبير من سبيرا مايسترا يمتد من شرق قمة توركينو حتى حدود قمة كاراكاس في الغرب شاملاً المنطقة المطلة على البحر من الجنوب التي تمتد شمالاً حتى تصل إلى القرى والدساكر القائمة على سفوح المايسترا، تلك القرى التي كان الجيش يحتلها. وبعد أن شعر الفلاحون بثبات وشموخ ثورتنا وبأننا عقدنا العزم على الاستمرار في القتال حتى النصر، بدأوا يتصرفون بشكل منطقي وينضمون إلينا ويقاتلون إلى جانبنا فضاعفوا عدد قواتنا بتجمعهم حولنا. عندها تشبث جيش الثورة بالأرض لأن أهل الفلاحين الثائرين كانوا من سكان المنطقة وهذا ما كنا نسميه مرحلة تثبيت أقدام الثورة.

دامت فترة تقوية جيشنا حتى معركة بينوديل أجوا الثانية في ١٦ فبراير (شباط ١٩٥٨) ولم نكن أقوياء بشكل كاف لمهاجمة مواقع العدو المحصنة التي يسهل الدفاع عنها. وكان العدو يكتفي بدوره بالبقاء في مواقعه دون أن يتقدم نحونا. وبعد هذا الهجوم الثاني الذي اشتركت فيه كل قواتنا بقيادة فيدل نفسه توسعت منطقة عملياتنا وتم تشكيل رتلين آخرين هما: الرتل السادس بقيادة راؤول ويحمل اسم «فرانك يابس» ورتل يقوده الميدا.

إن علينا عند وصف صراع البلاد خلال سنة أن نذكر المحاولات التي

قامت بها مجموعات أخرى من المقاتلين وانتهت جميعها إلى نتائج أليمة وفشل ساحق. ففي ١٣ مارس (آذار) ١٩٥٧ هاجمت منظمة الطلاب مقر الرئاسة لقتل باتيستا. وكانت نتيجة هذه المحاولة مقتل عدد كبير من المقاتلين الممتازين وعلى رأسهم ايشيفاريا رئيس اتحاد الطلاب الجامعيين.

وبعد عدة أشهر، وفي شهر مايو (أيار) حاولت مجموعة أخرى القيام بانزال ودخل في صلبها عناصر عديدة مدسوسة منذ تجمعها في ميامي حيث كان الخائن بريو يمولها. ولقد أبيدت هذه القوة تقريباً. وسبق لي التحدث عن حملة كورنتيا التي قادها كاليكستو سانشيز وقتل جميع أفرادها تقريباً على يد جنود كاولي سفاح منطقة شمال أوريانت والذي أعدمه فيما بعد أعضاء منظمتنا.

وحاولت عدة مجموعات من المقاتلين الثبات في منطقة أسكامبرى وكان البعض تابعاً لحركة (٢٦ يوليو) بينما ارتبط البعض الآخر بالإدارة. فأبيدت مجموعة الإدارة تقريباً لأن أحد أفرادها ويدعى جوتيبريز مينويو خان مجموعته. ثم خان الثورة بعد ذلك وفر لاجئاً إلى الولايات المتحدة. وشكل المقاتلون المخلصون للإدارة رتلاً خاصاً بقيادة الرائد شومون الذي كان في الأصل من الجبهة الشرقية في منطقة أسكاميري. وتشكلت نواة صغيرة في سبيرا دو كريستال ونواة أخرى في سبيرا دو باراكوا ضمن خليط من الثوار الحقيقيين والمرتزقة النفعيين الذين اضطر راؤول فيما بعد إلى تطهير المنطقة منهم مستخدماً قوات الرتل السادس.

ويجب ألا يفوتنا ذكر العصيان الذي قامت به القاعدة البحرية «سيانفوغوس» في ٥ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٧ بقيادة الملازم سان رومان الذي أعدم فوراً بعد فشل العصيان. ولقد تم تحضير العصيان قبل فترة طويلة. ولم يكن من المفروض أن يعمل منعزلاً لوحده بل بالتعاون مع عمليات مماثلة نظمها في قلب القوات المسلحة بعض العسكريين الشرفاء أي الذين لم ينغمسوا في جرائم الدكتاتور ولكنهم كانوا ـ كما عرفنا فيما بعد ـ مدفوعين من قبل الأمبريالية الأمريكية ـ ولسبب من الأسباب أجلت العملية

إلى وقت آخر غير أن امر التأجيل لم يبلغ للقاعدة البحرية سيانفوغوس في الوقت المناسب لذا لم يستطع المشتركون إصدار الأوامر المعاكسة في أوانها. وسيطر المشتركون منذ اللحظة الأولى على الموقف. ولكنهم ارتكبوا خطيئة فاحشة بأنهم لم يتحركوا نحو سبيرا دواسكا ميري رغم أنهم كانوا يسيطرون على المدينة وبيدهم كل الإمكانيات للذهاب بسرعة وخلال عدة دقائق إلى الجبل لتشكيل جبهة قوية هناك.

واشترك في العملية بعض المسؤولين الوطنيين والمحليين التابعين لحركة / ٢٦/ يوليو وشارك الشعب القوات المسلحة بحماس كبير وحمل بعض أفراده السلاح. فهل وجد قادة الحركة أنفسهم أمام هذه المظاهرات مضطرين أدبياً للبقاء في المدينة المحتلة؟ والمهم أن نلاحظ أن الأحداث جرت بعد ذلك بتسلسل معهود في مثل هذا النوع من الأعمال التي يذكر التاريخ عدداً لا بأس به منها. ولعب عدم اهتمام العسكريين المحترفين جدياً بالنضال الثوري وعدم إيمانهم بالحرب الثورية كتعبير عن المقاومة الشعبية دوراً هاماً. وهكذا وجد المشتركون في عصيان سيانفوغوس أنفسهم ضائعين بدون دعم زملائهم في السلاح الذين لم ينفذوا معهم الحركة في الوقت المحدد، فقرروا التمسك بالمدينة المستندة إلى البحر والدفاع عنها حتى الموت. عندها جمع العدو قواته ووجهها نحوهم وتمكن من سحقهم بفضل تفوقه العددي الكبير. ولم تتمكن حركة «٢٦ يوليو» المشتركة بدون سلاح من تعديل ميزان القوى حتى ولو توقع قادتها النتيجة النهائية مع العلم أن هؤلاء القادة لم يتوقعوا ذلك. وكان هذا العصيان درساً للمستقبل يوضح «أن من يملك القوة يحدد الاستراتيجية».

وكانت المذابح الكبيرة في المدن، وفشل الدكتاتورية المستمرة، وعمليات القتل التي تقوم بها دليلاً على أن الحرب الثورية في أرض ملائمة هي التعبير الأمثل عن المقاومة الشعبية وأقل الأساليب خسارة بالنسبة لدماء أبناء الشعب. فبينما كانت خسائرنا من الرجال تعد على الأصابع بعد ثبات الثورة (وهم رجال اشتهروا بالشجاعة والبسالة في القتال) كانت المدن تخسر عدداً لا بأس به من الثوار الشجعان المصممين على القتال وتخسر معهم

عدداً كبيراً من الرجال الأقل إقداماً بالإضافة إلى كثير من الغرباء عن النضال. وأصبح واضحاً أن المدن تفسح المجال بصورة أكبر لعمليات القمع التي يخسر فيها الأهالي المزيد من الأرواح.

وما إن أشرفت السنة الأولى للصراع على الانقضاء حتى كانت الجزيرة كلها مسرحاً للاضطرابات وتضاعفت عمليات التخريب. وكان بعضها معداً بعناية ومنفذاً بأيدي خبيرة ماهرة بينما لم يكن بعضها الآخر أكثر من عمليات إرهابية عادية نظمها أفراد متحمسون لا يأبهون بما تخلفه وراءها من نتائج مؤلمة وخسائر كبيرة بالأرواح تذهب هباء دون أن تقدم لقضية الشعب فائدة محسوسة.

وتضاعفت فاعلية موقفنا العسكري في وقت كنا نعيش فيه مع باتيستا في جو من السلام المسلح ولم يعد قادة جيشه قادرين على الصعود إلى السبيرا ولم تكن قواتنا قادرة على النزول منها وحاول العدو باستمرار إحكام الحصار حولنا ولكننا كنا نتسرب دائماً من خلال صفوفه دون أن يرانا.

وكانت المتطلبات الشخصية للثائر بسيطة. فهو يحتاج، للصمود كإنسان، إلى القليل من الطعام والملبس وبعض الأدوية البسيطة الضرورية. أما الصمود كثائر فكان بحاجة لأسلحة وذخائر ووسائل ثقافية تنمّي وعيه السياسي. ولتأمين هذا الحد الأدنى للمعيشة كنا بحاجة لشبكة مواصلات واستعلامات.

وفي البداية كان عددنا حوالي ٢٠ شخصاً يستهلكون كمية قليلة من الطعام نطبخه من خضار السبيرا مع بعض الدجاج في أيام الرفاه. كما كنا نشتري أحياناً لحم الخنزير وندفع ثمنه للفلاحين بضمير نقي. فلما تزايد عدد قواتنا وتعددت الجماعات الراغبة بالتدريب على القتال وجدنا أنفسنا مضطرين للحصول على تموين أكبر. ولم يكن فلاحو السبيرا يملكون المواشي، فهم فقراء يسدون رمقهم بشق الأنفس. ولولا مزارع البن لما استطاعوا شراء الضروريات التي يحتاجون إليها من المواد الغذائية كالملح الذي يندر وجوده في الجبال. ولقد طلبنا من بعض الفلاحين أن يزرعوا لحسابنا بعض الفاصولياء

والذرة والأرز. . الخ بعد أن وعدناهم بشراء جميع المحصول. كما أننا اتفقنا مع بعض تجار القرى المجاورة على أن يرسلوا إلينا التموينات والتجهيزات التي نحتاجها، فنشأت بذلك قوافل البغال التابعة لقوات الجيش الثوري.

أما الحصول على السلاح فكان مشكلة أكثر تعقيداً، فبالإضافة إلى المتاعب الطبيعية الناجمة عن الانعزال الجغرافي جاءت حاجات السهل وامتناعه عن إرسال السلاح إلى الثورة. واضطر فيدل إلى خوض مناقشات مريرة ليقنع قادة السهل بإرسال الأسلحة إلينا. والدفعة الوحيدة من الأسلحة التي تستحق الذكر (باستثناء الأسلحة التي حملها المقاتلون معهم بأنفسهم) كانت مجموعة من بقايا الأسلحة التي استخدمت في مهاجمة قصر الرئاسة، والتي تم نقلها كما رأينا بالاتفاق مع عائلة بابون، وهي عائلة كبار الملاكين وتجار الأخشاب.

وكانت الذخيرة تنقصنا إذ أننا كنا نستلمها بدفعات قليلة وبدون الوسائل اللازمة لحملها ونقلها (كالجعب والمخازن. . الخ) وكانت عملية إنشاء المصانع أو تجهيز وتعبئة الذخيرة بالطرق اليدوية أمراً مستحيلاً باستثناء ذخيرة خفيفة كان الاخصائيون بإصلاح الأسلحة يعيدون تجهيزها بالبارود والطعم والرصاصة. ولكننا لم نكن نستخدم هذا النوع من الذخيرة المحلية إلا في البنادق العادية بسبب كثرة استعصاءاتها في الأسلحة الآلية وتأخيرها لسير حركتها.

وفي هذه المرحلة أسسنا عدة مستشفيات. وتم إنشاء أحدها في المنطقة التي كنت مسؤولاً عنها. واخترنا لهذا المستشفى مكاناً مخفياً عن الأنظار الجوية ويصعب الوصول إليه مما يوفر بعض الحيطة للجرحى. إلا أن رطوبة الجو الناجمة عن الغابات الكثيفة جعلت جو هذا المستشفى غير صحي يزعج الجرحى والمصابين. وأشرف على تنظيم هذا المستشفى الرفيق سيرجيو ديلفال في حين تولى الأطباء مارتينز بائيز وفالليخو وبيتي فاخارد وتنظيم المستشفيات المماثلة في رتل فيدل. ثم تحسنت أوضاع هذه المستشفيات في السنة التالية.

أما حاجة قواتنا من جعب الذخيرة والحقائب والمزاود والأحذية فقد تم تأمينها بواسطة مصنع صغير أقمناه في قطاعنا. ولقد حملت بنفسي أول عمرة (كاب) انتجها هذا المصنع إلى فيدل وأنا اختال زهوا. ولكنني صدمت بعنف عندما سخر مني الرفاق لأنني صنعت قبعة (Guaguero) ولم أفهم الكلمة جيداً. ولم يتعاطف معي سوى مساعد رئيس بلدية مانزا نيللو الذي جاء لزيارتنا وإجراء الشكليات اللازمة للانضمام إلينا. وأكد هذا التعاطف بأن أخذ العمرة معه كتذكار.

وكانت ورشة الحدادة وتصليح الأسلحة المعطلة أحسن منشآتنا الصناعية وكنا نضع فيها القنابل والألغام والـ١٦. وفي بداية الأمر صنعنا الألغام من الصفيح وملأناها بمحتويات قذائف العدو التي كانت تسقط دون أن تنفجر. ولم تكن هذه الألغام البسيطة كبيرة الفاعلية وكانت مجهزة بإبرة تعمل على الضغط وبطعم صاعق كثير الاجداب. ثم خطر ببال أحد الرفاق بعد مدة أن يستخدم قذائف المدفعية نفسها للعمليات الكبيرة وذلك برفع مشعلها والاستعاضة عنه ببندقية وطلقة حيث كنا نطلق النار من بعيد بأن نشد الزناد بحبل طويل يتم بعده الانفجار. ثم ما لبثنا أن أدخلنا تحسينات على هذا الشكل، فكنا نصنع جسماً أجوف من الحديد الصب ونضع في داخله صاعقاً كهربائياً. وكانت نتائج هذا اللغم أفضل بكثير. ومع أننا كنا البادئين في إقامة هذه الصناعة في قطاعنا فإن فيدل دفع مشروع التصنيع خطوات كبيرة إلى الأمام ثم جاء بعده راؤول وسار على نهجه في مركز عملياته.

ومما أدخل البهجة إلى قلوب المدخنين في قواتنا إنشاء مصنع للسيجار أخذ ينتج كمية من السيجار رديئة الصنع إلا أنها بدت لنا لذيذة حيث لم يكن هناك غيرها. . .

أما تزويد مذبح جيش الثورة بالمواشي فكان يتم بالمواشي المصادرة من الجواسيس أو ملاك الأراضي. وكنا نوزع اللحوم بالقسطاس فنعطي الفلاحين قسماً ونحتفظ لنفسنا بالباقي. وبدأنا بنشر أفكارنا بإنشاء صحيفة صغيرة هي صحيفة «الكوبي الحر» واستطعنا إصدار ثلاثة أو أربعة أعداد

بإدارتنا. ثم كلف بهذا العمل لويس أورلاندو وورود ريغس. ثم اسندت هذه الوظيفة نهائياً إلى كارلوس فرانكي حيث زودها بدفعة فكرية قوية جديدة.

وأصبح لدينا في نهاية هذه السنة من الحرب جهاز إرسال إذاعي صغير أذعنا عن طريقه أول بيان رسمي في فبراير (شباط) ١٩٥٨ وكان من مستمعينا بيليتشو، وهو فلاح يقطن كوخاً على الهضبة المقابلة لجهاز الإرسال، وفيدل الذي كان يتردد على معسكرنا أثناء التحضير لعملية هجوم بنوديل أجوا الثاني فيسمع البث من جهة استقبالنا. ثم حسّنا مع الزمن الوضع الفني لإذاعتنا.

ولم تكن المساعدة تصلنا في هذه المرحلة من الأهالي القرويين فحسب بل من البورجوازية المدنية أيضاً. وكانت خطوط مواصلاتنا تصل إلى القرى والمدن التالية: كونترا مايسترى وبالما وبوئيسيتو ولاس ميناس دو بوئيسيتو واسترادا بالما وبايامو ومانا نزانيللو وجيزا. وهذه النقط التي عددتها كانت عبارة عن نقط اتصال يتم فيها تحميل البضائع على ظهور البغال وإرسالها إلينا عبر سبل السبيرا المخفية. أما رفاقنا الذين كانوا يتدربون على القتال ولم يكن لديهم أسلحة بعد فكانوا ينزلون تحت حماية بعض رجالنا المسلحين إلى أقرب الدساكر (ياؤو أو لاس ميناس) فيحملون على ظهورهم البضائع من دكاكين المنطقة وينقلونها إلى مخابئنا. والمادة الوحيدة التي لم تكن تنقصنا في السبيرا هي البن بينما كنا نعيش أحياناً بلا ملح مع أنه عنصر هام جداً للحياة.

ثم تزايدت شبكات الاتصال وتعقدت وأصبحت تصل إلى كاما جوى وهافانا غرباً وسانتياغو دي كوبا في الشرق. وشق إرسالنا الإذاعي طريقه عبر الأثير وعرفت المنطقة كلها بوجودنا وتصميمنا على القتال وبدأ جهاز جمع المعلومات يعمل بشكل رائع، فلم يعد التردد يخيم على الفلاحين بل إنهم باتوا يعلموننا لا عن وجود العدو في المنطقة فحسب بل وعن وجود أي كائن غريب عن القطاع بشكل أمّنا معه إمكانية توقيف كل دخيل والتحقيق

معه لمعرفة حقيقة نشاطه. وتمكنا بذلك من إبادة عملاء الجيش وجواسيسه الذي تسربوا إلى المنطقة لإحصاء حركاتنا وكشف أعمالنا.

أما الصراع السياسي فقد كان معقداً ومتناقضاً بآن واحد. فقد كان باتيستا يعتمد على مجلس نيابي منتخب بكيفية تضمن له الحصول على أغلبية دستورية لمصلحته. وكان من الممكن التعبير عن الأفكار المعارضة في الفترة التي كانت فيها البلاد بمأمن من المراقبة. ولكن تياراً من الأصوات الرسمية وشبه الرسمية كان يدعو إلى الوحدة الوطنية. وانتقلت هذه الدعوة من إذاعة إلى أخرى حتى عمت الجزيرة بأكملها. وانضم صوت أمير ويلو الهستيري إلى أبواق المهرجين أمثال باردولادتا وكونت أجوبرد والذي قدم بقلمه للإذاعة الرسمية بضع مقالات داعيا «الأخ فيدل» إلى التعايش السلمي مع النظام القائم.

وكانت المعارضة مقسمة إلى عدد كبير من المجموعات الصغيرة التي لم يكن هناك ما يجمعها سوى الرغبة في الاستيلاء على السلطة (أي الثورة العامة) مما أدى إلى نشوء خلافات وصراع عنيف حول التسابق إلى النصر. وكانت هذه المجموعات بأكملها ملغومة بعملاء باتيستا الذين كانوا يتحركون في الوقت الملائم ويقتلون في المهد كل حركة يخشى الدكتاتور اتساع نطاقها. وبالرغم من صفات المغامرة والانتهاز التي كانت هذه المجموعات تتمتع بها فإنها قدمت بعض الضحايا كان من بينهم أبطال وطنيون حقيقيون. وكانت الفوضى في المجتمع الكوبي عارمة لدرجة ترى فيها رجالاً أشرافاً وشجعاناً يفدون بحياتهم أشخاصاً تافهين مثل بريو سوكاراس.

واتخذت إدارة الطلاب طريق النضال المسلح ولكنها لم تقترب من «الحركة» وانضم الحزب الاشتراكي الشعبي P.S.P إلينا في بعض المواقف المحددة. ولكن الشك المتبادل بيننا كان يعرقل كل عمل مشترك. أما حزب العمال فإنه لم يفهم بصورة عامة دور ثورتنا بوضوح ودور فيدل الشخصي في صراعنا الثوري. وخلال أحد اللقاءات الأخوية طلبت من أحد زعماء الحزب الاشتراكي الشعبي P.S.P أن ينقل رأيي الذي يمثل تلك المرحلة

تمثيلا حقيقياً إلى الزعماء الآخرين قائلاً: «أنتم قادرون على خلق الكادرات المؤهلة لقبول التضحية بنفسها داخل السجون دون أن تلين قناتها، ولكنكم لا تملكون الكادرات القادرة على الانقضاض على أعشاش الرشاشات».

وكان في داخل حركتنا اتجاهان (كما رأينا) هما اتجاه السبيرا (الجبل) واتجاه (السهل). وكان اتجاه السبيرا متأكداً من قدرته على متابعة الصراع الثوري وتأمين امتداده ونقله إلى أماكن أخرى بهدف الوصول في النهاية إلى تطويق المدن الرازحة تحت الظلم حتى تسبب إنهاك الجهاز الدكتاتوري وانفجاره. أما حركة السهل فقد اتخذت منهجاً بدا أكثر ثورية. وهو خط الصراع المسلح في كل المدن الذي يتوّج اضراب عام يهدف إلى قلب نظام باتيستا ويستعد للاستيلاء على السلطة بسرعة. وكانت هذه العملية بعيدة عن الواقعية لأن أفكار رفاق السهل السياسية كانت فقيرة كما أن معلوماتهم عن الاضراب العام كانت ضيقة جداً، إذ أن دعوتهم إلى القيام باضراب عام مفاجئ دون أي أعداد سياسي أو عمل جماهيري عبارة عن خطوة مباشرة نحو فشل ٩ أبريل (نيسان) من العام التالي.

ولقد كان هذان الاتجاهان ممثلين في القيادة الوطنية للحركة التي طرأ على تشكيلها تعديل أثناء الصراع. وكانت القيادة الوطنية خلال الفترة الواقعة بين مرحلة التحضير وذهاب فيدل إلى المكسيك مؤلفة من: فيدل وراؤول وفوستينو بيريز وبيدرو ميريت ونيكو لوبيز وأرماندو هارت وبيبي سواريز وبيدروا جوبليرا ولويس بونيتو وخيسوس مونتانه وميليا هيرناندز وهايدي سانتا ماريا، إذا ما صحت معلوماتي. لأنني لم أكن بينهم في هذه الفترة. إنما استقيت معلوماتي بعد ذلك من الوثائق القليلة. وبسبب عدم التفاهم ترك بيبي سواريز ولويس بونيتو وبيدروا جويليرا القيادة. وعندما كنا في المكسيك انضم إلى القيادة كل من ماريو هيدالجو وآلدو سانتا ماريا وكارلوس فرانكي وغوستافو آركوس وفرانك بايس. وكان فيدل وراؤول الوحيدين من بين هؤلاء الرفاق اللذين وصلا إلى السبيرا وبقيا فيها. أما فوستينو بيريز رفيق «غرانما» فقد انصرف إلى الاهتمام بالصراع في المدن بينما ألقي القبض على بيدرو ميريت قبل تركه المكسيك بعدة ساعات، وبقي فيها حتى السنة التالية

حيث عاد إلى كوبا مع شحنة من الأسلحة. كما قتل نيكو لوبيز بعد عدة أيام من الإنزال. وأسر أرماندو هارت في آخر السنة كذلك وقع بالأسر أيضاً كل من جيسوس مونتانه وماريو هيدالجو بعد النزول من «غرانما» كما تطوعت ميليا هيرناندز وهايدي سانتا ماريا للكفاح في المدن. والتحقت سانتا ماريا وكارلوس فرانكي بالسبيرا في السنة التالية ولم يكونا فيها في عام ١٩٥٧. بينما كلف غوستافو بالبقاء في المكسيك لتأمين الاتصالات والتموين. وكلف فرانك بايس بالاشتراك في الصراع داخل سانتياغو وقتل في يوليو (تموز) ١٩٥٧.

ومن بين المتطوعين الجدد في السبيرا سيليا سانشيز التي بقيت معنا طيلة عام ١٩٥٨ وفيلما إيسبان التي كانت تعمل في سانتياغو دي كوبا ثم انضمت إلى القتال ضمن رتل راؤول. أما مارسيلو فيرناندز الذي كان يعمل كحلقة اتصال مع الحركة فقد حل محل فوستينو بعد اضراب ٩سبتمبر (أيلول) وبقي معنا عدة أسابيع ثم عاد إلى عمله في المدن، بينما صعد إلى السبيرا رينيه راموس لاتور الذي كان مكلفاً بتنظيم الميليشيا في السهل، والتحق بنا بعد فشل اضراب ٩سبتمبر (أيلول) ثم مات في موقف بطولي في اشتباكات السنة الثانية للحرب وهو يحمل رتبة رائد. أما دافيد سلفادور الذي كان مكلفاً بالحركة العمالية والذي طبع هذه الحركة بنفعيته وأنانيته فقد خان الثورة بعد ذلك. (وهو الآن في السجن).

نستخلص من كل ذلك أن معظم رفاق السهل خلال هذه المرحلة كانوا غير مستعدين لتقبل تطورات النضوج الثوري بسبب أصولهم السياسية. فقد كانوا يميلون إلى العمل المدني مع الابتعاد عن الزعيم فيدل وزمرته العسكرية التي كنا نحن رجال المايسترا طليعتها.

ومع هذا فقد كان بين رجال السهل مجموعة من المقاتلين تقوم بإزعاج الدكتاتورية وتعكير صفوها. ولم ترفض هذه المجموعة أبداً الصراع إلى جانبنا رغم وجود خلافات تكتيكية واسعة بيننا وبقيت على الدوام حريصة على إخلاصها لروحها الثورية إلى أن جاء يوم النصر حيث شكلنا معاً وحدة

ثورية قوية بزعامة فيدل القائد الذي لا ينازع. وانضمت هذه النواة إلى قيادة الحزب الاشتراكي الشعبي P.S.P لتشكل في النهاية حزبنا المعروف P.U.R.C.S[1] بغية مجابهة الضغوط السياسية الخارجية ومناورات تقسيم حركتنا والتسرب إلى صفوفها. ولقد استطعنا المحافظة على وجود جبهة مشتركة بيننا. وحتى الرفاق الذين لم يكن لديهم فكرة واسعة عن الثورة استطاعوا البقاء بمأمن عن الانتهازيين. ووجدت الحركة نفسها متحدة في جبهة قوية ضد محاولات فيليب بازوس الرامية إلى استخدام اسم حركة «٢٦ يوليو» لمصلحته ومصلحة الأوليغاركية الكوبية الفاسدة واستغلال المراكز التي نص عليها «ميثاق ميامي» ومن بينها رئاسة الجمهورية المؤقتة. ولقد أيدت الحركة الرسالة التي وجهها فيدل إلى مختلف التنظيمات المناضلة ضد باتيستا.

- الإضراب العام في ٩ نيسان (إبريل) ١٩٥٨.
- معركة سانتا كلارا.
- الهجوم النهائي.

* كانت حركة السهل بأكملها تعمل بشكل محموم لإعداد عملية إضراب عام ثوري وتم تنظيم الجبهة الوطنية العمالية التي تقودها عن بعد حركة «٢٦ يوليو» وسقطت هذه الجبهة منذ بدايتها فريسة مرض الإقليمية، وأظهر العمال بعض الفتور نحو هذا التنظيم الناشئ المصبوغ بلون حركة «٢٦ يوليو» ذات الأهداف الجذرية أكثر من اللازم بالنسبة لظروف المرحلة وأصدر فيدل كاسترو قبل ٩ إبريل (نيسان) بعدة أيام بياناً أخيراً هدد فيه كل من لم يأخذوا الطريق الثوري. ثم أعقبه بآخر وجهه إلى العمال دعاهم فيه إلى الاتحاد داخل الجبهة الوطنية أو خارجها لأنه فهم أن الجبهة وحدها ستكون عاجزة عن تنفيذ الإضراب.

---

(١) أي الحزب المتحد للثورة الاشتراكية الكوبية. ويضم حركة ٢٦ يوليو والحزب الاشتراكي الشعبي والإدارة الثورية للطلاب. ولقد انقلب هذا الحزب في أكتوبر (تشرين أول) ١٩٦٥ إلى: الحزب الشيوعي الكوبي.

واندفعت قواتنا إلى حلبة الصراع. فنزل النقيب كاميلو سيانفوغوس قائد الرتل الرابع إلى سهول أوريانت من جهة بايامو. فلم يلبث أن نشر الفوضى والدمار في صفوف العدو. وجاء ٩ إبريل (نيسان) وضاعت جهودنا هباءً. فقد ارتكبت القيادة الوطنية للحركة خطيئة فاحشة حول مبادئ الصراع الجماهيري، وحاولت القيام بالإضراب دون أن تعلن عنه مسبقاً معتمدة على المفاجأة والعنف. وكما كان متوقعاً فإن العمال لم يشاركوا فيه، ومات عدد كبير من الرفاق دون جدوى. وكان يوم ٩ إبريل هزيمة نكراء لم تستطع أن تهز النظام الدكتاتوري الفاسد، وعلى العكس استطاعت الحكومة بعد هذا التاريخ الأليم سحب قواتها من عدة مناطق وتوجيهها نحو أوريانت لنقل المعركة إلى السبيرا. وكان لزاماً علينا أن نقوي دفاعنا وأن نتغلغل داخل الغابات لمسافة أكبر وضاعفت الحكومة من جهتها عدد الأفواج المرابطة مقابل مواقعنا حتى حشدت في المنطقة ١٠ آلاف جندي وعندها بدأ هجوم العدو في ٢٥ مايو (أيار) على قرية لاس مارسيدس التي كانت مخفراً أمامياً لقواتنا.

وكان ضعفنا بادياً بشكل صارخ. فلم يكن لدينا سوى ٢٠٠ بندقية في حالة جيدة مقابل ١٠ آلاف رجل مسلح بكل صنوف الأسلحة. وكم كان الموقف حرجاً. ولكن سير المعركة كشف لنا درجة فتور قوات باتيستا في البحث عن القتال. وقاتل رجالنا كالأسود خلال يومين عدواً متفوقاً بنسبة ١٠ أو ١٥ إلى واحد. وكرس العدو معظم أسلحته من الدبابات والهاونات والطائرات ليجبر رجالنا على ترك القرية. وكانت مجموعة رجالنا الصغيرة بقيادة النقيب أنجل فيرديسيا الذي قتل بعد شهر من هذه المعارك على أرض معركة أخرى.

وفي هذه الفترة كان فيدل قد تلقى رسالة من الخائن أولوجيو كانيللو الذي كان مخلصاً لألاعيبه كسياسي موتور. ولقد كتب بصفته رئيس عمليات العدو إلى قائد الثورة يعلمه بأن الجيش سيستمر في عملياته على أي حال، ولكنه سيعرف حالياً «بالرجل» فيدل بانتظار النتيجة النهائية. وتابع الهجوم سيره عملياً. وبعد شهرين ونصف من الاشتباك المستمر تكبد الجيش خسارة

تقارب ١٠٠٠ رجل ما بين قتيل وجريح وأسير وهارب من الخدمة. وترك بين أيدينا حوالي ٦٠٠ قطعة سلاح منها دبابة واحدة و١٢ هاوناً و١٢ رشاشاً ثقيلاً بالإضافة إلى عشرات الرشاشات الخفيفة وعدد كبير من الأسلحة الآلية مع كمية هائلة من المعدات والذخيرة من كل الأنواع و١٥٠ أسيراً سلمناهم إلى الصليب الأحمر بعد المعركة.

وقصم هذا الهجوم الأخير المشهور على سبيرا مايسترا ظهر جيش باتيستا رغم أنه لم يكن العمل النهائي فقد استمر القتال بعده. ووضعنا استراتيجية نهائية وقررنا الهجوم منطلقين من ٣ نقاط. وكانت الخطة تتلخص في ضرب حصار مرن حول سانتياغو دو كوبا. بينما اتحرك مع رتلي إلى لاس فيللاس وبينار ديل ريو في الطرف الآخر من الجزيرة وكان على كاميلوسيا نفوغوس أن يذهب إليها على رأس الرتل رقم ٢ المسمى (انتونيو ماسيو) ولم يستطع كاميلو تحقيق الجزء الثاني من مهمته لأن ضرورات القتال أجبرته على البقاء في لاس فيللاس.

وبعد أن تمكنا من تدمير أفواج العدو التي توغلت في السبيرا مايسترا في الهجوم السابق وأرجعنا الحدود إلى حالتها الطبيعية، وأعدنا تنظيم وأعداد رجال قواتنا ورفعنا معنوياتهم قررنا البدء بالمسير نحو لاس فيللاس وهي مقاطعة في مركز الجزيرة. وكانت مهمتي الاستراتيجية قطع كل طرق المواصلات بين طرفي الجزيرة. وتلقيت أمراً إضافياً بتأمين الاتصال مع كل الجماعات السياسية الموجودة في جبال المقاطعة. وكانت لديّ سلطات عسكرية واسعة لإدارة القطاع الموضوع تحت مسؤوليتي. عندها قررت القيام بالمهمة واجتياز المسافة في ٤ أيام مستخدماً السيارات على أن انطلق يوم ٣٠ أغسطس (آب) ١٩٥٨. ولكن حادثاً مفاجئاً وقع في اللحظات الأخيرة وعطل مخططاتنا. ففي هذه الليلة كان أحد المندوبين يتجه إلينا بسيارة محملة بالألبسة والوقود اللازم لسيارات النقل التي كانت تنتظر أمر التحرك في نفس الوقت الذي هبطت فيه طائرة في المطار المجاور للطريق وهي تحمل إلينا شحنة من الأسلحة. لكن قوات العدو كشفت الطائرة لحظة هبوطها رغم الظلام الدامس فقصفت المطار بوابل من المدفعية من الساعة

العاشرة مساء حتى الخامسة صباحاً الأمر الذي أجبرنا على إشعال النار في الطائرة خشية وقوعها بيد العدو، ولإنهاء قصف مدفعية العدو الذي قد يسبب لنا أضراراً بالغة. كما اعترضت قوات العدو أثناء تقدمها نحو المطار الصغير طريق سيارة المندوب المحملة بالألبسة والوقود وأسقط في يدنا ولم نجد أمامنا مفراً من قطع المسافة سيراً على الأقدام.

وبدأ السير في ٣١ أغسطس (آب) بدون سيارات أو خيول وكنا نأمل ملاقاة السيارات بعد اجتياز الطريق من مانزانيللو إلى بايامو. ولقد وجدناها فعلاً. ولكن في سبتمبر (أيلول) هبت عاصفة ممطرة رهيبة على المنطقة استحال معها استخدامنا لجميع طرق المواصلات فيما عدا «كاريتيرا سنترال». لأنه الطريق الوحيد المغطى بالأسفلت في هذه المنطقة من كوبا. واضطررنا لترك فكرة التنقل بالسيارات. ومنذ تلك اللحظة لم نعد نستطيع التقدم إلا على الأقدام أو على ظهور الخيل. وسرنا ونحن نحمل أثقالاً كبيرة من الذخيرة بالإضافة إلى مدفع بازوكا وأربعين قذيفة مضادة للدرع وكل ما هو ضروري لطريق طويل ولإقامة معسكر سريع.

ومرت بنا الأيام عصيبة رغم كوننا في مقاطعة أوريانت الموالية لنا. حيث كان علينا اجتياز أنهار في فترة الفيضان وجداول وأقنية انقلبت إلى أنهار. وكنا نحرص بدأب، حتى لا تصاب الأسلحة والذخيرة بالبلل، ونبحث باستمرار عن الخيول لنستبدلها بخيولنا المنهكة، بالإضافة إلى تعمد الابتعاد عن المناطق المأهولة كلما ابتعدنا عن مقاطعة أوريانت. وكنا نسير بصعوبة على أرض غارقة بالماء تهاجمنا فيها أسراب البعوض التي جعلت ساعات الراحة صعبة مستحيلة. ونأكل كمية قليلة من الطعام الرديء. ونشرب ماء الجداول التي تسيل وسط المستنقعات أو نكتفي بشرب ماء المستنقعات نفسها. وسرنا نجرّ أقدامنا خلال أيام قاسية. وبعد أسبوع من بداية مسيرنا وعند اجتيازنا خوبايو على الحدود بين مقاطعتي أوريانت وكاما جوى برح بنا التعب واشتكى معظم رجالنا من نقص الأحذية لدرجة دفعت كثيراً من الرفاق إلى السير حفاة وسط وحول جنوب كاما جوى.

وفي ليلة ٩ سبتمبر (أيلول) عندما دخلنا المنطقة المسماة (لافيدرال)

وقعت مقدمتنا في كمين معاد، فقتل اثنان من رفاقنا الشجعان. والأسوأ من ذلك أن العدو استطاع تحديد مكان وجودنا وبدأ بسلسلة من أعمال الإزعاج دون أن يترك لنا فرصة للراحة. وبعد معركة صغيرة استطعنا تدمير القوة الصغيرة الموجودة أمامنا ولكننا خسرنا أربعة أسرى. وكان علينا متابعة إجراءات التقدم بحذر خاصة بعد أن عرف الطيران بصورة عامة خط سيرنا.

وبعد يوم أو اثنين وصلنا إلى بقعة تدعى «لاجراند لاجون» في الوقت الذي حضر فيه كاميلو ورتله ـ وكان في حالة أفضل من حالتنا ـ والمكان هنا يستحق الوصف لأنه كان مليئاً بالبعوض بكثرة استحالت معها الراحة دقيقة واحدة بدون كلة (ناموسية). ولم يكن جميع الرفاق مزودين بها.

وبعد مسير منهك عبر مساحات مقفرة خلت إلا من الماء والطين. وبتأثير الجوع والعطش بتنا عاجزين عن التقدم تقريباً بأقدامنا الثقيلة وأسلحتنا التي بدأنا نشعر أنها حمل ثقيل. وتابعنا مسيرنا بمساعدة خيول أفضل تركها لنا كاميلو بعد أن ركب سيارات النقل. ولكننا اضطررنا بعد فترة إلى تركها في منطقة مركز صناعة السكر «ماكارينو» كما أن الأدلاّء الذين كان من المفروض إرسالهم إلينا لم يصلوا فتابعنا الاندفاع وسط المغامرة لا أكثر ولا أقل. واصطدمت مقدمتنا بأحد مخافر العدو في منطقة تسمى (الرفاق الأربعة) حيث بدأت معركة طاحنة. وما أن طلع النهار حتى بادرنا إلى جمع معظم الرجال بكل صعوبة في أكثر أدغال المنطقة كثافة. ولكن العدو هاجمنا من الجانب. وكان لزاماً علينا أن نقاتل طويلا لنسمح للمتخلّفين منا بالمرور عن طريق السكة الحديدية باتجاه الأحراج، عندها كشفت الطائرات تقدمنا. وبدأت الطائرات الحربية ب ٢٦ وس ٧٤ وطائرات الاستطلاع س٣ والطائرات الخفيفة تقذف قنابلها وحممها فوق مربع طول ضلعه ٢٠٠ مترا أو أقل. ولقد انسحبنا بعد هذا الطوفان الجهنمي الذي أصابنا بخسائر قليلة بلغ مجموعها قتيل وعدة جرحى منهم الرائد سليفا الذي تابع مرحلة المسير التالية كلها بكتف مكسور.

وفي اليوم التالي سارت الأمور بوجه أفضل بعد أن التقينا بالمتخلّفين

واستطعنا جمع مجموعتنا بأكملها إلا عشرة رفاق انضموا فيما بعد إلى رتل كاميلو ومضوا حتى الجبهة الشمالية في مقاطعة لاس فيللاس في باجواخاي.

وفي غمرة متاعبنا لم يتوقف دعم الفلاحين لنا أبداً. وكان هنالك باستمرار من يخدمنا كدليل أو يقدم لنا ما نقيم به أودنا حتى لا نهلك من الجوع. ولم يكن دعم الفلاحين هنا في مستوى دعم سكان مقاطعة أوريانت. ولكن، على كل حال كان هناك دائماً من يساعدنا. ولقد خاننا بعض المزراعين أثناء عبورنا في أراضيهم. ولم يكن ذلك عملاً موجهاً من الفلاحين ضدنا. ولكن ظروف الحياة أحالتهم مع الزمن إلى عبيد يدفعهم الخوف من فقدان غذاءهم اليومي إلى إعلام صاحب المزرعة بمرورنا في المنطقة. ولم يكن أمام صاحب المزرعة بدوره إلا أن يهرع إلى السلطات العسكرية حاملاً إليها النبأ الجليل. . .

والتقطنا بعد ظهر أحد الأيام بجهازنا اللاسلكي الصغير تقريراً مقدماً من الجنرال فرانسيسكو تابر نيللا دولز يعلن فيه باعتداد عن تدمير العصاة بقيادة «تشي جيفارا» مع لائحة بأسماء القتلى والجرحى والأسرى. ولقد استقى هذه المعلومات من الأوراق المبعثرة في حقائبنا التي اضطررنا إلى تركها بعد اشتباكنا الرهيب مع العدو قبل عدة أيام، كما أضاف إليها بعض المعلومات الخاطئة التي حصلت عليها قيادة الجيش من مصادر أخرى. ونشر نبأ موتنا موجة من المرح والضحك بين مجموعتنا الصغيرة. إلا أن شعوراً بالتشاؤم أخذ يساور الرفاق بتأثير الجوع والعطش والتعب، ومظاهر العجز أمام عدو يحاصرنا ويشدد قبضته علينا أكثر فأكثر، وبتأثير تقرحات الأقدام التي يشبهها الفلاحون بـ«مغلي دقيق الذرة» والتي كانت تسبب للمقاتلين آلاماً مبرحة مع كل خطوة. وأحالت كل هذه العوامل مجموعتنا إلى جيش من الأشباح. ويوماً بعد يوم كانت الحالة البدنية لمجموعتنا تتدهور. ولم يكن وضعنا الغذائي يساعد على تحسين حالتنا حيث كنا نأكل يوماً ونصوم يوماً. بيد أن أقسى أيامنا كانت الأيام التي قضيناها ونحن محاصرون في ضواحي مركز صناعة السكر، باراجوا، وسط مستنقعات موبوءة بالطاعون وبدون قطرة ماء واحدة صالحة للشرب وتحت رحمة سلاح الطيران المعادي. ولم يكن

معنا فيها حصان أو أية راحلة أخرى تمكن مرضانا من اجتياز هذه المناطق الموحلة الصعبة. وكنا نسير بأحذيتنا البالية الممزقة في هذا الماء الآسن الملوث المليء بالنباتات التي تجرح الأقدام العارية. وعندما اخترقنا دائرة باراجوا للوصول إلى الطريق المشهور والذاهب من أجوكاو إلى مورون ـ وهذه منطقة تاريخية كانت مسرحاً لاشتباكات دامية بين الوطنيين والمستعمرين الاسبان خلال حرب الاستقلال ـ كنا في حالة يرثى لها. ولم نجد الوقت اللازم لالتقاط أنفاسنا لأن الأمطار هطلت بغزارة (فأضيفت قسوة الطبيعة إلى هجمات العدو) واضطررنا لمتابعة المسير وكانت المجموعة تزداد تعباً وقنوطاً باستمرار. وفي اللحظة الحاسمة عندما وصلنا إلى حالة لم نعد فيها قادرين على دفع الرجال إلى المسير إلا بالصراخ والشتائم تارة والرجاء والتشجيع تارة أخرى، وفي هذه اللحظة الحاسمة برز أمامنا في الأفق مشهد كان كافياً لأن يعيد إلينا شجاعتنا ويعطينا دفعة جديدة من النشاط والعزيمة. لقد ظهرت لنا بقعة زرقاء من جهة الغرب وهي البقعة الزرقاء لكتلة لاس فيللاس الجبلية التي يراها رجالنا لأول مرة. وبدا لنا في هذه اللحظات كل أنواع الحرمان محتملة، وبدا كل شيء سهلاً وتخلصنا من آخر دائرة بأن اجتزنا سباحة نهر خوكارو الذي يفصل مقاطعة كاماجوى عن مقاطعة لاس فيللاس. وانتابنا شعور بأننا أصبحنا في مأمن من المتاعب.

وبعد يومين كنا وسط جبل ترينيداد ـ ساتكتي سبيرتيوس ـ في مأمن وعلى أتم استعداد للبدء في مرحلة جديدة من هذه الحرب. ثم استرحنا بعد ذلك بيومين لأنه كان علينا أن نتابع سيرنا فوراً لمنع إجراء الانتخابات المقررة في ٣ نوفمبر (تشرين ثاني). ووصلنا إلى المنطقة الجبلية في لاس فيللاس يوم ١٦ أكتوبر (تشرين أول) وكان أمامنا وقت ضيق للقيام بمهمة كبيرة. وما إن وصلنا إلى سبيرا أسكامبري حتى بدأنا بإزعاج السلطات العسكرية هناك ومهاجمة مواصلاتها. وكانت مهمة منع الانتخابات عملاً صعباً نظراً لقلة الوقت والانقسام داخل الحركة الثورية والصراعات الداخلية التي كانت تستهلك الكثير من القوى بما في ذلك الأرواح البشرية.

وكان علينا أن نهاجم القرى المجاورة لمنع عقد الاجتماعات ووضعنا

خطة لمهاجمة كابيجوان وفومنتو وساتكتي سبيرتيوس في السهول الغنية الواقعة في وسط الجزيرة على حين استسلمت الحامية الصغيرة في جوينيا دوميراندا - في الجبال - وبدأنا مهاجمة حامية باناؤو بدون نتيجة حاسمة. وخلال الأيام التي سبقت يوم ٣ نوفمبر (تشرين الثاني) قمنا بنشاط واسع. فتحركت أرتالنا في كل الاتجاهات محطمة في كل مكان التجمعات الانتخابية في المنطقة، واستطاعت كاميلوسيا نفوغوس في شمال المقاطعة أن تشل حركة الانتخابات وتوقف كل شيء بما في ذلك تحركات باتيستا وحركة نقل البضائع التجارية.

وفي أوريانت لم تجر انتخابات. أما مقاطعة كاما جوى فكانت نسبة الانتخابات فيها أعلى بقليل. وفي المنطقة الغربية لوحظ رغم كل شيء امتناع جماهير كثيرة عن الإدلاء بأصواتها الانتخابية. وحصل الامتناع عن التصويت في لاس فيللاس بصورة قوية إذ لم يكن لدينا الوقت الكافي الذي يسمح لنا بتنظيم المقاومة السلبية الجماهيرية ونشاط الثوار بآن واحد.

وأدت الهجمات المتتالية على طرق المواصلات إلى جعل الموقف في لاس فيللاس حرجاً. وبوصولنا غيّرنا أسلوب صراعنا كليّة في المدن حيث إننا كنا في كل مرحلة من مراحل المسير نرسل أفضل الثوار في المدن إلى معسكرات التدريب ليتدربوا فيها على أحدث الطرق الخاصة بعمليات التخريب. وأدت هذه الخطة إلى نتائج قيمة في ضواحي المدن.

وخلال شهري نوفمبر وديسمبر (تشرين ثاني - وكانون أول) ١٩٥٨ تم إغلاق الطريق تدريجياً واستطاع النقيب سليفا أن يقطع نهائياً طريق ترينيداد المتجه إلى سانكتتي سبيرتيوس، وتم تعطيل الطريق الرئيسي بشكل جدي عندما نسف الجسر المقام على نهر توينوكو مع أن النسف لم يؤدِ إلى هدمه تماماً. كما دمرت السكك الحديدية في عدة نقاط. وأصبحت الحركة على طرق الجنوب تحت رحمة هجمات الجبهة الثانية. أما الحركة في الشمال فقد أوقفتها قوات كاميلوسيا نفوغوس نهائياً وهكذا وجدت الجزيرة نفسها منقسمة إلى قسمين. أما بالنسبة لمنطقة أوريانت وهي أكثر المناطق اضطراباً

فكانت المساعدة الحكومية تصلها عن طريق البحر والجو بكميات تتناقص باستمرار يوماً بعد يوم وأخذت مظاهر تفتت العدو تتزايد.

واعتباراً من ١٦ ديسمبر (كانون أول) باتت الدكتاتورية في موقف سيئ أمام تخريب الجسور، إذ كيف يمكنها في هذه الحالة الدفاع عن مواقعها الأمامية. ثم غدت المواصلات بين هافانا والمدن الواقعة شرق سانتا كلارا مقطوعة عملياً بعد تهدم جسر الطريق الرئيسي المقام على نهر فالكون. وتمت عمليات محاصرة مجموعة من القرى ومنها فومنتو وهي أبعدها إلى الجنوب ثم هاجمتها قواتنا واستسملت حاميتها بعد دفاع مجيد دام عدة أيام نظراً لعدم قدوم النجدات، ذلك لأن قواتنا استطاعت، رغم القصف الجوي المعادي، تحطيم معنويات قوات الدكتاتور ومنعها من التقدم البري لنجدة القوات المحاصرة. وغنمت قواتنا باستسلام الحامية ١٠٠ بندقية ضمتها إلى صفوف حماة الحرية.

ودون أن نترك للعدو فرصة يلتقط بها أنفاسه قررنا أن نشل على الفور حركة الطريق الرئيسي. وفي ٢١ ديسمبر (كانون أول) هاجمنا بآن واحد كابيجوان وجوايوس. وبعد عدة ساعات استسلمت جوايوس ثم تبعتها بعد يومين كابيجوان وحاميتها المؤلفة من ٩٠ جندياً. وثبت لنا في هذه المعركة الأخيرة عدم فاعلية الجيش الدكتاتوري الذي لم يكن يقدم في أية لحظة دعماً بالمشاة للمواقع المحاصرة.

وهاجم كاميلوسيا نفوغوس سلسلة من القرى في شمال لاس فيللاس. وفي الوقت الذي كان يحاصر فيه باجواخي الحصن الأخير لقوى الاضطهاد والذي كان بقيادة نقيب من أصل صيني استطاع المقاومة لمدة ١١ يوماً مثبتاً قوات الثورة في ذلك القطاع. بينما أخذ رتلنا يتحرك نحو الطريق الرئيسي باتجاه سانتا كلارا عاصمة المقاطعة.

وعقب سقوط كابيجوان قررنا مهاجمة بلاسيتاس التي لم تلبث أن سقطت بعد يوم واحد فقط. ولقد قدمت لها القيادة الثورية فيها مساعدة جدية. وبعد احتلال بلاسيتاس حررنا بسرعة رميديوس وكيباريان ـ المرفأ

الهام ـ على الشاطىء الشمالي. وأظلم الموقف في عيني الديكتاتورية أمام الانتصارات الباهرة التي حققناها باستمرار في أوريانت، وبعد أن هزمت جبهة أسكامبري عدة مواقع صغيرة، وسيطر كاميلوسيا نفوغوس على منطقة الشمال.

وعندما انسحب العدو من كاما خواني دون أية مقاومة كنا مستعدين للقيام بالهجوم النهائي على عاصمة لاس فيللاس (سانتا كلارا قلب السهل الساحلي للجزيرة، وهي مدينة تعداد سكانها ١٥٠ ألف رجل وتعتبر عقدة هامة للسكك الحديدية ومركزاً حيوياً، وهي محاطة بعدة هضاب جرداء كانت قوات الديكتاتور قد احتلتها مسبقاً).

وفي لحظة الهجوم كنا قد زدنا عدد بنادقنا زيادة محسوسة وحصلنا حتى على أسلحة ثقيلة ولكن بدون ذخيرتها، وبازوكا بدون قذائف. وكان من الضروري أن نقاتل ضد عشر دبابات فرأينا أن أحسن وسيلة للاشتباك مع هذه الدبابات هي الدخول في الأحياء المكتظة بالسكان حيث تصبح فاعلية هذه المعدات أقل بكثير.

وعندما أخذت الإدارة المحلية الثورية على عاتقها مهمة احتلال الثكنة رقم ٣١ للحرس المحلي قمنا نحن من جهتنا بمحاصرة جميع النقاط الهامة في سانتا كلارا. ووجهنا جهدنا الرئيسي نحو المدافعين عن القطار المدرع الموجود على مدخل طريق كاماخواني. وهي نقطة يدافع عنها الجيش بصورة جيدة.

وفي ٢٩ ديسمبر (كانون أول) بدأت المعركة واستخدمنا الجامعة في بداية الأمر كقاعدة عمليات، ثم دفعنا مقر قيادتنا بعد ذلك إلى وسط المدينة، وتصدى رجالنا للقوات المعادية المدعمة بالدبابات وتمكنوا من إجبارها على الفرار بعد أن دفع الكثيرون منا حياتهم ثمن هذه البسالة. وبدأ القتلى والجرحى يملؤون المقابر والمستشفيات المرتجلة.

وأنني لأذكر قصة تدل على الحالة المعنوية لقواتنا خلال هذا الانقضاض الأخير. كنت قبل أيام وجهت تأنيباً شديداً لأحد المقاتلين بعد أن

وجدته في ريميديوس نائماً خلال المعركة ولكنه احتج بأن رئيسه جرده من سلاحه لأنه ترك طلقة تخرج منه عفواً في وقت غير ملائم. ولكنني نهرته بجفائي المعهود قائلاً: «عليك أن تجد بندقية بالذهاب أعزل إلى خط النار.. إذا كنت أهلاً لذلك». وعندما كنت أتفقد الجرحى في مستشفى سانتا كلارا لمس يدي أحد الجرحى المحتضرين قائلاً: «هل تذكر أيها الرائد..؟ لقد أرسلتني للبحث عن سلاح في ريميديوس.. وها أنذا قد حصلت عليه هنا.. ولم يكن سوى ذلك الجندي الذي انطلقت من بندقيته طلقة في الهواء. ولقد مات بعد الزيارة بدقائق وكان يبدو لي سعيداً لأنه استطاع أن يثبت شجاعته وهكذا كان جيشنا الثوري.

وقاومت تلال كابيرو طويلاً ودامت المعركة طوال يوم ٣٠ . وفي نفس الوقت احتللنا نقاطاً أخرى مختلفة في المدينة، وانقطع الاتصال بين قلب سانتا كارا ومكان القطار المدرع. ووجد المدافعون أنفسهم محاصرين على تلال كابيرو فحاولوا الانسحاب عن طريق السكة الحديدية ولكنهم عندما وصلوا بحمولتهم الرائعة (٠) إلى نقطة التحويلة التي نسفناها خرجت القاطرة عن القضبان جارة وراءها بعض العربات، وبدأت بعد ذلك معركة حامية الوطيس وأجبرنا رجال القطار المدرع على التسليم وأخرجناهم من مراكزهم بفضل زجاجات كوكتيل مولوتوف. فبالرغم من حمايتهم الجيدة لم يكن بوسعهم القتال إلا من مسافة بعيدة ومن مواضع مريحة وضد عدو أعزل بنفس الطريقة التي قاتل بها المستعمرون الأمريكيون الأوائل الهنود الحمر في الغرب الأمريكي. وبدأ الهجوم على القطار وبدأ رجالنا يلقون من مواضع مجاورة ومن عربات قريبة زجاجات مولوتوف الملتهبة فانقلب القطار ـ بفضل معادن التصفيح ـ إلى فرن حقيقي بالنسبة للجنود المتمركزين فيه. وبعد عدة ساعات استسلمت حامية القطار بأكملها بعرباتها الـ ٢٢ ورشاشاتها ومدافعها المضادة للطائرات. بالإضافة إلى كميات هائلة من الذخيرة (لقد كانت هذه الذخيرة هائلة من وجهة نظرنا طبعاً) واستطعنا احتلال مركز توليد الكهرباء وكل الجزء الشمالي الغربي من المدينة وأعلنا عن طريق الإذاعة عن سقوط جميع سانتا كلارا تقريباً بيد الثورة. وخلال هذا البيان الذي كنت أذيعه على

الشعب بصفتي القائد العام لقوات لاس فيللاس المسلحة نعيت الرفيق النقيب روبيرتو رود ريغس «راعي البقر الصغير» الذي كان صغير الحجم والسن وقائداً «لفصيلة الانتحار» الذي خاطر بنفسه ألف مرة ومرة خلال الصراع لأجل الحرية. لقد كانت «فصيلة الانتحار» مثالاً يحتذى لكل الثوار، قوامها متطوعون متمرسون ومجربون. وفي كل مرة كان يستشهد فيها أحد أفراد هذه الفصيلة ـ الأمر الذي كان يقع في كل معركة ـ كنا نختار من بين المتقدمين الفدائيين أحد الأشخاص ليحل محله. وكان الحزن يخيم على الذين لا يقع عليهم الاختيار لدرجة تنهمر معها دموعهم. وكم كان غريباً أن نرى هؤلاء المقاتلين الأشداء السمر الوجوه يبكون كالأطفال ليعربوا عن حزنهم وخيبة أملهم لعدم حصولهم على شرف الانخراط في الصف الأول للمعركة والموت.

وسقط بعد ذلك مركز الشرطة بيدنا، كما استسلمت معه الدبابات التي كانت تدافع عنه ثم حذت حذوه الثكنة رقم ٣١ واستسلمت بسرعة للرائد كوبيلا. كما استسلم السجن والمحكمة ودار الحكومة في المقاطعة بالإضافة إلى الفندق الكبير الذي بقي المدافعون عنه يرموننا بنيرانهم من الدور الثاني حتى نهاية الاشتباكات تقريباً.

وفي هذه اللحظة لم يبق في أيدي قوات الديكتاتور سوى ثكنة «ليونسيوفيدال» وهي أكبر حصن في وسط الجزيرة. ولكن في ١ يناير (كانون الثاني) ١٩٥٩ ظهرت على المدافعين عنها بوادر الاختناق فأرسلنا النقيب تونيز خيمينيز وورود ريغس دو لافيجا للمفاوضة بشأن تسليم الثكنة. وكانت الأخبار تصلنا غريبة متناقضة قائلة إن باتيستا قد هرب معرضاً القوات المسلحة للانهيار. واتصل مبعوثانا مع كانتيللو باللاسلكي وأبلغاه عرض التسليم، ولكنه ردّ أنه من المستحيل قبوله لأنه يتخذ صيغة إنذار ولأنه هو قد شغل منصب قيادة الجيش منفذاً تعليمات فيدل كاسترو. واتصلنا بفيدل مباشرة وأعلمناه بحقيقة الموقف مع رأينا بكانتيللو المثير للشكوك. وكان قد اقتنع بأن كانتيللو خائن (سمح كانتيللو في اللحظات الحاسمة لكل كبار المسؤولين في حكومة باتيستا بالفرار. ومما يزيد من فداحة سؤ تصرفه أنه

كان ضابطاً وأننا وثقنا بكل سذاجة بكلمة الشرف التي أعطاها).

وما حصل بعد ذلك معروف بالنسبة للجميع. رفض فيدل كاسترو أخذ رأي كانتيللو بعين الاعتبار، وأعطى الأمر بالسير نحو هافانا. وتولى الجنرال باركين قيادة الجيش بعد خروجه من سجنه في جزيرة الصنوبر، واحتلال كاميلوسيا نفوغوس للموقع العسكري في كولومبيا دي كوبا، واحتلال رتلنا الثامن لقلعة كابانا، ثم تعيين فيدل كاسترو رئيساً للوزارة في الحكومة المؤقتة. كل هذا يشكل جزءاً من التاريخ السياسي اللاحق للبلاد.

وبعد، هذه نتيجة مذكرات (تشي غيفارا) الشخصية عن مراحل الثورة الكوبية بقيادة فيدل كاسترو حيث انتصرت هذه الثورة بعد هذه الرحلة الثورية الطويلة التي سجلها بقلمه الرفيق تشي غيفارا الذي أصبح بعد الثورة وزيراً للصناعة.

تعريف ضروري بتشي غيفارا قبل نهاية هذا الفصل.

* الدكتور الرائد غيفارا وزير الصناعة الكوبية بعد نجاح الثورة التي اشترك بها عملياً إلى جانب فيدل كاسترو. وهو أرجنتيني الجنسية واسمه الحقيقي: أرنستو جيفارا سيرنا، ولد في بيونس آيرس ـ الأرجنتين عام ١٩٢٨ ونشأ ضمن أسرة ميسورة إذ كان أبوه مهندسا فمعمارياً ناجحاً.

درس غيفارا الطب ولكنه لم يمارسه سوى لدى الحاجة اثناء سير الثورة حيث اتصل في المكسيك بالأخوين كاسترو (فيديل ـ راؤول) واشترك معهما كما ذكر في هذه المذكرات في حرب التحرير التي انتهت بالتخلص من حكم باتيستا الديكتاتوري وانتصار كاسترو واستلام الحكم في كوبا. منح غيفارا الجنسية الكوبية واحتفظ برتبة (صاغ ـ أوميجور أو رائد بالعربي) التي منحه إياها رفيق دربه كاسترو أثناء القتال كما ذكرنا. وفي نهاية عام ١٩٥٩ عينه كاسترو مديراً للبنك الأهلي الكوبي، وفي شباط «فبراير) ١٩٦١ أشرف بنفسه على عملية (تأميم) الممتلكات الأميركية في كوبا باعتباره وزيراً للصناعة بالإضافة إلى عقده عدة اتفاقيات اقتصادية هامة، ثم أوكل إليه

كاسترو أيضاً تدريب الشبيبة الكوبية. وقد مثل كوبا في مؤتمر التنمية والتجارة الدولي في جنيف، ومثل كوبا في الدورة /١٩/ للأمم المتحدة. وفي أيار (مايو) من عام ١٩٦٥ (اختفى) غيفارا من الحياة الكوبية حيث توجه إلى إحدى جمهوريات أميركا اللاتينية على رأس جماعة من الجماعات المعادية للامبريالية الأميركية، وأن غيفارا طلب الإذن في ذلك من كاسترو وغادر كوبا مع زملائه الذين تولى تأهيلهم بنفسه وأن هدفه كان الاشتراك في ثورة اشتراكية جديدة. أما الرفيق فيدل كاسترو فإنه أصبح بعد نجاح ثورته (هدفاً) مميزاً لأعمال المخابرات المركزية الأميركية التي حاولت بمختلف الوسائل اغتياله حتى بلغت محاولات الاغتيال /٢٤/ محاولة نجا منها فيدل كاسترو جميعاً، وللمزيد من الإطلاع ومعرفة محاولات المخابرات الأميركية الإجرامية ضد كاسترو عليكم الاطلاع على كتاب (ملف الثمانينات عن حرب المخابرات) من تأليفي أيضاً.

وبعد، لقد جاءت أحداث انتصار الثورة الكوبية التي انتهينا من سردها في هذا الكتاب الوثائقي الهام بقلم ارنستو تشي غيفارا نفسه حيث سجلها كما ذكرنا كلمة كلمة وجملة جملة لأنه كان يقتنص الفرص أثناء مراحل الثورة لكي يسجل أحداثها. وبعد الانتصار ووصوله إلى موقع المسؤولية كان يقتنص الفرص أيضاً ليتمم هذه المذكرات التي جاءت حية تنبض بالحياة ما إن يطلع عليها القارئ حتى يعرف بالتدريج (مسار) الثورة الكوبية بقيادة الرئيس فيدل كاسترو. ومذكرات (تشي) هذه ليست شهادة رائعة على حرب العصابات فحسب، بل إنها تعطينا الوصف الذاتي للرجل الطبيب الذي التحق بالثوار ثم أصبح قائد منطقة وقائد رتل وبعدها أصبح من أفضل مساعدي فيدل كاسترو.. ويقول جان بول سارتر في كتابه (عاصفة على السكر) إنه كان مشدوهاً من رومانسية (شاعرية) (تشي) ولكن هذه كانت ملاحظة أوربية حيث كان سارتر يستطيع أن يقولها بالنسبة لكل ثوار أمريكا اللاتينية اعتباراً من خوزيه مارتي، لأن للثورة في أميركا اللاتينية صفات لا تتشابه مطلقاً مع الصفات الجدية والواقعية لبقية الثوار، فهي تعتمد على أسس معنوية عالية، وتأخذ بعين الاعتبار استخدام القدرات

الواقعية للفرد. وإذا كنا نريد أن نأخذ فكرة عن هذا الموضوع فما علينا إلا أن نتذكر روبسبير وسان جوست أو شخصية أنجو لواس في (البؤساء) وكلها شخصيات صافية مستعدة للتضحية.

ـ لقد قتل خوزيه مارتي وهو يمتطي حصانه في النسق الأول وهو يهاجم عدوا متفوقاً بالعدد والعدة.

ـ أطلق إدوارد شيباس رصاصة على بطنه ليوقظ كوبا.

ـ آبيل سانتا ماريا في موناكادا، أغلق على نفسه أبواب مستشفى المدينة وقاتل حتى آخر طلقة.

وإذا عدنا للرسالة الوداعية التي كتبها (تشي) لفيدل كاسترو بتاريخ الأول من نيسان (إبريل) سنة ١٩٦٥ عندما ترك كوبا كما ذكرنا في محتويات هذا الكتاب، نجده يقول: «إنني أتخلى عن مهماتي في إدارة الحزب ووظيفتي كوزير ورتبتي كرائد وصفتي الوطنية ككوبي.. لقد حلت ساعة الفراق ويجب أن يعرف الجميع أنني أقوم بهذا العمل بمزيج من الفرح والألم.. إنني أترك هنا أكثر آمالي البناءة صفاء وأعز ما لديّ بين الأشخاص الذين أحبهم.. ولا أترك شيئاً لأولادي وزوجتي ولكنني غير نادم على ذلك. بل على العكس يسعدني..» فماذا يفعل هذا الرجل في لحظة ذهابه إلى حقل معركة جديدة؟ إن الجواب واضح.. إنه يتجرد من كل شيء كالقديس الذي يقرر الموت في الدنيا حتى يعيش مع الله. إنه ينتزع من نفسه كل مباهج الحياة الأرضية ويحس بالسعادة في هذا الانتزاع..

وتعود صراحة (تشي) وتواضعه إلى نفس الأسس المعنوية العالية الثورية، فهو لا يصف في هذا الكتاب بطولاته بل على العكس يقدم مجموعة أخطائه: فهنا ارتكب جنوناً بوضع أسلحة جماعته بين أيدي فلاح خانه.. وهناك كاد أن يقتل بيد رجاله أنفسهم بعد أن لبس خوذة أحد الجنود الأعداء.. وكذلك أيضاً حين لم يستطع أن يفرض سلطته على قادم جديد متكبر عنيد، أو حين أصيب سلاحه بعطل في لحظة الاشتباك فوجد النجاة بالانسحاب. وعندما تعلق الأمر بالتحدث على الدور الذي لعبه في مرحلة

هامة من الحرب الثورية ـ احتلال سانتا كلارا ـ اتسم الوصف بطابع غير شخصي يخفي الدور الذي لعبه وراء جدار من الصمت.

لقد صادفني مرتين أو ثلاث مرات أن وقفت أمام مناضلين حقيقيين فبدوا لي قساة وغير إنسانيين حتى تساءلت من أين ينبع ويتغذى إيمانهم الثوري؟ ولكن المرء لا يضطر لمثل هذا التساؤل أمام (تشي) فهو في أعماقه طيب وكريم ويتطلب من نفسه الشيء الكثير ولا يلوم الآخرين بسهولة. إنه حازم ولكنه بنفس الوقت حساس. فإذا كان يضع حياته في خدمة الإنسانية، فإن الإنسانية ليست بالنسبة له كلمة مبهمة فقد أخذت في السييرا شكل أسماء ووجوه ورفاق يحدثهم بعذوبة كلها رجولة مثل «الفلاح» خوليو زينون أكوستا ذي الأربع وخمسين عاماً والذي علمه القراءة والكتابة في المعسكر خلال لحظات الراحة. أو «راعي البقر» الشاب البطل والمدعي الذي سقط في «سانتا كلارا». وتبدو الرحمة والطيبة من خلال الصفحات كما تبدو الصداقة الحية. ولم ينقطع عن نقد نفسه حتى بعد تسع سنوات من بداية المعركة إلى جانب فيدل لأنه لم يشعر بسرعة أكبر بقيمة هذا القائد وفي اللحظة التي كان ينفصل فيها عنه، تراه يقول له في رسالة وداعه، إن خطيئتي الخطيرة الوحيدة هي أنني لم أثق بك أكثر منذ اللحظات الأولى في سييرا ماسترا، وأنني لم أفهم بسرعة كافية صفاتك كقائد وكثوري..».

إن اختفاء (تشي) من مسرح السياسة الكوبية دون تقديم أية مبررات سابقة سمح بوجود وانتشار العديد من الأفكار والأقاويل. فلنبعد عنا فوراً التفسيرات الدرامية التي خلقتها أدمغة رجال المخابرات الأميركية، والتي تقول إن (تشي) جيفارا كان ضحية الأفكار الستالينية الأمر الذي دعا إلى اغتياله في كوبا، وهذا خطأ واضح ومحاولة للدس طرحتها الصحافة الأمريكية بدون دليل أو منطق معقول. فهي تزعم أنه في اللحظة التي اختفى فيها كاميلوسيا نفوغوس في حادثة طائرة سنة ١٩٦٠ أصدر فيدل أمراً بالعفو عن «كوبيلاس» الذي حاول اغتياله ولكنه أعدم (تشي) أعز أصدقائه في السييرا وتآمر مع زوجة (تشي) التي اعترفت بأن زوجها حي وبصحة جيدة

في مكان ما من العالم. . فهل يعقل هذا؟ وحتى بالنسبة لصحفي بورجوازي غربي تبقى هذه الميلودراما بدون فاعلية. .

وحسب نص آخر تدعمه حركة «١٣ نوفمبر» في غواتيمالا يزعم بأن (تشي) قد انحاز للأفكار الصينية وترك كوبا لأنه لا يفضل البقاء فترة أخرى مع سياسة فيدل كاسترو الممالئة للسوفييت. ويعتمد هذا الرأي كما نرى على فكرتين:

- الأولى أن فيدل كاسترو ينحاز لموسكو والثانية: إن (تشي) منحاز لبكين.

أما الادعاء بأن (تشي) منحاز للصين فيعتمد على الخطاب الذي ألقاه في الجزائر في فبراير (شباط) سنة ١٩٦٥ أثناء المؤتمر الاقتصادي الأسيوي الأفريقي الثاني. ولأترك هنا أيضاً النصوص تتكلم:

فبعد أن أكد أن تطور البلاد السائرة على طريق التحرر يجب أن يمّول ويدعم من قبل البلاد الاشتراكية أضاف قائلاً: «كيف يمكن أن نسمي منفعة متبادلة عملية بيع المواد الأولية التي تكلف البلاد النامية جهوداً وآلاما غير محدودة بسعر السوق العالمية مقابل شراء آلات مصنوعة في المصانع الأتوماتيكية الضخمة المتوفرة الآن بسعر السوق العالمية. إن تأسيس هذا النوع من العلاقات بين مجموعتين من الشعوب يدفعنا إلى أن نقول إن البلاد الاشتراكية في هذه الناحية شريكة الاستغلال الرأسمالي. إن على البلاد الاشتراكية واجباً معنوياً يدفعها لأن تحطم اشتراكها الضمني مع بلاد الغرب الاستغلالية.

من الواضح أن (تشي) رفع في الجزائر بهذا الكلام شعاراً كبيراً يبدو وكأنه قادم رأساً من الصين الشعبية إذ يقول «لانتان» في كتابه «صراع القارات الثلاث» بأن الصينيين في الجزائر كانوا يدعمون في هذا الوقت الفكرة القائلة بأن على أيّ بلد اشتراكي صناعي أن يضحي بجزء من تطوره ليتقاسم موارده مع البلاد الفقيرة، وبالتالي فإن على البلاد الاشتراكية الغنية أن تساعد بلاد العالم الثالث وذلك بإن تقرر من جهتها دفع سعر أكبر من سعر السوق العالمية لجميع المواد الأساسية التي يقدمها لها العالم الثالث.

هذا التقارب الفكري يبدو وكأنه يعني أن (تشي) قد قبل في الجزائر الآراء الصينية واتهم الاتحاد السوفيتي بشراء المواد الأولية من كوبا بسعر السوق العالمي. وهذا يعني استغلال بلد اشتراكي بمعاملته وفقاً للقواعد التجارية الرأسمالية. ولكن الحقيقة غير ذلك، لأن «تشي» بعد أن حدد أفكاره وتحفظه هذا بشكل عام في خطابه بالجزائر تابع شرح فكرته قائلاً:

إن (تشي) أراد أن يجمع في المديح أو التحفظ بين الاتحاد السوفياتي والصين دون أن يفصل أحدهما عن الآخر، ودون أن يضعهما موضع المقارنة، ولكنه كان ينتقد البلاد الاشتراكية الكبيرة باسم البلاد الاشتراكية الصغيرة، كما أن لذهاب (تشي) من كوبا أسباباً أخرى، فهو بصفته وزير صناعة كوبي ورجل ثوري لا يقبل المساومة كان يحاول تطبيق بعض الأفكار الجذرية، وهو يؤمن بضرورة التخلص مرة واحدة من الإرث (العفن) الذي خلفته الرأسمالية وراءها، ويسعى إلى التخلص من الحوافز المبنية على الدخل والمكاسب المادية. فلقد سار (تشي) كعادته في الدرب إلى آخر مداه. وفي أيام الآحاد (أيام العطلة الرسمية) كان (تشي) يشاهد وهو يعمل في وزارته ست ساعات، وهو وزير الصناعة لكي يعطي المثل للعمال بالعمل ساعات إضافية بدون أجر متجاوزاً معدلات العمل. ولكن هذه الفكرة كان تُحارب في كوبا نفسها بعنف من قبل الاقتصاديين الكوبيين والأجانب الذين كانوا يقولون إنه حتى في البلاد الاشتراكية، فإن المصانع لا تقبل الوقوع في الخسارة وإنه يجب أن لا نخلط المكاسب الإضافية للنظام الرأسمالي الذي تثرى بفضله أقلية محدودة بالمكاسب الشرعية للنظام الاشتراكي المتوازن، تلك المكاسب التي يمكن إعادة تثميرها لمنفعة المجتمع. ومن جهة أخرى فإن الغاء الحوافز المادية يتطلب إعادة تربية الجماهير تربية جديدة لا تعطي ثمارها قبل عدة أجيال. وحسب ما قيل في كوبا فإن فيدل لم يكن يؤيد أفكار (تشي) أو يعارضها ولكنه كان ينتظر نتائج أفكاره ليحدد رأيه. وليس من قبيل الصدفة أن يترك (تشي) وظيفته الكبيرة كوزير للصناعة الكوبية ويكلف بمهمة دبلوماسية في إفريقيا وآسيا لم تدم سوى ٣ أشهر، ويدَّعي مارسيل نيدر جانج أن (تشي) عند عودته اصطدم مع كاسترو. وكان فيدل

موافقاً مبدئياً على مؤتمر الجزائر ولكنه كان يشكو من الصراحة القاسية التي طرح بها (تشي) أفكاره واللون الذي أعطاه لهذه الأفكار. وقد بات (تشي) بعد هذا الصدام محطماً، وسبّب له الصدام اعتقاداً أليماً بأنه كان فاشلاً على طول الخط في كوبا كوزير للصناعة، وفي الجزائر كدبلوماسي فحن إلى السبيرا وأيام الثورة المجيدة حيث كان كل شيء أكثر بساطة واعتقد ان وجوده في غابة جديدة يجعله أكثر فائدة وارتياحاً من وجوده في المهمات التنظيمية السلمية. وهذا أصدق ما قيل عن أسباب عودته لحياة الثوار. وأيضاً معنى ذهابه بنظره ونظر فيدل أن الثورة الكوبية لا يجب أن تتقوقع بأنانية على مكاسبها الوطنية بل يجب أن تبقى مناضلة وعالمية. وإنني لأفضل قبول استنتاج أن فيدل لم يعتبر الثورة الكوبية ثورة وطنية محدودة، وتحرير كوبا بنظره هو العمل الأول لحركة ثورية هدفها تحرير أمريكا اللاتينية وأفريقيا ومعظم آسيا من الامبريالية الأمريكية. وبهذه الروح عقدت اتفاقات بين كوريا الشمالية وكوبا وفيتنام الشمالية وكوبا وأخيراً بين الكونغو برازافيل وكوبا حيث ظهرت الاتفاقية هذه في برازافيل بشكل مادي تجلى في وجود متطوعين ومدربين كوبيين يحاولون تدريب ثوار الكونغو الشباب للدفاع عن أنفسهم تجاه جيرانهم الأقوياء. وذهاب «تشي» واستخدام خبرته وهيبته كثائر في إحدى ثورات العالم الثالث يمكن أن يبدو كتطبيق عملي ومنطقي لهذه السياسة. ويجب أن نلاحظ أن فيدل نفسه قال في أكثر من مناسبة إنه لو لم يكن عنده مسؤوليات كبيرة كرئيس لحكومة كوبا لاختار شخصياً الصراع المسلح لتحرير البلاد الشقيقة.

وأخيراً لا نستطيع أن نجعل رسالة «تشي» جيفارا تعكس غير ما تقوله في حقيقتها ولا يمكننا التحدث عن خصام وانفصال حين تتحدث عن صداقة. لقد ترك «تشي» جيفارا كوبا ليحمل إلى البلاد أخرى ما تعلمه في كوبا مع فيدل كاسترو. ويفرض قراره هذا علينا الاحترام والإعجاب بشخصيته في هذه الجزيرة التي تقرأ مدارسها رسالته الوداعية الموجهة إلى كاسترو وتعلق صوّره على جدران جميع القرى.

لقد اعتبر الشعب الكوبي «تشي» أحد الأبطال الثوريين الذين يستمد

منهم المثل الحي للنضال. والشعب الكوبي معجب بـ«تشي» جيفارا وينادي بفيدل تاركاً لأعداء الثورة مهمة الصيد في الماء العكر خلال محاولتهم الرامية إلى وضع هذين القائدين الواحد ضد الآخر رغم الوثائق البديهية التي تثبت عكس ذلك.

النهاية.

في أثناء تحرير هذا الكتاب وقعت أحداث هامة في الاتحاد السوفيتي، حيث استقال الرئيس ميخائيل غورباتشوف من رئاسة الاتحاد السوفيتي. وبعد ذلك جرى تفكيك الاتحاد السوفيتي إلى دول شبيهة بالكومونولث وسميت كذلك، حيث حصلت هذه الجمهوريات على استقلالها المدعوم من الولايات المتحدة حيث قام عراب التفكيك والمخابرات الأميركية (بيكر) وزير الخارجية الأميركية عشية التفكيك بجولة على هذه الجمهوريات وزع عليها الحصص المتساوية من ملايين الدولارات... الخ.

والمهم لدينا هو مصير (كوبا) التي كانت تحصل على الرعاية الأولى من الاتحاد السوفياتي (سابقاً) وتحصل على أكثر من /٣٠٠/ مليون دولار سنوياً كإعانة غير ما ذكر في هذا الكتاب.

إنها.. السياسة... والمخابرات..

سعيد الجزائري

الفهرس

هذا الكتاب

يتضمن هذا الكتاب مجموعة مقالات ظهرت في بادئ الأمر في صحيفة «بوهيميا» الكوبية الكبيرة وهي صحيفة القوات المسلحة الكوبية التي أنشئت في كوبا بعد انتصار الثورة كما سيجيء في هذا الكتاب، لذلك كان من الطبيعي أن تضاف إلى هذه المقالات، حسب رأي «تشي» نفسه، مقالات أخرى نشرها هو نفسه قبل وبعد نشر الأصل في صحيفة «بوهيميا». ولهذا فإن هذا الكتاب الذي نقدمه لقراء كتب المخابرات والعالم هو أكثر كمالاً من النسخة التي نشرت في كوبا نفسها. وسيجد القارئ فيه سرداً متتابعاً وتفصيلياً تاريخياً واضحاً للعمليات العسكرية التي جرت في الجزيرة الكبيرة (كوبا).

ومذكرات (تشي) تدل بكل وضوح على أنه لم يكن يعتبر نفسه (كمؤرخ) ولكنه كان يعتبر نفسه (شاهد عيان) ينقل مشاركته الشخصية في تاريخ الحرب الثورية الحديثة. وهي تُنشر، بهذا الترتيب، لأول مرة وتستدعي الإعجاب بها منذ أول وهلة، فقد لاقت إقبالاً كبيراً حتى الآن، بل وتُرجمت إلى أغلب لغات العالم.

كما يستعرض هذا الكتاب المراحل التاريخية التي مرت بها كوبا منذ اكتشافها على يد كريستوف كولومبوس، فغدت مستعمرة اسبانية منذ ذلك اليوم، واستطاعت كوبا بعد ذلك أن تتحرر من الاستعمار الاسباني بعد حرب طويلة، ودامية. ولكن ما لبثت أن وقعت تحت الاستعمار الأميركي من جديد. وليس هناك مَنْ يمكنه وَصْفَ خيبة الأمل التي أصابت الكوبيين، فلقد سرقت أميركا ثورتهم، إذ بعد أن قاتلوا ثلاثين سنة في سبيل الاستقلال سقطوا في استقلال مشبوه تحت سيطرة الولايات المتحدة الأميركية إلى أن كانت ثورة فيديل كاسترو ورفيق دربه تشي غيفارا صاحب هذه المذكرات.

الناشر